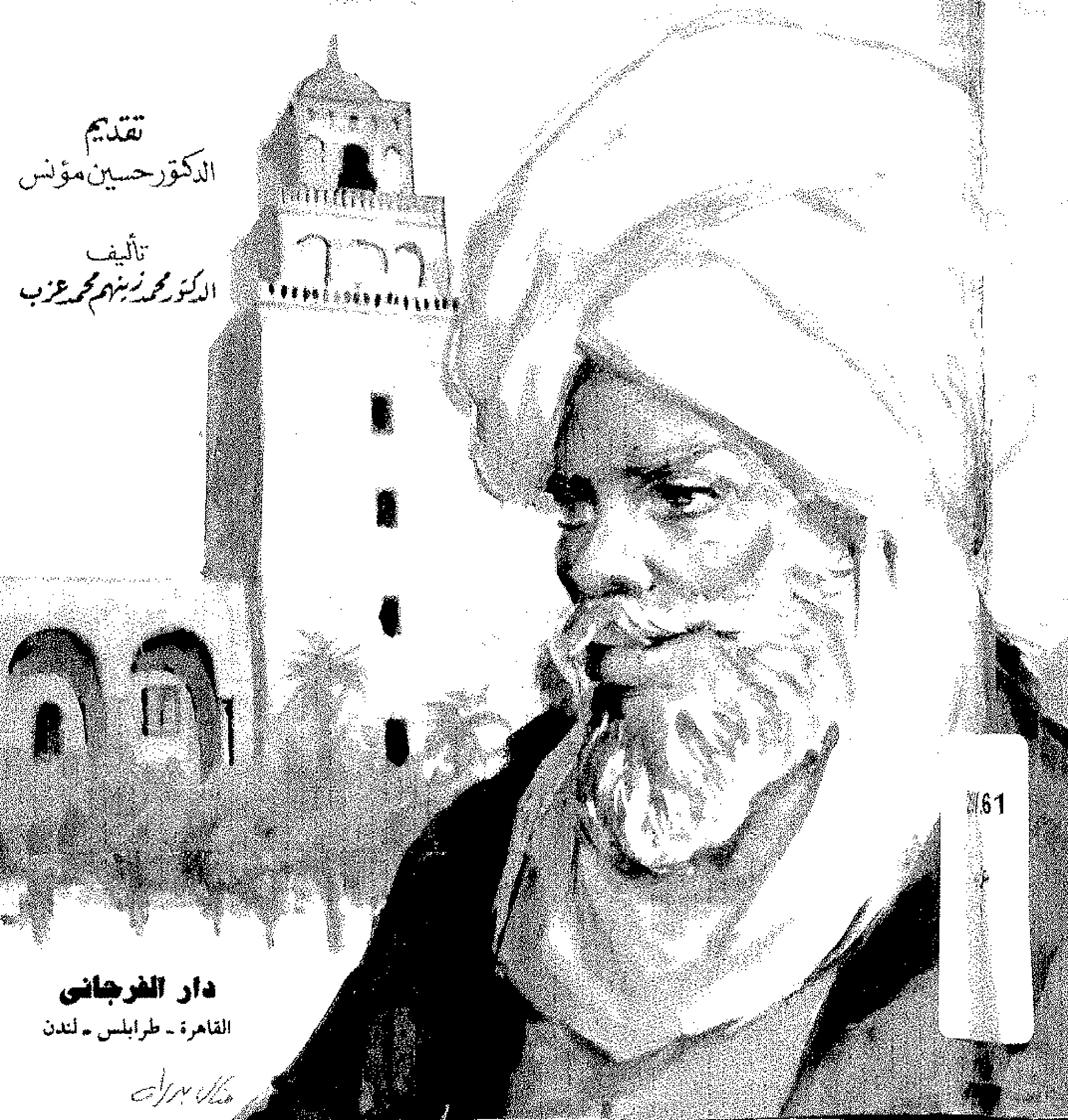
الإمام سحنون



تقديم
الدكتور حسين مؤنس

تأليف
الدكتور محمد زينهم محمد عزب

دار الفرجاني
القاهرة - طرابلس - لندن

الإمام سحنون

تقديم

الدكتور حسين مؤنس

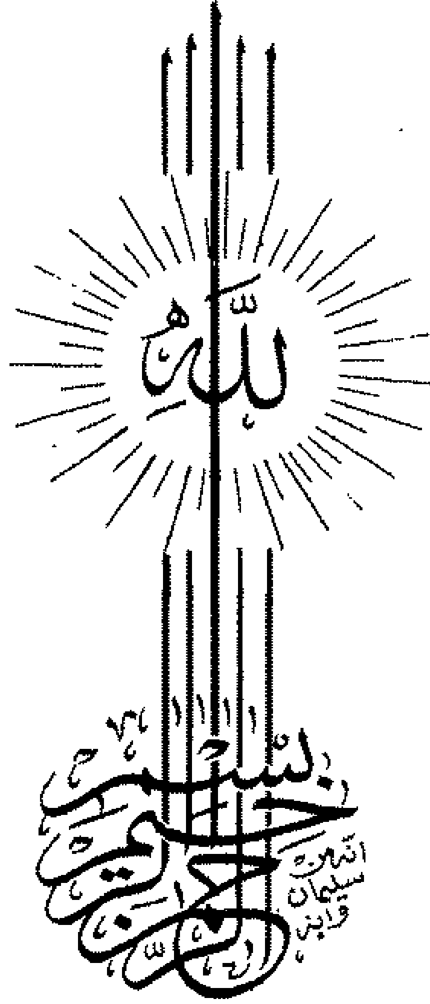
تأليف

الدكتور محمد زينهم محمد عزب

الناشر

دار الفرجاني

القاهرة - طرابلس - لندن


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

أما بعد ، فإن عظماء فقهاء إفريقيا ثلاثة :

عبد السلام بن سعيد المشهور بسحنون .

ومحمد بن أبي زيد القيرواني .

ومحمد بن محمد بن عرفة .

فأما الأول فواحد من أعظم الأساتذة في تاريخ العلم الإسلامي ، وأما الثاني فهو صاحب الرسالة المعجزة التي جمعت الفقه المالكي كله في ورقات ، وهو مع ذلك ليس كتاب فروع ، بل كتاب أصول من الطراز الأول ، وأما الثالث فهو زينة عصر السلطان الحفصي أبي فارس بن أبي العباس أحمد بن أبي يحيى بن أبي بكر ابن الأمراء الراشدين كما يقول مؤرخو إفريقية .

غير أن أعلاهم كعباً وأعظمهم قدراً ودرة تاريخ الحضارة الإفريقية كلها هو عبد السلام بن سعيد سحنون الفقيه القاضي الأستاذ المعلم الذي يعتبر من أجمل الشخصيات الحضارية في تاريخ الإسلام . فهذا شيخ عربي الأصل ينحدر من أسرة عربية من آل تنوخ هاجرت إلى إفريقية من حمص . ثم تأصلت في البلاد وعظم قدرها فيها ، وولد في أحد بيوتها سحنون سنة ١٦٠ هـ/٧٧٦م . قبل قيام الدولة الأغلبية بربع قرن ، فشب في العصر الأغلبي الذي يعتبر ضحى التاريخ الإفريقي ، ودرس على خيرة شيوخ عصره في إفريقية ، ثم ذهب يطلب مالكاً شيخ عصره ليدرس عليه في دار الهجرة فلم يدركه فدرس على ابن الماجشون من شيوخ المدينة ، ثم كر راجعا إلى مصر حيث درس على شيخيها عبد الرحمن بن القاسم العتقي وأشهب بن عبد العزيز ، ولم تطل إقامته بمصر ولكنه حصل في السنوات القليلة أضعاف ما حصله غيره في العمر الطويل ،

لأن سحنوناً كان خارق الذكاء ، فعاد إلى بلده فقيها مكتملاً وأخذ مكانه للتدريس في جامع عقبة بالقيروان .

وقد وهب الله سحنوناً عقلا ذكياً وخلقاً حكيماً ، فقد كان ينحدر من بيت ميسور ، فقد ورث عن أبيه ضيعة صغيرة ولكنها كانت تغل عليه ما يكفيه عن سعة ، فاستغنى سحنون بهذا الدخل المتواضع عن طلب الوظائف أو السعي إلى الرزق ، فنشأ قنوعاً ، راضياً بما عنده غير ملتفت إلى ما عند السلطان وأولي الأمر ، فوهب نفسه للعلم وأخلص لتلاميذه وأخلصوا له ، فلم يلبث صيته أن ارتفع وتقاطر عليه الطلاب يسمعون عليه ، وأحبه أنداده من الفقهاء وأهل العلم .

وكان سحنون نظيفاً حسن الهيئة جميل الثياب ، فأصبح مثلاً يحتذى في حسن الهيئة مع الكمال ، واجتهد الناس في تقليده فأصبح شخصية حضارية ، وكان حسن الكلام عفيف اللسان لا يذكر مؤرخوه خصومة بينه وبين أحد من معاصريه فيما خلا ما كان بينه وبين القاضي محمد بن أبي الجواد ، وكان هذا الرجل من فقهاء الدولة يجري بين أيدي الحكام بما يرضيهم فيقربهم ، وقد انتهز فرصة فتنة خلق القرآن التي استشرت في دولة العباسيين في عصري المأمون والمعتصم فجرى فيها وانضم إلى رجال الحكومة واشتغل بتعذيب القضاة وأهل الدين على إنكارهم القول بخلق القرآن في إفريقية ، وكثرت مساءاته في ذلك حتى أبغضته القلوب ، فلما تولى سحنون القضاء بعد إلحاح من الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبي وهو في سن الرابعة والسبعين ، وكانت المحنة قد انتهت ، طلب ابن أبي الجواد بسوء ما فعل مع إخوانه وما آذاهم ، ومن سوء حظ سحنون أن الرجل توفي وهو في العذاب فركب سحنون الندم وظل بقية عمره ينكر أنه طلبه بثأر أو أمر بتعذيبه بما يجلب الموت ، ولم يلبث هو الآخر أن توفي سنة ٢٤٠ هـ/٨٥٤م . وقد نيف على الثمانين ، ففقدت إفريقية بموته فقيهاً ممن يزدان بهم تاريخها وشخصية حضارية ضربت المثل الأعلى للناس في حسن الخلق وطيب العشرة ، وقد عاصر سحنون طواغيت الأمراء فعاملهم برفق وإحسان وتباعد عنهم فعظم أمره ، ونصح زملاءه وتلاميذه بحسن معاملة

الأمراء حتى يتحسن خلقهم ويعرفوا معاني العدل والإنصاف وحسن السيرة . وقد نجح سحنون فيما طلب نجاحاً عظيماً وصار شيخ عصره وعظيم أيامه ، وترك لنا إلى جانب مدونته موطأ مالك ، وهى من أعاظم الأعمال العلمية في تاريخ الفقه في عالم الإسلام ، وسيرة عاطرة كان لها أبعد الأثر في تحسين أخلاق الناس وتهذيبهم ونقل المجتمع الإفريقي كله من حال إلى حال .

* * *

تلك هى الشخصية التى اختارها تلميذي محمد زينهم محمد عزب لينشيء عليها رسالته للدكتوراه ، وقد بذل في ذلك جهدا مضنيا وقرأ عن سعة ، إذ لا يخلو كتاب من كتب تاريخ إفريقية أو تاريخ العلم فيها من كلام عن سحنون ، بل إن القاضي عياض خصص له في ترتيب المدارك في تراجم المالكية صفحات كثيرة حافلة بالأخبار ، وقد قرأ محمد زينهم هذا القدر الكبير كله من الكتب ثم ألم بتاريخ الفقه ، والفقه المالكي خاصة ، لكي يكتب هذا البحث القيم ، والحق أن زينهم بذل أقصى ما يستطيع ، وقرأ تاريخ العصر الأغلبي ، وكتب تراجم فقهاء إفريقية وهى كثيرة ، وإلى جانب ذلك درس تراجم العباد والزهاد والعاكفين على العبادة في قصور الحراسة على سواحل البحر ، وكان هؤلاء جميعا يحبون سحنون ويوقرونه ويعتبرونه شيخهم بخلاف ما نعرف من العداء بين أهل الزهد والانقطاع عن الدنيا من ناحية وأهل الفقه وطلاب القضاء وغيره من وظائف الحكومات من ناحية أخرى . ولكن سحنون كان فريدا في نوعه نادرة في تاريخ الفقه كله .

لقد خرج الدكتور زينهم من بحثه بنتائج مشكورة هى التي يجدها القارىء بين دفتي هذا الكتاب ، وقد بذلت جهدي في الإشراف على عمله ، وأرجو أن ينفعه الله سبحانه وتعالى بثمرته ، وأن يجد القارىء فيه طليعة في البحث عن سحنون .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

د. حسين مؤنس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

يعتبر أبو سعيد عبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون أكبر شخصية فقهية وعلمية ظهرت في تاريخ المغرب بصفة عامة وإفريقية الإسلامية بصفة خاصة خلال العصور الوسطى . فقد شب سحنون في بيت علم ودرس دراسة واسعة ثم رحل إلى المشرق ليأخذ فقه مالك على يد صاحبه إمام دار الهجرة ، ولكن (الإمام مالك) توفي وسحنون على باب المدينة ، فلم تتح له الدراسة على مالك فدرس على يد تلاميذه الكبار في مصر وعلى رأسهم عبد الرحمن بن القاسم العتقي وعبد الله بن وهب وأشهب بن عبد العزيز ، وهم دعائم المدرسة المالكية في مصر في ذلك العصر .

وقد تفقه سحنون على يد هؤلاء الشيوخ ودرس دراسة مستفيضة ثم ارتحل إلى المدينة معقل المذهب المالكي حيث فيها ولد ونشأ ووضع الإمام مالك أسس مذهبه السني ، وهناك التقى سحنون بكبار الفقهاء المالكية آنذاك أمثال ابن الماجشون وابن عيينه وابن الجراح وغيرهم ، ثم قصد مكة ليزداد علماً من فقهائها المالكيين ثم عاد إلى بلاده شيخاً متكامل العلم ناضج الشخصية فجلس بمسجد القيروان ينشر مذهب الإمام مالك .

نشأ سحنون في أسرة طيبة ميسورة الحال وقد ورث عن أبيه مالاً وأرضاً فلم يضطر إلى العمل في خدمة الدولة فاقتصر على العلم وتكونت حوله جماعة من الطلاب والأتباع نظراً لما امتاز به من شخصية فذّة وخلق كريم وعلم غزير .

بدأ سحنون نشاطه العلمي في إفريقية في أيام زيادة الله الأول بن إبراهيم الأغلبي لأنه ولد قبل بداية العصر الأغلبي بنحو ربع قرن ، وكان المجتمع

الإسلامي في إفريقية قد بدأ يأخذ هيئته المميزة له مع قيام دولة الأغلب في إفريقية من سنة ١٨٤ هـ ، وساد البلاد رخاء واستقرار مكّن الناس من تعليم أولادهم وإرسالهم إلى المشرق للدراسة فكانوا يدرسون ويعودون ليصبحوا شيوخ الناس في إفريقية ويتولوا التعليم والقضاء .

وكان سحنون واحداً من هؤلاء ولكن مواهبه وفضائله جعلته من كبار الشخصيات في عصره ، وكان له شأن ودين ومركز اجتماعي ، وقد عرف كيف يسوس أمراء الأغالبة الذين عاصرهم وهم أبو العباس عبد الله الأول ، وأبو محمد زيادة الله الأول ، وأبو عقال الأغلبي ، وأبو العباس محمد ، وأبو إبراهيم ابن أحمد بن محمد ، وتوفي في عصر هذا الأخير .

والملاحظ أن سحنوناً كان حريصاً كل الحرص في علاقته مع أمراء الأغالبة فلم يتقرب إليهم ولم يأخذ منهم أي مال ، سواء عطايا أو منح أو ما يشبه ذلك ، وكان يتصدى لهم عندما يقع ظلم على أي فرد يستنجد به فعاش سحنون ثمانين سنة منها فوق نصف قرن خلال العصر الأغلبي ، وقد مكن له العمر الطويل من تكوين مدرسة علمية فقهية مالكية كبيرة تخرج منها أكثر من سبعمائة طالب ، وأصبحوا بعد ذلك أعمدة المجتمع العربي سواء في إفريقية أو المغرب أو الأندلس ، ويكفي أن نذكر أن سبعة من الفقهاء الكبار من بلدة البيرة « وهي كورة أندلسية » كانوا من تلاميذ سحنون .

لم يتول سحنون القضاء في إفريقية إلا في آخر عمره وهو يبلغ من العمر أربعة وسبعين عاماً أي بعد انتهاء محنة الاعتزال وخلق القرآن وكان له من ذلك المذهب الفقهي موقف عدائي كاد أن يصيبه بالأذى لولا أن الأمير الأغلبي الذي يناصر مذهب خلق القرآن قد مات .

ومن المعروف أن محنة خلق القرآن كانت قد زلزلت كيان الدولة العباسية وخاصة أن هدفها كان التخلص من كبار المعارضين الذين رفضوا القول سواء أكانوا علماء أم فقهاء أم رجال سياسة ، والذين يعارضون الخلفاء العباسيين برفض القول بخلق القرآن ، فكانت محنة خلق القرآن ذريعة للمأمون والمعتصم

في تحقيق هذا الهدف ، ونجد أن المحنة لم تشتد في بلاد المغرب والأندلس عنها كما اشتدت في المشرق .

وعندما تقلد سحنون منصب القضاء لم يطل عمره فيه إذ أنه لم يظل في هذا المنصب إلا سبع سنوات ولكنه عرف كيف يكون المثل الأعلى للقاضي النزيه العادل المتعفف عن المال ، مما جعله بحق نموذجاً من أفضل وأحسن نماذج القضاة الأجلاء والعظماء في تاريخ القضاء عند المسلمين وقد تولى الانتقام من محمد بن أبي الجواد الفقيه المعتزلي « زوج أسماء بنت أسد بن الفرات » ومات هذا الرجل تحت العذاب ، فندم سحنون على هذا العمل وتبرأ من دم ابن أبي الجواد مما جعل بعض الناس يرددون أشياء غير حقيقية حول هذا الموضوع ، لكن هذا الحادث لم يقلل من شأن سحنون لأن ابن أبي الجواد كان قد اقترف كثيراً من المظالم مع عدد كبير من الفقهاء في إفريقية أثناء شدة محنة القول بخلق القرآن ، فزاد أثره وعظم شأنه مع مرور السنين وأصبح علماً في النهضة العلمية والاجتماعية في إفريقية ابتداء من العصر الأغلبي . فقد ظل سحنون على مر العصور مثالا للعالم المتمكن والفقيه الجليل الذي سار الناس في آثاره واتبعوا طريقه في العلم والنظر والقضاء ، وقد أنجب سحنون ابنه محمد الذي سار على نهجه في العلم والأخلاق ، وأنجب سحنون كذلك بنتاً تسمى خديجة وهى من أشهر نساء إفريقية علماً وأدباً وورعاً وجمالاً ، فكانت تحضر مجالسه وتجادله المسائل ، بل كانت تقيم في منزلها مجالس علمية وفقهية يحضرها نساء كثيرات من طالبات العلم ، وكانت تسبقها في هذا الميدان أسماء بنت أسد بن الفرات فكان لها نصيب في النهضة العلمية والفقهية النسائية في إفريقية ، وكانت هناك منافسات بين خديجة بنت سحنون وأسماء بنت أسد بن الفرات في ميدان العلم والفقه .

ولسحنون مؤلفات قليلة أهمها مدونته للفقه المالكي وهى أشهر تدوينات الموطأ التي أصبحت من أهم مراجع الفقه المالكي ، وكثر تدارس الناس لها وشرحها في المغرب . والأندلس ، فنجد ابن عبدوس يضع كتابه المجموعة وكذلك ألف ابنه محمد بن سحنون كتابه آداب المعلمين وغير ذلك .

خلاصة القول أن سحنوناً يعتبر من معالم الحضارة في بلاد المغرب الإسلامي ، بل والعالم الإسلامي كله خلال العصور الوسطى .

وقد قمت بتقسيم بحثي إلى ثلاثة أبواب ، فالباب الأول عنوانه « عصر سحنون وحياته » فهو يشتمل على أربعة فصول ، ففي الفصل الأول تحدثت عن الحياة السياسية والاجتماعية في إفريقية قبل قيام دولة الأغالبة ، وتعتبر هذه الفترة من الفترات المهمة في حياة إفريقية حيث نتناول فيها الصراعات بين القوى المتعددة من أجل الانفراد بالسلطة فمنها قوة الخوارج التي كلفت الدولة العباسية الكثير من المال والأرواح ، وقوة آل حبيب الذين كانوا يمثلون السلطة العباسية الشرعية ثم محاولتهم الانفصال عنها ، فأخذ عنهم العبء المهالبة ثم قوة البربر وهم سكان البلاد الأصليون فهم يميلون دائماً إلى الثورة والتمرد ولا يخضعون لأي سلطة أو قانون . أما الفصل الثاني فهو يشتمل على قيام دولة الأغالبة ، فهو يتناول الظروف التي مهدت لإبراهيم بن الأغلب الأخذ بزمام السلطة في إفريقية ثم مهارته في إدارة شئونها والتعامل مع القوى الأخرى ، ثم تناولت حضارة وعمران الأغالبة ، أما الفصل الثالث فهو يتناول حياة سحنون منذ نشأته ورحلته إلى المشرق إلى أن أصبح قاضياً للقيروان ، أما الفصل الرابع فهو يتناول كبار مشايخ سحنون الذين أخذ عنهم الفقه المالكي سواء أكانوا في إفريقية أو في مصر أو في بلاد الحجاز ومكة وغيرهم .

أما الباب الثاني فعنوانه « سحنون ومجتمع الأغالبة » وهو ينقسم إلى أربعة فصول ، فالفصل الأول يتناول ملامح شخصية سحنون التي ميزته عن غيره من الفقهاء والعلماء ومدى تأثير هذه الشخصية على عامةالناس والمجتمع الأغلبي ، أما الفصل الثاني فهو يتناول موقف سحنون من الأمراء الأغالبة وما يقع بينهم من صدامات ، وتمسك سحنون بنصرة أهل المظلوم وغالباً ما يهدد سحنون بترك وظيفة القاضي إذا تمسك الأمير برأيه مما يجعل الأمير يتنازل عن رأيه خوفاً من إثارة سحنون أهل إفريقية عليه ، أما الفصل الثالث فهو يتناول تصرفات سحنون عندما أسند إليه منصب قاضي القيروان ، وما أدخله سحنون

من تغييرات في المجتمع الأغلبي مثل الحسبة وغيرها ، أما الفصل الرابع فهو يتناول كبار العلماء والأدباء والشعراء والنحويين واللغويين الذين عاصروا سحنون ومركز سحنون بينهم .

أما الباب الثالث فعنوانه « ثقافة سحنون وآثاره » وهو ينقسم إلى ثلاثة فصول ، فالفصل الأول يتناول المدونة الكبرى التي ألفها سحنون وآثارها في بلاد المغرب والعالم الإسلامي ، أما الفصل الثاني فيتناول كبار تلاميذ سحنون الذين انتشروا في جميع أنحاء العالم الإسلامي وأثر سحنون فيهم ، أما الفصل الثالث فيتناول تقويماً عاماً لسحنون وماذا يقول عنه التاريخ .

والله ولي التوفيق ،،، .

المؤلف

الباب الأول

عصر سحنون وحياته

الفصل الأول : الحياة السياسية والاجتماعية في إفريقية قبل قيام دولة الأغالبة .

الفصل الثاني : دولة الأغالبة ودورهم في إفريقية .

١ ـــ قيام الدولة .

٢ ـــ الحضارة والعمران .

الفصل الثالث : حياة سحنون .

الفصل الرابع : مشايخ سحنون .

الفصل الأول

الحياة السياسية والاجتماعية في إفريقية

قبل قيام دولة الأغالبة

الحياة السياسية والاجتماعية في إفريقية

قبل قيام دولة الأغالبة

كان قيام دولة الأغالبة في إفريقية عام ١٨٤هـ ـ ٨٠٠م مرتبطاً[١] ارتباطاً وثيقاً بما كان يسود بلادها من اضطراب وفوضى وصراع مذهبي وثورات الجند العرب والبربر في الفترة الممتدة من خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥هـ ـ ١٢٥هـ / ٧٢٤م ـ ٧٤٣م) إلى نهاية الدولة الأموية ١٣٢هـ/٧٤٩م .

وفي الحقيقة كانت الخلافة العباسية مشغولة بمشاكلها في المشرق لتثبت كيانها ووجودها ، فكان عليها محاربة الزندقة والقضاء على حركات العلويين ، ووقف أخطار البيزنطيين ، ولهذا لم يتسع وقت الخليفة أبو العباس السفاح للاهتمام كثيراً بما يقع ويحدث في بلاد المغرب لأن تفكيره كان منصباً نحو المشرق ، ومع ذلك لم تغفل عيناه عن الجناح الغربي لدولة الإسلام ، والذي كان يشتمل على مصر وبرقة وإفريقية ، فاكتفى بالاستجابة[٢] إلى ما طلبه عبد الرحمن بن حبيب ، فقد كان عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة ابن نافع[٣] زعيماً سياسياً واسع النشاط ، يعتمد على ما حققه جده عقبة بن نافع من شهرة وسمعة وإنجازات حربية ، ولكنه في نفس الوقت انحرف عن نمط سياسة جده ، فكان رجلاً طامعاً في الحكم فلم يقم بتنظيم أمور دولته كما فعل عبد الرحمن[٤] بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (١٣٨هـ ـ ١٧٢هـ) ولكن كان كل همه البقاء في إمارته دون سند شرعي .

وكان عبد الرحمن بن حبيب من أكبر قواد العرب البلديين[٥] بإفريقية ،

---

(١) محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة ص ٩ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار المغرب جـ ١ ص ٦٣ .

(٣) ابن خلدون : العبر من ديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

(٤) عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص المغرب ص ١٦ .

(٥) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٦٧ .

ولهذا كان أشدهم تطلعاً إلى ولاية إفريقية فقد كان يرى نفسه أهلاً لها رغم معارضة الكثيرين من أمثاله من قادة العرب البلديين في إفريقية . ولم يسبق في تاريخ المسلمين إلى ذلك الحين أن وافقت دولة الخلافة على أن يستقل أحد الولاة بولايته عن الدولة سواء استقلالاً تاماً أو غير تام .

ولكن الأحوال في دولة الإسلام كانت تمر — أثناء فترة الانتقال من الأمويين إلى العباسيين ، والتي بدأت من منتصف حكم مروان بن محمد الجعدي وطوال خلافة أبي العباس السفاح وجزء من ولاية أبي جعفر المنصور — بحالة من الفوضى وعدم الاستقرار . وبعد عشر سنوات من ولاية المنصور استقرت الأمور وأصبح الخليفة المنصور سيد الدولة الإسلامية بلا منازع .

فلما أعلن عبد الرحمن بن حبيب نفسه أميراً على القيروان بعث بطاعته إلى أبي جعفر المنصور[1] ، ولم يكن لدى الخليفة العباسي حينئذ متسع من الوقت للنظر في أمر إفريقية بعناية[2] ، فأقره ريثما تسمح ظروفه بالتفرغ للجناح الغربي من دولته الكبيرة ثم طالبه المنصور بالمال ، وكان ذلك طبيعياً من المنصور لأنه كان خليفة المسلمين والمفروض على جميع ولاة الدولة أن يرسلوا للحكومة المركزية بالمال المتبقي من خراج ولاياتهم ليستعين به الخليفة على مطالب الخلافة ، وقد فوجيء عبد الرحمن بن حبيب بهذا المطلب لأنه إلى ذلك الحين لم يكن صاحب السلطان على إفريقية لكي يستطيع استخراج المال الكافي منها لينفق على إدارتها ومرافقها من ناحية ، ثم لكي يرسل ما يتيسر له إلى الخلافة ، وكان يستطيع أن يشرح أمره للخليفة المنصور ولكن بدلاً من ذلك قام

---

(١) وكان عبد الرحمن بن حبيب قد كتب إلى المنصور « إن إفريقية اليوم إسلامية كلها وقد انقطع السبي منها والمال ، فلا تطلب مني مالاً » فرد عليه المنصور « إني ظننت أن هذا الخائن يدعو إلى الحق ويقوم به ، حتى يتبين لي خلاف ما بايعته عليه من إقامة العدل ، وإني الآن قد خلعته كما خلعت نعلي هذا ، وقذفه من رجله » . النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب جـ ٦٤ ص ٦٦ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ٤ ص ٢٨٠ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار المغرب جـ ١ ص ٦٧ .

عبدالرحمن بن حبيب بنزع شعار السواد[1] وهو شعار بني العباس وقطع ذكر اسم المنصور في الخطبة[2] ، وهذا أول الأخطاء الكبرى التي وقع فيها عبد الرحمن بن حبيب لأنه ظن أنه يستطيع التغلب على كل منافسيه في ولاية إفريقية ، وفي نفس الوقت كان يعتقد أن الخليفة لا يملك قوة كافية لاستعادة السلطان على إفريقية إذ لم يكن من المناسب له وهو في مرحلة تثبيت أمره أن ينفصل عن الدولة العباسية ويحمي نفسه من جيوشها ، خاصة وقد كان له الكثير من المنافسين جداً من أمثاله في ولاية إفريقية ، ثم إن الدولة العباسية كانت شديدة الاهتمام بولاية إفريقية التي كانت تشمل طرابلس وإفريقية والزاب تأميناً لولاية مصر التي كانت تعتبر من أهم ولايات الدولة الإسلامية سياسياً وعسكرياً ومالياً[3] .

وبعد أن أعلن عبد الرحمن بن حبيب انفصاله عن الدولة العباسية ، شرع في تثبيت سلطانه معتمداً على ما كان تحت إمارته من الجند العربي ومن استطاع إدخاله في خدمته من أهل إفريقية ، وساعده على ذلك أن أخاه إلياس بن حبيب[4] كان قائداً عسكرياً قادراً وهو الذي ثبت أقدام دولة أخيه ، بدلاً من أن يتعاون عبد الرحمن بن حبيب مع أخيه ويظهر له وفياً لما اتفق معه عليه من أن يكون إلياس ولياً لعهده[5] ، نجده يتخوف منه ويفكر في عزله عن ولاية الجند ، ولكن نجح إلياس بن حبيب في جمع طائفة كبيرة من الفرسان والمقاتلين من الجند البلدية في إفريقية بجانبه .

وزاد من ضعف مركز عبد الرحمن بن حبيب أنه لم يفكر في توحيد العناصر العربية الموجودة في البلاد أو الاستعانة بالعنصر البربري في إدارة شئون

---

(١) ابن الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ص ١٣٤ ، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ٧٦ . وفي رواية أخرى أن عبد الرحمن بن حبيب أحرق السود . ابن الأثير : الكامل في تاريخ جـ ٤ ص ٢٨١ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٦٧ .

(٣) محمد ضياء الدين : الخراج ص ١٤٩ .

(٤) ابن الآبار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٨٢ .

(٥) الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ص ١٣٤ .

الإمارة لكي يستطيع التثبت في ولايته إذا ظهر له منافس أو ثار عليه ثائر أو خرج عليه خارج ، وتعجل عبد الرحمن بن حبيب الأمر فعزل أخاه إلياس عن القيادة وأزمع المبايعة لابنه حبيب بولاية العهد مما جعل إلياس يحرض أهل إفريقية ويتآمر مع أخيه عبد الوارث[1] لقتل عبد الرحمن بن حبيب .

وإزاء كل هذه الأخطاء لعبد الرحمن سواء من ناحية الدولة العباسية أو من ناحية إفريقية ، تحرج مركزه ووقع القتال بينه وبين أخيه وكان معظم رؤساء الجند مع إلياس هذا ، فكانت النتيجة أن قتل عبد الرحمن بن حبيب في سنة ١٣٧ هـ ، وفر ابنه حبيب إلى تونس[2] .

وهكذا أسدل الستار على عبد الرحمن بن حبيب الفهري بعد أن قضى في الإمارة عشر سنوات[3] وسبعة أشهر قضاها كلها في حروب مع البربر .

استعان حبيب بن عبد الرحمن بجماعات البربر لاستعادة ملك أبيه في إفريقية ، ونجح في قتل عمه إلياس ، ولكن لم يدم حكمه حتى استولى عمه عبد الوارث على القيروان[4] ، ففر حبيب إلى قبيلة بربرية كبيرة مستعربة[5] تعرف باسم ورفجومة[6] وهي قبيلة طارق بن زياد ، وكان يرأس هذه القبيلة عاصم بن جميل[7] وكان من الخوارج الصفرية وهو ابن أخت طارق بن زياد الذي تمكن من القضاء على حكم ونفوذ بني حبيب في إفريقية ، واقتحم رجال قبيلته القيروان وأقام حكماً خارجياً صفرياً في القيروان واضطهدوا السنة وأهلها حتى قيل إنهم دخلوا بخيلهم المسجد الجامع بالقيروان،ولما بلغ ذلك

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ٦٨ .
(٢) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص ١٣٩ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٨٠ .
(٤) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ٢٥١ .
(٥) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٦٩ .
(٦) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٧ .
(٧) كان عاصم بن جميل زعيماً كاهناً «ادعى النبوة والكهانة» فبدل الدين وزاد الصلاة وأسقط ذكر النبي ﷺ من الأذان ، وقيل هو من بطون نفراوة .
ابن خلدون : العبر من ديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ٤٠٩ .
ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ٤ ص ٢٨٠ .

أبا الخطاب[1] عبد الأعلى بن السمح المعافري إمام الخوارج الأباضية في جبل نفوسة غضب لما أصاب المسجد ، فسار بجموعه ودخل القيروان وقتل عاصم ابن جميل[2] ، وبذلك انتهى حكم بني عبد الرحمن بن حبيب في إفريقية .

كل هذه الحوادث أفزعت أبا جعفر المنصور ، فأمر واليه على مصر آنذاك محمد بن الأشعث[3] الخزاعي بالمسير إلى إفريقية وإخراج الأباضية[4] الذين استولوا على إفريقية من الخوارج الصفرية وإعادتها إلى دولة السنة والجماعة ، وكان جيشه يضم ٤٠,٠٠٠ مقاتل[5] ، وعادت إفريقية مرة ثانية إلى مذهب السنة مذهب الدولة العباسية .

عين محمد بن الأشعث نائباً له في إفريقية ويسمى أبو الأحوص عمرو بن الأحوص العجلي[6] ولكنه لم يتمكن من التغلب على ما يحدث فيها بل طرده زعيم الخوارج الأباضية أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح بن مالك المعافري ، وزاد خطر الخوارج الأباضية مما جعل المنصور يطلب من واليه بمصر سرعة التوجه بنفسه إلى المغرب . ودارت معركة في منطقة تاورغا[7] (الواقعة إلى الشرق من طرابلس) وقتل فيها أبو الخطاب زعيم الأباضية ، وتولى زعامة الأباضية يعقوب بن حاتم المعروف بأبي حاتم الملزوزي[8] .

قام والي القيروان الجديد بعدة أعمال تميل إلى القسوة نذكر منها : أنشأ معسكراً جديداً ، واتبع الشدة مع سكان القيروان حتى إنه أمر بقتل[9] كل رجل يسمى بأسماء أموية مثل سفيان ومروان ، ولا نعرف سبباً لهذه الظاهرة ، لعله أراد أن يتخلص من كل شخصية يخشى منها على السلطة العباسية ، وإفريقية التي هي مسرح الحوادث وموطن الفقيه أبي سعيد بن حبيب بن هلال

(١) الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ص ١٤١ .
(٢) النويري : المصدر السابق جـ ٢٤ ص ٧٠ .
(٣) ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ٤٦ .
(٤) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ٧٤ .
(٥) ابن عذارى : المصدر السابق جـ ١ ص ٨٣ .
(٦) الأنصاري : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ص ٦٦ .
(٧) د. محمود إسماعيل عبد الرازق : الخوارج في بلاد المغرب ص ٧٦ .
(٨) الشماخي : السير ص ١٢٧ .
(٩) النويري : نهاية الأرب — مخطوطة بدار الكتب المصرية — ورقة ١١٤ .

ابن بكار التنوخي الذي هو موضوع البحث ، وفيها ستدور أحداث حياته والدور الكبير الذي قام به في تاريخها وتاريخ الإسلام كله ، فلابد أن نقف بعض الوقت عند هذه الولاية لنرى كيف كانت في ذلك الوقت .

بعد أن انتصر المسلمون على الروم في موقعة سبيطلة[1] ٢٧ هـ ـ ٦٤٨ م بدأت ولاية إفريقية في الظهور عندما أنشأ عقبة بن نافع الفهري مدينة القيروان[2] ومسجدها الجامع فيما بين سنتي (٥٠ هـ ـ ٥٥ هـ/٦٧٠م ـ ٦٧٥م) .

قامت ولاية إفريقية الإسلامية ولاية مستقلة بنفسها ، لها واليها وإدارتها المستقلة عن ولاية مصر .

وعندما تولى تلك الولاية حسان بن النعمان الغساني (٧١ هـ ـ ٨٥هـ / ٦٩٠م ـ ٧٠٤م) وضع أساس النظام الإداري لتلك الولاية الجديدة وكانت حدودها الجغرافية والسياسية مطابقة لولاية إفريقية البيزنطية ، فإن إفريقية البيزنطية كانت تشمل ولاية طرابلس مضافاً إليها إفريقية نفسها ، وتقابل على وجه التقريب جمهورية تونس الحالية ثم جزءاً مما عرف فيما بعد بإقليم الزاب عند الجغرافيين المسلمين .

وكانت إفريقية البيزنطية بهذه الحدود ولاية كبيرة تضم مساحة واسعة من الشمال الإفريقي ، وإذا كنا نستطيع أن نحد حدودها الغربية بشكل دقيق ، نستطيع أن نقول بأنها كانت تشمل إقليم قسطيلية[3] وما يليه شمالاً حتى ساحل

(١) د. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٨٢ .

(٢) قال ياقوت الحموي : القيروان معرب وهو بالفارسية كاروان ، وهذه مدينة عظيمة بإفريقية غبرت دهراً ، وليس بالغرب مدينة أجل منها إلى أن قدمت العرب بإفريقية . وقال اليعقوبي : مدينة القيروان التي اختطها عقبة بن نافع الفهري ستة ستين من خلافة معاوية . وقال الإدريسي : أم الأمصار وقاعدة الأقطار ، وكانت أعظم مدن الغرب قطراً وأكثرها بشراً وأيسرها أموالاً وأوسعها أحوالاً وأتقنها بناءً . وقال البكري : كان موضع القيروان وادياً كثير الأشجار غيضة مأوى للوحوش والحيتان . بينما قال المؤرخ NEVILLE BAROUR كانت القيروان أول عاصمة جديدة أنشئت في بلاد المغرب .

معجم البلدان : جـ ٧ ص ١٩٣ ، البلدان ص ١٣٦ ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص ٢٨٤ ، Asuryey of North the West Africa p. 18.

(٣) اليعقوبي : البلدان ص ٣٤٥ .

البحر ، ويمتد غرباً فيشمل النصف الشرقي من جبال أوراس وتقف عند حدود ما يعرف اليوم ببلاد القبائل في الجزء الشرقي من جمهورية الجزائر الحالية - فتدخل فيها قلعة لبينرة أو قلاقل لبينرة وباغاية وتصل إلى البحر وتشمل ولاية بيجيا الحالية وتصل إلى مجرى نهر شلف ، ونظن أن هذه كانت حدود ولاية إفريقية في التنظيم الذي وضعه حسان بن النعمان[1] .

وعندما تولى أمور إفريقية موسى بن نصير اللخمي[2] أكمل هو وأولاده فتح المغرب الأوسط والمغرب الأقصى ، وأنشأ موسى ثلاث ولايات جديدة[3] الأولى ولاية المغرب الأقصى وتشمل النصف الشمالي للمملكة المغربية الحالية ، والثانية ولاية سجلماسة وكانت تطلق على النصف الجنوبي من المملكة المغربية الحالية ، أما المساحة التي امتدت من الحدود الغربية لولاية إفريقية إلى حدود ولاية المغرب الأقصى فهي التي أصبحت ولاية المغرب الأوسط ، تلك هي الولاية الثالثة التي أنشأها موسى بن نصير تشمل جزءاً كبيراً من أراضي جمهورية تونس الحالية .

وفي أواخر الدولة الأموية ونتيجة لأحداث الفتنة المغربية الكبرى التي بدأت في المغرب من سنة ١٢٢ هـ[4] في ولاية عبيد الله بن الحبحاب واستمرت حتى نهاية العصر الأموي . ورغم الجهود الكبيرة التي بذلها هشام بن عبد الملك لإيقاف هذه الفتنة والقضاء على ثورات الجماعات الخارجية ما بين صفرية وأباضية التي كانت قد أخرجت المغربين الأوسط والأقصى عن السلطان الفعلي للخلافة الأموية ، فلم يبق لها سلطان ملموس إلا حتى نهر شلف الذي ينبع من جبال أوراس ويتجه إلى الشمال حتى جنوب مدينة الجزائر الحالية ، فيتجه غرباً ويقترب من البحر ويواصل سيره حتى يصب في البحر الأبيض المتوسط إلى الشرق من مدينة وهران الحالية . ويفهم من كلام الجغرافي اليعقوبي[5] أن سلطان دولة الخلافة لم يجاوز المجرى الأعلى لهذا النهر

(١) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب جـ ٢٤ ص ٣٦ .
(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ٢ ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .
(٣) الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ص ٦٨ - ٦٩ .
(٤) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٦٣ .
(٥) اليعقوبي : المصدر السابق ص ٣٤٧ .

وخاصة ابتداء من العصر العباسي ، وواضح أن العباسيين عندما ورثوا الخلافة من الأمويين وجدوا أن دولتهم تمتد وتغطي مساحة شاسعة جداً لم تستطع قواهم أن تسيطّر عليها سيطرة كاملة وخاصة أن انتقال مركز الدولة من دمشق إلى بغداد زاد من مسئوليتها الآسيوية بالصورة التي كانت عليها أيام العباسيين .

ونتيجة لذلك نجد أن العباسيين ركزوا جهدهم كله في المحافظة على ذلك الجزء الذي كان دين لدولتهم بصورة فعلية من إفريقية .

أما ما وقع غربي نهر شلف أي بلاد المغربين الأوسط والأقصى فليس لدينا ما يدل على أن العباسيين كان لهم قيد من سلطان أو أنهم حتى حاولوا أن يبسطوا عليه سلطانهم ، وهذا هو الذي جعل عبد الرحمن[1] بن رستم بعد هزيمة الخوارج الأباضية ومقتل أبي الخطاب السمح بن مالك المعافري سنة ١٤٤ هـ ، يفر إلى غرب نهر شلف ويحاول إنشاء دولة خارجية أباضية في بلاد كانت خارج عن سلطان العباسيين ، وبذلك يأمن على دولته من جيوش العباسيين .

لم تتمكن الحكومة المركزية العباسية من أن تسيطر على ولاية إفريقية بسبب عدم الاستقرار فيها نتيجة للصراع الداخلي الذي شغل الخلافة العباسية ولم يترك لها من الفراغ ما يمكنها من محاولة بسط سلطانها على بقية بلاد المغرب .

ولما عزل محمد بن الأشعث الخزاعي ، أسند أبو جعفر المنصور ولاية إفريقية لزعيم من زعماء العرب وهو الأغلب بن سالم بن عقال التميمي[2] وكان

(١) هو عبد الرحمن بن رستم بن بهرام الفارسي ، وكان بهرام جده من موالي عثمان بن عفان ، وقد ذكر بعض الكتاب أن نسبه يرجع إلى ملوك الفرس القدماء ، تربى عبد الرحمن بن رستم في القيروان وأخذ العلم عن فقهائها ومال إلى تعاليم الخوارج حيث تأثر بسلامة بن سعيد الذي كان يدعو إلى مذهب الخوارج الأباضية . الدرجيني : طبقات مشايخ إفريقية جـ ١ ص ١٩ ، ابن خلدون : العبر من ديوان المبتدأ والخبر جـ ٦ ص ١٢١ ، البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٦٧ .

(٢) كان الأغلب يرجع أصله إلى مرو الروذ بمعنى أنه كان من الجند العربي الخراساني أي من أصحاب أبي مسلم الخراساني ، وقد مع القوات العباسية إلى مصر وأصبح من جندها ، عرف الأغلب بالشجاعة والبلاء وحسن الرأي ، ولقب بلقب الشهيد .

السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ١ ص ٥٧ .

البلاذري : أنساب الأشراف ٣٥٠ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٦١ .

من كبار جند مصر ، فسار الأغلب بن سالم وابنه إبراهيم إلى إفريقية ولكن سرعان ما تمكن زعيم الخوارج أبو حاتم من قتله وفر ابنه إبراهيم إلى منطقة الزاب ، وبدأ يمهد الأمر لنفسه .

وكانت الدولة العباسية تنظر إلى إفريقية على أنها بلد بعيد عن مركز الخلافة يعيش فيها جماعات متعددة متحاربة متعادية بعضهم سُنَّة ، وبعضهم من الخوارج بشتى مذاهبهم ، وبعضهم عرب[1] ، وبعضهم بربر ، فانتهى رأي المنصور إلى تقليد ولاية إفريقية لرجل من ذوى الكفاية وهو من بني المهلب بن أبي صفرة القائد المعروف الذي حقق المنجزات والانتصارات العسكرية في العصر الأموي ، وهذا الوالي عمر بن حفص بن قبيصة بن المهلب[2] ويكنى أبا جعفر والمعروف بهزار مرد[3] يعني ألف رجل ، أي يعادل ألف رجل في ميدان الحرب ، وهذا مبالغ فيه .

ولما كان أبو حفص لا يستطيع أن يثق بالقواد الخراسانيين المقيمين في إفريقية ولا بالقبائل العربية المستوطنة هناك ، فقد جلب معه جيشاً جديداً ، ورغم تغلغل الجيش العباسي في إفريقية فإن الخوارج ظلوا يحتفظون بسمعة طيبة وشعبية وتأييد كبير من العرب والبربر أيضاً مما جعل الجيش العباسي يرابط في القلاع والحصون دون الاندماج[4] بسكان إفريقية .

وفي عهد أبي حفص عمر المهلبي انفجرت ثورة الخوارج الأباضية بقيادة أبي حاتم يعقوب بن الكندي[5] فتمكن من الاستيلاء على القيروان ، أما في طبنة[6] فقد اتحد الخوارج الصفرية والأباضية تحت لواء أبي قرة الصفري المغيلي[7] الذي أعلن نفسه إماماً وقاتلوا الجيش العباسي ، وحاصروا القائد العباسي عمر بن حفص الذي استطاع أن يكسر حصارهم ويفر بحياته عائداً

(١) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٥٥ .
(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٣٧٠ .
(٣) النويري : المصدر السابق جـ ٢٤ ص ٧٩ .
(٤) النويري : المصدر السابق جـ ٢٤ ص ٨١ .
(٥) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص ١٤٣ .
(٦) ابن عذارى : المصدر السابق جـ ١ ص ٨٨ .
(٧) ابن خلدون : العبر من ديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ١٩٣ .

إلى القيروان ، ثم تفككت وحدة الخوارج الأباضية والصفرية وعادت القيروان للوالي العباسي .

أرسل أبو حفص عمر كتيبة للقضاء[١] على عبد الرحمن بن رستم الذي انسحب نحو المغرب وتمركز في مدينة تاهرت[٢] حيث أعلن نفسه سنة ١٦٠ هـ/٧٧٦م أول إمام أباضي ، ونجح في تأسيس دولته وهي المعروفة بالدولة الرستمية والتي استمرت حتى ٢٩٦ هـ/٩٠٨م .

كتب أبو حفص عمر إلى المنصور يطلب منه إرسال النجدات[٣] الجديدة ولكنه قتل قبل أن تصله النجدات والتعزيزات سنة ١٥٤ هـ/٧٧١م ، واحتل أبو حاتم الأباضي القيروان سنة ١٥٥ هـ/٧٧٢م ، وهكذا تمكن الخوارج من السيطرة على إفريقية وأصبح تعداد أنصارهم ما يقرب من ٤٠٠,٠٠٠ مقاتل[٤] .

استخدم المنصور الحماس الديني ضد الخوارج باسم الجهاد[٥] ، فأسند ولاية إفريقية ليزيد بن حاتم بن قبيصة المهلبي لما كان للمهالبة من أدوار بارزة في محاربة الخوارج والقضاء عليهم في العصر الأموي .

وكان يزيد بن حاتم كثير الشبه بجده المهلب بن أبي صفرة في حروبه وكرمه ويكنى أبا خالد[٦] ، فاشتهر يزيد بن حاتم بالكفاءة والمهارو والسياسة وحسن القيادة[٧] ، وكان قد تقلد لأبي جعفر المنصور عدة ولايات منها أرمينية[٨] والسند ومصر وأذربيجان .

---

(١) السلاوي : المصدر السابق جـ ١ ص ١١٥ ، البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٦٨ .
(٢) د. محمود إسماعيل عبد الرازق : الخوارج في المغرب ص ٩٣ .
(٣) ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس ص ٤٦ .
(٤) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ٨٢ .
(٥) محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة ص ١١ .
(٦) ابن الخطيب : أعمال الأعلام جـ ٣ ص ٨ .
(٧) ابن عذاري : المصدر السابق جـ ١ ص ٩٣ .
(٨) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص ١٥١ .

وكانت أكبر الوظائف التي تولاها هي مصر التي حكمها من ١٤٤ هـ إلى ١٥٢ هـ[١] ، فأعد المنصور جيشاً من ٥٠ ألف[٢] مقاتل بالإضافة إلى مقاتلين من الشام والجزيرة[٣] وأرسلهم إلى يزيد بن حاتم والي مصر ، وأمره بالمسير إلى إفريقية وأنفق بسخاء على إعداد الجيش حيث أنفق عليه ٦٣ مليون[٤] درهم ، وللتأكيد على أهمية الحملة رافق المنصور الجيش حتى وصل إلى مدينة القدس في فلسطين ، وبعد عدة معارك طاحنة استطاع الوالي يزيد بن حاتم أن يقضي على معظم ثورات الخوارج بإفريقية ويقتل أبا حاتم الأباضي سنة ١٥٥ هـ/٧٧٢م بالقرب من مدينة طرابلس[٥] ، بينما فر أصحابه إلى مناطق جبال نفوسة التي كانت يسكنها جماعات من الخوارج .

مكث يزيد بن حاتم والياً على إفريقية خمسة عشر عاماً ، وتعد هذه السنوات من أسعد فترات عصر الولاة وأكثرها خيراً سواء من الناحية الاقتصادية أو المالية أو المعمارية ، فأعاد بناء المسجد الأعظم[٦] بالقيروان . وأهم ما يهمنا أن يزيد بن حاتم أعطى الفقهاء المالكية مكانة وأهمية كبيرة فاعتمد عليهم في محاربة الخوارج ، فكان يزيد يستشيرهم ويأخذ برأيهم ، مما جعل إفريقية قاعدة المذهب السني أو قاعدة السُّنة على مذهب مالك في بلاد المغرب ، وهذه صبغة ذات مغزى بعيد في تطور تاريخ المغرب الإسلامي وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل فيما بعد .

تقلد داود بن يزيد بن حاتم ولاية إفريقية بعد وفاة أبيه يزيد الذي بايع له بالعهد أثناء مرضه[٧] ، فاستمر في الحكم تسعة شهور ونصف يحارب أمراء قبائل البربر الخوارج ، فثار عليه زعيم البربر نصير بن صالح[٨] الأباضي فبعث

---

(١) النويري : المصدر السابق جـ ٢٤ ص ٨٥ .

(٢) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٤٧ .

(٣) ابن وردان : تاريخ مملكة الأغالبة — مخطوط بدار الكتب المصرية — تاريخ ٢١٩٩ ، ورقة ٧ .

(٤) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٥٧ .

(٥) النويري : المصدر السابق جـ ٢٤ ص ٨٦ .

(٦) ابن الآبار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٧٣ .

(٧) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص ١٦٩ .

(٨) النويري : نهاية الأرب جـ ١٤ ص ٨٨ .

داود إليه أخاه المهلب بن يزيد[1] فهزموه ومن معه من أصحابه ، ووجه إليهم داود قائده سليمان بن يزيد في جيش يقدر ب ١٠,٠٠٠ فهرب البربر من أمامه ، فتتبعهم وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف[2] ، وظل داود مقيماً في إفريقية حتى قدم عمه روح بن حاتم ليتقلد إمارة إفريقية ، أما داود فأسند إليه هارون الرشيد ولاية[3] مصر ثم ولاية السند فمات فيها .

ومن المعروف أن روح تقلد عدة مناصب إدارية قبل مجيئه إفريقية فمنها ولاية البصرة والكوفة وطبرستان وفلسطين والسند ، وكان روح أكبر سناً من أخيه يزيد ، ولم يدم حكمه فعزله الرشيد وأسندها لنصر بن حبيب المهلبي[4] .

وكان آخر أمراء المهالبة الفضل بن روح بن حاتم الذي تولى سنة ١٧٧ هـ/٧٩٣م ولم يمكث في حكمه إلا سنة ونصف تقريباً ، وثار عليه جندا إفريقية والمغرب لاستبداده بالسلطة فقام عبد الله بن عبدويه[5] الجارود قائد جند تونس ، وتمكن هذا القائد من الاستيلاء على السلطة وعزله وقتله سنة ١٧٨هـ — ٧٩٤م .

وهكذا انتهت رياسة المهالبة في إفريقية وبعد حوالي ربع قرن أي من أواخر أيام أبي جعفر المنصور إلى عهد هارون الرشيد ، ذلك لأن تجربة إسناد حكم إفريقية إلى فرد بعينه مع بقائه على التبعية لدولة الخلافة . كانت تجربة ناجحة ، فقد أفادت إفريقية فائدة محققة من فترة المهالبة فاستقرت خلالها الأحوال ، وعمرت المدن وبنيت المساجد واطمأن الزراع والتجار وزاد الدخل وخصوصاً في أيام أكبر أولئك المهالبة وهو يزيد بن حاتم الذي حكم خمس عشرة سنة .

وبعد نهاية حكم المهالبة عادت إفريقية إلى التبعية المباشرة لدولة الخلافة

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ١ ص ٩٩ .
(٢) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٧٣ .
(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص ٢٧٢ .
(٤) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ٨٩ .
(٥) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ١ ص ١٠٦ .

وتوالى عليها ولاة بغداد ، ولكن الفوضى سادتها إذ اشتد تنافس[١] زعماء العرب في البلاد في الوصول إلى السلطان في القيروان أو الانفراد بالسلطة السياسية في نواحيهم .

وكانت الخلافة العباسية شديدة الاهتمام بشئون ولاية إفريقية التي تشمل طربلس وإفريقية والزاب . وقد ذكر اليعقوبي الذي زار إفريقيةفي عصر الأغالبة أن منتهى سلطة العباسيين غرباً وكانت مدينة إربة الواقعة على المجرى الأعلى لنهر شلف .

أقام هارون الرشيد عاملاً عربياً من طراز فريد في معدنه هو هرثمة بن أعين[٢] وكان من أكبر رجال الحزب العربي في بلاط الرشيد ، وكان شيخاً مجرباً[٣] في فن الحروب وحكم الولايات .

حكم هرثمة بن أعين إفريقية (١٨٠ هـ ــ ١٨١ هـ/٧٩٦م ــ ٧٩٧م) وخلال هذه الفترة القصيرة ساد إفريقية هدوء واستقرار ، عمل على تجديد ما تخرب من المدن والمواني والمنشآت ليعيد ثقة الناس في الدولة العباسية ، فجدد[٤] إنشاء ميناء تونس ، وأصلح مسجد القيروان[٥] ونظم الأسواق فيها ، واهتم ببناء قصور العباد .

وبعد سنتين[٦] من حكمه رأى هرثمة بن أعين أنه قام بمهمته في إفريقية فأقر الأمن والاطمئنان في البلاد ، ولكن في الحقيقة أنه تعب وضاقت نفسه وفضل العودة إلى بغداد ، فعاد إليها سنة ١٨١هـ ــ ٧٩٧م وأصبح من خواص هارون وأهل ثقته ، فأسند إليه منصب قائد الحرس[٧] .

وبعد وفاة الرشيد وقعت الفتنة بين الأمين والمأمون والتي انتهت بانتزاع

---

(١) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٧٩أ .
(٢) ابن عذاري : المصدر السابق ص ١١٠ .
(٣) النويري : المصدر السابق جـ ٢٤ ص ٩٥ — ٩٦ .
(٤) ابن الخطيب : المصدر السابق جـ ٣ ص ١١ .
(٥) أحمد بن الضياف : إتحاف أهل الزمان جـ ١ ص ٩٨ .
(٦) ابن خلدون : المصدر السابق جـ ٤ ص ٤١٩ .
(٧) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٤٨ .

المأمون الخلافة ، وقتل هرثمة بن أعين بتحريض من المأمون لموقفه العدائي من تأييد[1] أخيه الأمين .

وفي سنة ١٨١ هـ ولى أمير المؤمنين الرشيد على إفريقية محمد بن مقاتل العكي[2] ، وكان رضيع[3] الرشيد ، وكان أبوه من كبار أهل دولته ، ولم يكن محمود السيرة[4] فيما تولى للرشيد من ولايات ، ولذلك فإنه عندما دخل إفريقية لم يسر في حكمها بطريقة تعجب الناس ، فاضطربت الأمور في إفريقية ، واختلف عليه جنده إلى جانب ما فعله مع الفقيه البهلول بن راشد فضربه بالسياط حتى مات مما أثار عليه غضب الفقهاء[5] والعلماء وأهل إفريقية لما كان يتمتع به الفقيه من مكانة ومنزلة في نفوس أهلها ، كذلك أنقص رواتب الجند مما جعلهم ينضمون إلى ثورة تمام بن تميم التميمي[6] ، وسادت البلاد

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ٦ ص ١٣٨ .

(٢) الطبري : المصدر السابق جـ ٨ ص ٣٢٣ .

(٣) النويري : المصدر السابق جـ ٢٤ .

(٤) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص ٢٠٣ .

وكان جعفر بن يحيى البرمكي شديد العناية بمحمد بن مقاتل العكي ، فقدم إلى القيروان سنة ١٨١ هـ ، وكان أبوه من كبار القائمين بالدعوة العباسية ، وحضر مع قحطبة بن شبيب حروب المروانية ، ثم قتله عبد الله بن علي لما خلع وادعى الأمر .

ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٨٨ — ٨٩ .

(٥) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١٤٢ — ١٤٣ ، الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٢٧٦ — ٢٧٧ ، الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص ٢٠٣ .

(٦) تمام بن تميم التميمي وهو جد أبي العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام صاحب كتاب طبقات إفريقية ، وهو ابن عم إبراهيم بن الأغلب صاحب إمارة الأغالبة ، خرج تمام بتونس على محمد بن مقاتل العكي والي إفريقية واستطاع دخول القيروان في رمضان سنة ١٨٣ هـ ، فنهض إبراهيم بن الأغلب الذي كان في ذلك الوقت حاكم الزاب لنصرة محمد بن مقاتل العكي ، فكتب تمام إلى إبراهيم بن الأغلب كتاباً يستدعيه ويستعطفه ، وقد وصف لنا ابن الأبار كيفية استقبال تمام كتاب إبراهيم ومدى الخوف والرعب الذي نزل به نقلاً عن فلاح الكلاعي أنه قال « كنت عند تمام يوم قرأ كتاب إبراهيم ، فذهب لونه ثم ارتعد حتى سقط الكتاب من يده » وكان تمام مشهوراً بالصرامة والشجاعة . قال أبو العرب عن جده « تمام بن تميم هذا هو جدنا ، وهو ابن القادم من المشرق ، وتوفى سنة سبع وثمانين ومائة ببغداد » وذكر في كتاب المعرب في أخبار المغرب : إن إبراهيم بن الأغلب لما صار الأمر إليه بعث به وبجماعة معه من وجوه الجند الذين كان شأنهم الوثوب على الأمراء إلى الرشيد ، فأما تمام فإنه حبس إلى أن مات في حبسه . وهناك رواية حكيت أن الرشيد وعد أخاه سلمة بن تميم بإطلاق سراح تمام ، فلما بلغ ذلك إبراهيم بن الأغلب كتب إلى عمته وهي ببغداد في سمه ، فاشتهى تمام حوتاً فسمته له فمات من أكله بعد أن ذهب بصره فعلم الرشيد بذلك فترحم عليه وتوجع له ، وأحسن إلى سلمة أخيه وصرفه إلى إفريقية .

الفوضى ووقعت الحرب بين زعماء الجند ، وفي هذه الظروف برز إبراهيم بن الأغلب على مسرح الأحداث السياسية في إفريقية .

أما عن الحياة الاجتماعية في إفريقية قبل قيام دولة الأغالبة فجدير بالذكر أن نأتي بنبذة عن تاريخ انتشار الإسلام في إفريقية لكي نتبين كيف تم هذا العمل العظيم من أيام المهالبة ، وعندما جاء العصر الأغلبي نجد إفريقية بلداً إسلامياً عربياً يعيش فيها عرب وبربر مستعربون ، أما النصارى فلم يبق منهم في إفريقية إلا قلة ، كانت تسكن بلاد إفريقية عدة عناصر بشرية زمان الفتح العربي لبلاد المغرب ، فكان هناك الروم[1] والبربر والأفارقة (الأفارق) .

١ ـــ الروم : المراد بهم البيزنطيون الذين وجدوا في البلاد إذ ذاك وكانوا حكام البلاد ، ومع الفتح العربي اختفى معظمهم ولم يبق منهم إلا جماعات قليلة كانت على السواحل ومدنها وخاصة قرطاجنة وكذلك في بعض بلاد الجريد[2] ، وهؤلاء جميعاً اعتنقوا الإسلام وذابوا في سكان البلاد إلا من هاجر منهم إلى صقلية وغيرها من بلاد الجنوب الأوروبي .

٢ ـــ البربر : هم سكان البلاد الأصليون وينقسمون إلى طائفتين[3] : طائفة البربر الحضر المعروفين بالبرانس الذين يسكنون النواحي الخصبة والسفوح المزروعة ، فكانوا يعملون بالزراعة والصناعة ، وهذا نتيجة لاتصالهم بحضارة القرطاجيين واللاتين والبحر المتوسط ، وطائفة البربر البدو المعروفين بالبتر الذين يعمرون الصحاري والواحات فهم بدو يعيشون على الرعي ويميلون إلى الإغارة على ما يجاورهم من نواحي العمران .

٣ ـــ الأفارقة أو الأفارق : المراد بهم أخلاط من الناس كانوا يسكنون النواحي الساحلية حيث يعملون بالزراعة والصناعة ، وقال ابن عبد الحكم في تاريخه « وأقام الأفارقة وكانوا خدماً للروم على صلح يؤدونه إلى من غلب على بلادهم »[4] .

(١) د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٣٣٣ .

(٢) د. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٨٤ .

(٣) د. حسين مؤنس : تاريخ معالم المغرب والأندلس ص ٢٣ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٨ .

إضافة إلى هذه العناصر السابقة ومع مطلع الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب ظهر العنصر العربي ، فالعنصر العربي دخل بلاد المغرب في صورة جيوش فاتحة ، وقد استقر رجال هذه الجيوش في نواحي المغرب كله بعد إتمام الفتح ، ولحقت بهم جماعات أخرى من الجند والمهاجرين العرب مع استمرار حركة الفتح . وكانت نتيجة ذلك قيام مجتمعات عربية صغيرة معظمهم في المدن والمعسكرات ، ومن هذه المراكز بدأوا ينحشرون في نواحي البلاد ، ولحقت بهم جماعات من المهاجرين غير العسكريين أو غير الرسميين ، وهؤلاء جميعاً تكونوا منهم ما يعرف بالعرب البلديين[1] أي عرب إفريقية الذين استقروا فيها واعتبروها وطناً لهم دون أن يتخلوا عن عروبتهم فكانوا يتمسكون بأصولهم القبلية ويتحدون ضد الجند العربي الذي كانت ترسلهم الحكومة المركزية لإقرار الأمن في البلاد ، وقد عرف هؤلاء الجند بالشاميين لا لأنهم جميعاً من أهل الشام بل لأنهم كانوا يأتون من الشام وهى قاعدة الحكم في العصر الأموي .

ومن الواضح أن الجند العربي كان يتحول الكثير من رجالهم إلى عرب بلديين نتيجة للاستقرار في البلاد ومخالطة أهلها ، وبهذه الطريقة كانت أعداد البلديين تتزايد بصورة مستمرة حتى نهاية العصر الأموي مما جعل غالبية هؤلاء البلديين وهم عنصر هام وعماد السلطان ، وخاصة أنهم على الرغم من تماسكهم بعروبتهم كانوا يتحولون بمرور الزمن وتعاقب الأجيال إلى عرب إفريقيين ومن بينهم ظهر كبار الفقهاء والعلماء أمثال بهلول بن راشد وعبد الرحمن بن حبيب الفهري وأسد بن الفرات وحبيب بن سعيد وأخيه سحنون وغيرهم ، وحركة التعريب وانتشار الإسلام والفقه والعلم واللغة العربية في إفريقية بدأت مع تخطيط عقبة بن نافع الفهري لمدينة القيروان ٥٠ هـ ـــ ٥٥ هـ حيث دخل نفر قليل من البربر الإسلام ، وقد ذكرت لنا بعض المصادر أسماء القبائل البربرية التي اشتركت في بناء القيروان واعتنقت الدين الإسلامي وهى لواته[2] ونفوسه ونفراوه .

---

(١) د. حسين مؤنس : تاريخ معالم المغرب والأندلس ص ٥٧ .
(٢) ابن خلدون : العبر من ديوان المبتدأ والخبر جـ ٦ ص ٤ .

أما في عهد حسان[1] بن النعمان الذي وضع أسس النظم الإدارية في بلاد المغرب ، فقد دخل عدد كبير من البربر الإسلام على الرغم من أن هذه الفترة كانت فترة حروب الفتح والمعارك الطاحنة بين البربر والعرب الفاتحين فقد قتلوا عقبة بن نافع وابن أبي المهاجرين وزهير بن قيس إلا أن بعض القبائل البربرية قد دخلت الإسلام منذ زمن مبكر أمثال كسيلة وقبيلته أوربه[2] .

وكان موسى بن نصير[3] يريد فتح المغربين الأوسط والأقصى ، ولكن اتبع في ذلك أساليب عنيفة ، فنفر كثير من البربر ، فقد وجه موسى همه إلى غزو القبائل البربرية والحصول على المغانم وإرسال عدد كبير من السبي إلى دمشق إرضاء للخليفة الأموي وكان لذلك أثر سيىء في نفوس البربر .

ثم تولى عمر بن عبد العزيز خلافة الدولة الأموية وكانت سياسته تهدف إلى نشر الإسلام وإدخال الناس فيه من أهل البلاد المفتوحة بالرفق والموعظة الحسنة والدعوة إلى الإسلام ، فكانت أول خطوة اتخذها نحو ولاية إفريقية إسنادها إلى إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر[4] بدلاً من محمد بن يزيد[5] القرشي الذي تقلدها من قبيل[6] سليمان بن عبد الملك ، والمعروف عن محمد بن يزيد أن

---

(١) وهو أول أمير شامي يدخل إفريقية أيام الأمويين ، وكان يلقب بالشيخ الأمين ، وقيل أن الخليفة أطلق يده في خراج مصر أثناء فتح بلاد المغرب ، وقيل عنه : لو امتدت ولاية حسان لجنى المغرب على يديه كثيراً من الخير .

ابن أبي دينار : أخبار إفريقية وتونس ص ١٧ ، المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١١ ، د. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٣٩ .

(٢) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ١١ .

(٣) أراد والي مصر عبد العزيز بن مروان الانتقام من حسان بن النعمان لمكانته الحربية عند الخليفة عبد الملك بن مروان ، فأمر أخاه بعزله وإسناد مهمة الفتح لأحد خواصه وثقته وهو موسى بن نصير ، فقد قيل عنه أنه نهب خراج ولاية البصرة ، أما عن أبيه نصير فكان يعمل في خدمة وحراسة معاوية بن أبي سفيان .

محمد زينهم محمد : الإدارة المركزية للدولة الأموية ـــ رسالة ماجستير ص ٦٧ .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٥٥ .

(٥) ابن الآبار : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٣٥ .

(٦) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٧ .

سيرته لم تكن محمودة[١] نتيجة لما ارتكبه من أخطاء في حق أهل إفريقية مما أدى إلى ثورة البربر عليه وقتله .

اتفقت المصادر والمراجع على أن إسماعيل بن عبيد الله « دعا من بقى من البربر إلى دين الإسلام »[٢] وأنه « كان خير أمير وخير وال ، ومازال حريصاً على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلم منهم عدد عظيم في دولة عمر بن عبد العزيز ، وهو الذي علم أهل إفريقية الحلال والحرام »[٣] وأنه « لم يزل حريصاً على دعاء البربر للإسلام حتى تم إسلامهم على يده »[٤] .

طلب عمر بن عبد العزيز من واليه الجديد أن يبذل كل جهده[٥] في سبيل نشر الإسلام بين البربر ، وقد وصف الدباغ[٦] هذا الوالي بأنه « كان فقيهاً صالحاً ، فاضلاً ، زاهداً » وكان عمر بن عبد العزيز قد أرسل الوالي ومعه عشرة من التابعين ، وهؤلاء التابعون هم : أبو عبد الرحمن بن يزيد المعافري[٧] الإفريقي وأبو مسعود سعيد بن مسعود التجيبي[٨] وإسماعيل بن عبيد

---

(١) النويري : المصدر السابق جـ ٢٢ ص ٨٣ .
(٢) ابن عذاري : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٤ .
(٣) السلاوي : الاستقصا جـ ١ ص ٤٦ .
(٤) د. حسين مؤنس : المرجع السابق ص ٢٩٦ .
(٥) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٥٧ .
(٦) الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ١٥٤ .
(٧) شهد فتح الأندلس مع موسى بن نصير ثم سكن القيروان واختط بها داراً ومسجداً في ناحية تونس . مات سنة ١٠٠ هـ بالقيروان .
ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ ٦ ص ٨١ ، ابن حيان : مشاهير علماء الأمصار ص ١٢١ ، المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٦٤ ، البخاري : التاريخ الكبير جـ ٣ ص ١ ، الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ١٨٠ — ١٨١ .
(٨) سكن القيروان وكان رجلاً صالحاً ، عالماً مشهوراً بالدين والفضل ، قليل الهيبة للملوك ، توفي بالقيروان .
أبو العرب : طبقات علماء إفريقية ص ٢١ ، الدباغ : المصدر السابق جـ ١ ص ١٨٤ ، ابن أبي حاتم : الجرح والتعديل م ٢ جـ ١ ص ٩٤ .

الأنصاري[١] ، وأبو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي[٢] ، وأبو سعيد جعثل ابن هاعان بن عمير الرعيني[٣] ، وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي[٤] ، وحيان بن أبي جبلة القرشي[٥] ، وعبد الله بن المغيرة بن أبي بردة الكناني[٦] ، وموهب بن حبى المعافري[٧] ، وطلق بن جابان الفارسي[٨] .

بدأ هؤلاء التابعون في تعليم البربر وأولادهم أصول وقواعد وتعاليم الدين الجديد ، ويبدو أن أهل إفريقية أقبلوا[٩] على الإسلام بنفس راضية لما وجدوا فيه سماحة ومساواة وعدالة ، وتركوا ما يخالف عقيدة الإسلام ، فقال ابن

(١) من أهل الفضل والعبادة والنسك ، كثير الصدقة والمعرفة مع الفقه والعلم ، سكن القيروان وبنى بها مسجداً كبيراً في الزيتونة .

المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٦٩ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٣١٨ ، أبو العرب : المصدر السابق ص ٢٥ .

(٢) وهو أول قضاة القيروان وهو ثقة ، ومن فضلاء التابعين ، مات سنة ١١٣ هـ ، الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ص ٩٢ ، الذهبي : ميزان الاعتدال جـ ٢ ص ١٠٣ ، المالكي ، المصدر السابق جـ ١ ص ٧٢ ، ابن حجر : المصدر السابق جـ ٦ ص ١٨٦ ، البخاري : المصدر السابق جـ ٣ ص ١ ، ابن حيان : المصدر السابق ص ١٢١ .

(٣) كان فقيهاً صالحاً ، ولاه هشام بن عبد الملك قضاء جند إفريقية وهو أحد القراء التابعين ، توفى سنة ١١٥ هـ .

المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٧٢ ، ابن حجر : المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٩ .

(٤) كان فقيهاً صالحاً ، فاضلاً زاهداً ، تقلد منصب القضاء في إفريقية ، أسلم على يديه عدد كبير من عامة البربر ، توفى سنة ١٢٢ هـ .

(٥) كان من أهل الفضل والدين ، سكن القيروان وانتفع به أهلها ، توفى سنة ١٢٥ هـ .

المقريء : نفح الطيب جـ ٢ ص ٥٣ ، ابن حجر : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٧١ ، المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٧٣ ، ابن أبي حاتم : المصدر السابق م ١ جـ ٢ ص ٢٤٨ .

(٦) كان من فضلاء التابعين وأهل الورع ، تقلد قضاء القيروان لسليمان بن عبد الملك .

الخشني : طبقات علماء إفريقية ٢٣٤ ، المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٨١ ، أبو العرب : المصدر السابق ص ٢٢ ، ابن أبي حاتم : المصدر السابق م ٢ جـ ٢ ص ١٧٥ .

(٧) كان من فضلاء التابعين ، سكن القيروان ، وبث بها علماً كثيراً .

البخاري : المصدر السابق جـ ٤ ص ٢ ، الدباغ : لمصدر السابق جـ ١ ص ٢١٣ .

(٨) كان فقيهاً عالماً صالحاً وهو من أهل مصر ، سكن القيروان ومات بها .

المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٧٦ ، أبو العرب : المصدر السابق ص ٢٠ ، الدباغ : المصدر السابق جـ ١ ص ٧٥ .

(٩) د. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٩٦ .

عذاري « وكانت الخمر بإفريقية حلالاً حتى وصل هؤلاء التابعون فبينوا تحريمها رضى الله عنهم »[١] .

ونلاحظ أن هؤلاء التابعين كان معظمهم يقيمون في القيروان حيث بنوا مساجد يعلمون فيها الناس الإسلام ، وكان البربر يفدون على هذه المساجد فيستمعون إلى الدروس التي كانت تلقى فيها ، وعلى أيدي هؤلاء التابعين بنيت عدة مساجد نذكر منها مسجد الرباطي[٢] الذي بناه أبو عبد الرحمن الحبلي عبد الله بن يزيد المعافري وجامع الزيتونة الذي بناه إسماعيل بن عبيد الله الذي اشتهر بلقب تاجر الله[٣] .

وبفضل هؤلاء التابعين وضعت أول بذور العلم والفقه الإسلامي حيث تتلمذ على أيديهم الطبقة الأولى من علماء إفريقية أمثال أبي كريب المعافري[٤] وعبد الله بن عبد الحكم البلوي وأبي خالد عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري وأبي زكريا بن سلام وغيرهم .

وكان هؤلاء المتعلمون من أهل إفريقية يقضون بعض الوقت للدراسة في القيروان ثم يعودون[٥] إلى قبائلهم ونواحيهم فيتقلدون وظائف القضاء والدين ويعلمون الناس أصول ومبادىء الإسلام ، فقد ذكر في سيرة أسد بن الفرات ابن سنان أن أباه « قدم إفريقية وأمه حامل به ، فولد أسد بتونس سنة ١٤٥ هـ[٦] وقرأ على يد علي بن زياد ولزمه وانتفع به وتعلم منه وتفقه عليه ثم تصدى بعد ذلك لصناعة التعليم ، فأقرأ القرآن في بعض قرى بجردة »[٧] . كذلك فيما يتصل بسحنون صاحب هذا البحث نجد أن أباه جاء إلى إفريقية

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ١ ص ٣٤ .
(٢) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٦٥ — ٦٦ .
(٣) الدباغ : المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٨ — ١٤٨ .
(٤) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١٠٧ — ١٠٨ .
(٥) د. حسين مؤنس : المرجع السابق ص ٢٩٦ .
(٦) ابن الآبار : الحلة السيراء جـ ٢ ص ٣٨٠ .
(٧) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ٤ .

وهو من أهل الشام ثم قرأ على البهلول بن راشد[١] ، وسوف نوضح هذا بالتفصيل في الباب القادم بإذن الله تعالى .

والشيء الذي يلفت النظر في تلك الفترة أن العرب حينما نزلوا إفريقية كانوا شديدي الاهتمام والحرص على أن يتخذوا لأبنائهم الكتاتيب الصغيرة الملحقة[٢] بالمساجد ليدرسوا فيها القرآن والحديث والدين واللغة العربية ، فقد قال الأستاذ الكبير حسن حسني عبد الوهاب عن هذه الظاهرة « أنهم عندما أناخوا بمعسكرهم وخطوا قيروانهم ، أول ما أنشئوا الدور والمساجد ثم التفتوا إلى تعليم صبيانهم ، فاتخذوا لهم محلاً — كتاباً — بسيط البناء ، ويجتمعون فيه لقراءة كتاب الله العزيز »[٣] .

ومع قيام الخلافة العباسية لم يجد العنصر العربي سواء قيسية أو يمنية في إفريقية سنداً من الدولة العباسية حيث وفدت عناصر جديدة من الخراسانيين في الحملات التي كان يبعثها العباسيون من وقت لآخر لبلاد إفريقية .

وفي بداية الأمر حدثت اضطرابات وصدامات مباشرة بين الجند العربي والخراساني والتي هددت بقاء السلطة العباسية في إفريقية والتي كانت السبب في مقتل محمد بن الأشعث الخزاعي[٤] ، ولكن بمرور الوقت اندمج العنصر العربي الخراساني بأهل البلاد الأصليين (البربر) عن طريق المصاهرة. فقد برز من العنصر الخراساني عدد من الفقهاء والعلماء كان لهم دور هام في حدوث نهضة فقهية وعلمية في إفريقية مثل محمد بن عبدوس[٥] ، وسوف نتناول بالتفصيل شخصيات أخرى عند الكلام عن تلاميذ وشيوخ سحنون. ولكن الذي كان يقلق بال الدولة العباسية في إفريقية هم الخوارج بشتى مذاهبهم ، ومن المعروف أن الخوارج كانوا من العوامل الرئيسية في إسقاط الحكم الأموي فالخليفة المنصور أطلق يد ولاة مصر من أجل القيام بالحملات المتوالية للقضاء

---

(١) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١٧٢ .
(٢) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات القسم الأول ص ٦٧ .
(٣) حسن حسني عبد الوهاب : آداب المعلمين ص ٩ .
(٤) ابن الأبار : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٥٦ — ٣٥٧ .
(٥) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٦٠ .

على الخوارج في المغرب ، فمثال ذلك حملة محمد بن الأشعث التي تكلفت أموالاً باهظة ، ونجح هذا الوالي في مقتل زعيم الخوارج الأباضية وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح بن مالك المعافري[١] ولكن سرعان ما استولى أبو حاتم الأباضي على القيروان وطرد واليها العباسي محمد بن الأشعث وقتله .

وظلت مشكلة الخوارج تثير مخاوف وذعر بني العباس ، فكان المنصور يرسل الحملة وراء الحملة ، ثم أسند هذه المهمة للمهالبة الذين برعوا في العصر الأموي بقدراتهم في التصدي للخوارج .

حقاً أنجز المهالبة هذه المهمة حيث ترك الخوارج منطقة إفريقية واتجهوا إلى مناطق أخرى في بلاد المغرب فأسس بنو مدرار دولتهم في سجلماسة[٢] (وأصلهم من البربر) ١٤٠ هـ ـــ ٧٥٧م وبنو رستم الأباضية في المغرب الأوسط[٣] (ويقال أصلهم فارسي) .

والظاهرة الواضحة خلال هذه الفترة هي تعاطف البربر مع العباسيين في تصديهم للخوارج . وهذا يرجع لدور الفقهاء والمعلمين والتابعين الذين يمثلون المذهب السني شعار دولة بني العباس إلى جانب الكتاتيب[٤] الصغيرة العلمية والمساجد التي يلقى فيها الدروس عن مساوىء الخوارج ومذاهبهم المدمرة للإسلام أي ما نطلق عليه بالتوعية الدينية .

وفترة المهالبة من فترات الرخاء والاستقرار والهدوء التي عاشتها إفريقية خاصة فترة يزيد بن حاتم المهلبي ، برع يزيد بن حاتم في قيادة ولاية إفريقية قيادة حسنة حيث قام بعدة إنجازات وأعمال شهد له بها المؤرخون والرواة ، فمن هذه الأعمال التصدي للقضاء على ثورات الخوارج فلم نسمع في عهده عن قيام ثورة أوتمرد خارجي من جانب الخوارج .

---

(١) النويري : المصدر السابق جـ ٢٤ ص ٧٢ .
(٢) د. محمود إسماعيل عبد الرازق : المرجع السابق ص ١١٢ .
(٣) ابن عذاري : المصدر السابق جـ ١ ص ٦٧ .
(٤) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات القسم الأول ص ٦٨ .

كان يزيد بن حاتم شديد الاهتمام بالبناء والعمارة فبنى المسجد الأعظم[١] بالقيروان ، كذلك عنايته كل العناية بالفقهاء والعلماء والشعراء ، نذكر منهم عبد الرحمن بن زياد بن أنعم والبهلول بن راشد وابن فروخ .

كان سحنون شديد الإعجاب بالأمير يزيد بن حاتم[٢] وبعدله فقال عنه « كان يزيد بن حاتم يقول : والله الذي لا إلّه إلا هو ما رهبت شيئاً قط رجلاً واحداً يزعم أني ظلمته ، وأنا أعلم أنه لا ناصر إلا الله »[٣] .

وصفوة القول أن يزيد بن حاتم كان له دور كبير في إدخال البربر الإسلام وفي تعريب إفريقية . وهذا يرجع إلى ما اتصف به من صفات سياسية وإدارية وعسكرية .

كانت كل هذه الظروف عاملاً هاماً في التشجيع على قيام إمارة أو دولة جديدة إسلامية سنية عربية في إفريقية لقيت كل التأييد والترحيب من الدولة العباسية بصفة عامة وأهل إفريقية بصفة خاصة حيث عاشوا فترات فيها صراعات قبلية ومذهبية ، ولكن كل هذه الأحوال تغيرت بفضل الأغالبة الذين اشتهروا بمهارتهم السياسية والعسكرية .

ووسط هذا الجو السياسي والاجتماعي ظهر الفقيه سحنون صاحب موضوع هذا البحث ليزرع الاطمئنان في قلوب أهل السنة في إفريقية .

* * *

(١) النويري : المصدر السابق جـ ٢٤ ص ٨٦ — ٨٧ .
(٢) ابن وردان : تاريخ مملكة الأغالبة ، ورقة ٢٥ .
(٣) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص ١٥٧ .

الفصل الثاني

دولة الأغالبة ودورهم في إفريقية

١ ـــ قيام الدولة .

٢ ـــ الحضارة والعمران .

دولة الأغالبة ودورهم في إفريقية

١ ـــ قيام دولة الأغالبة

ووسط كل هذه الظروف التي ذكرناها في الفصل السابق ظهر « إبراهيم ابن الأغلب» على مسرح الحياة السياسية في بلاد إفريقية فقد قيل كان ظهوره نتيجة خدمته في جيوش بني المهلب[١] ، وقد ذكر « ابن الأثير »[٢] أن إبراهيم ابن الأغلب كان بولاية الزاب سنة ١٨٠ هـ وأنه لاطف «هرثمة بن أعين» وقدم له الهدايا فولاه ناحية الزاب ، وكانت بلاد الزاب منزل الكثير من التميميين قوم ورهط بني الأغلب فكانت سنداً قوياً لإبراهيم بن الأغلب فيما بعد .

وعندما خلع الرشيد هرثمة بن أعين من ولاية إفريقية بدأ إبراهيم بن الأغلب يتطلع إليها بشغف ، وهناك ظروف وأسباب مهدت له الطريق للوصول إلى هذه الولاية ، فمنها أن الوالي « محمد بن مقاتل العكي » أساء معاملة جنده وقطع عنهم رواتبهم[٣] كما ذكرنا ، فثاروا عليه وناصبوه العداء إلى جانب انقلاب أهل القيروان عليه نتيجة علاقته[٤] مع البيزنطيين في صقلية ، فقد قيل أنه لاطفهم عن طريق إرسال النحاس والسلاح والجلود والهدايا الثمينة إليهم . وليس لدينا ما يثبت ذلك ولكن على أي حال شاع هذا الأمر بين الناس وقد حذره الفقيه بهلول بن راشد من إرسال هذه المواد التي تعتبر مواد عسكرية إلى أعداء الدين ، وهذا يدل على أن الفقهاء لم يقتصر عملهم على الناحية الدينية فحسب بل لهم مواقف قومية ، وقد ورث هذه الصفة سحنون عن شيخه بهلول بن راشد .

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق جـ ١ ص ١١٢ .
(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ٦ ص ١٥٤ .
(٣) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص ٢٠٥ .
(٤) محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة ص ٢٢ .

وفوق ذلك كله براعة إبراهيم بن الأغلب في القضاء على ثورة تمام بن تميم[١] الذي بث الذعر والخوف والرعب لأهل إفريقية كلها حيث استعان إبراهيم بأهل إفريقية ، وهذه ميزة من مميزات الأغالبة عن أسرة آل طولون وقد اختلف الرواة والمؤرخون حول الدوافع والأسباب التي جعلت الخليفة هارون الرشيد يوافق على إسناد ولاية إفريقية لإبراهيم بن الأغلب ، فقد ذكر لنا « ابن الابار »[٢] أن حصول إبراهيم على هذه الولاية نتيجة نجاحه في الكيد للأدارسة[٣] .

بينما ذكر النويري[٤] « أن الرشيد قلده إياها نتيجة لما فعله مع « محمد بن مقاتل العكي » في مساعدته في القضاء على ثورة تمام التميمي . وهناك رأي آخر يقول « أن تنازل (إبراهيم بن الأغلب) عن الإعانة السنوية التي كانت تجلب له من مصر وتقدر بمائة ألف دينار ، وتعهده بدفع أربعين ألف دينار سنوياً للخلافة العباسية جعلت هارون يستجيب ويرحب بتقلده ولاية

---

(١) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ٩٩ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٩٩ .

(٣) كان إدريس بن عبد الله بن الحسن قد فر إلى المغرب الأقصى بعد انهزام إخوته في موقعة الفخ بمكة سنة ١٦٩ هـ وتمكن من الإفلات من الموت مع مولاه راشد إلى مصر ، ومنها إلى الطرف الغربي من العالم الإسلامي حيث استقر ببلدة « وليلى » قاعدة جبل زرهون في سنة ٧٢ هـ ، وبايعه بربر أوربة الإمامة ونجح في تأسيس دولة شيعية في هذا الصقع من بلاد المغرب ، ثم انضمت إليه قبائل أخرى منها زواغة وسدرنة وغياثة ومكناسة وغمارة .

تطلع إدريس بن عبد الله إلى توحيد المغرب وكان من الطبيعي أن يخشى الخلفاء العباسيون من مطامع الأدارسة في المغرب ومصر ، فاستجاب الرشيد لطلب إبراهيم بن الأغلب حتى تكون دولة الأغالبة في المغرب الأدنى حاجزاً بين البلاد الخاضعة للدولة العباسية وبلاد الأدارسة في المغرب الأقصى الذين كانوا تطلعون إلى فصل المغرب عن بقية العالم الإسلامي ، بل كانوا يهدفون إلى توحيد المغرب والمشرق العربيين تحت قيادتهم .

أورد الأستاذ الدكتور « أحمد مختار العبادي » نصاً لرسالة وجهها إدريس بن عبد الله إلى المصريين يمكن أن نستنتج منها مدى اتصال الأدارسة بأهل مصر .

ابن الخطيب : أعمال الأعلام جـ ٣ ص ١٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٢٩٨ — ٢٩٩ .

(٤) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١٠٠ — ١٠١ .

إفريقية »[١] .

وقيل إن صاحب البريد « يحيى بن زياد »[٢] له الفضل في تقلد إبراهيم إفريقية حيث كان يطلع الخليفة هارون بأمور وأحوال هذه الولاية وبإخلاص وكفاءة إبراهيم السياسية والحربية .

كما يذكر الدكتور حسين مؤنس[٣] أن سياسة الرشيد كانت تهدف إلى تأمين ولاية إفريقية لأنها كانت كل ما بقى للدولة بني العباس في الجناح الغربي لدولة الإسلام . وقد سبق أن ذكرنا أن حدود دولة بني العباس وقفت عند نهر شلف الفاصل بين ولاية إفريقية والمغرب الأوسط ، ولهذا فعندما أيد هرثمة بن أعين فكرة تولية إبراهيم بن الأغلب[٤] أمور إفريقية ومنحه استقلالاً محلياً طبقاً للشروط السابق ذكرها وافق الرشيد على ذلك ، وأصبحت ولاية إفريقية في بيت إبراهيم بن الأغلب .

صفوة القول أن كل الأحداث التي مرت بها المغرب جعلت الخلافة العباسية تفكر في إسناد هذه الولاية لرجل يتميز بصفات القدرة على الحكم والولاء للدولة والإخلاص للبيت العباسي ، والذي شجع العباسيين على قبول إبراهيم بن الأغلب تلك التجربة السابقة مع المهالبة وهم بيت من الحكام طالت ولايتهم واحداً بعد واحد على إفريقية في طاعة الدولة العباسية ؛ لأن بني العباس كانوا يرون إفريقية عبئاً كبيراً عليهم ، ويريدون أن يطمئن بالهم عن ناحيتها وخاصة أنها كانت تكلفهم الكثير من المال . فإذا عرض عليهم أحد رجالهم القادرين أن يحمل عنهم عبء إفريقية مع بقائه على الطاعة وتأمينها وحفظ الأمن فيها دون أن يكلفهم مالاً كان من الطبيعي أن يرحبوا بمثل هذا

---

(١) ابن خلدون : العبر من ديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ١٩٦ .
(٢) السلاوي : الاستقصا جـ ١ ص ١٤٧ .
(٣) د. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب .
(٤) كانت أم هارون هي الخيزران البربرية من المغرب ، فنشأ محباً للعرب .
محمد علي دبوز : تاريخ المغرب الكبير جـ ٣ ص ١٣١ .

العرض فما بالنا بإبراهيم بن الأغلب الذي عرض في هذه الصفقة أن يتنازل عن مبلغ مائة ألف دينار كانت مصر ترسلها معونة لوالي إفريقية، وهذا المبلغ سيعود إلى خزانة الدولة العباسية في هذه الحال، ولهذا كله وافقت الدولة العباسية على جعل ولاية إفريقية في بيت إبراهيم بن الأغلب مع البقاء على الطاعة والولاء.

وكانت هذه الصفات تنطبق على شخصية إبراهيم بن الأغلب فاستطاع أن يحقق التزاماته نحو الخلافة فكون قوة عسكرية كبيرة من البربر المستعربة الذين عملوا كجند في الجيش الأغلبي والصقالية[١] « هم جند أوربي كانوا يشترون صغاراً من تجار الرقيق الذين يجلبونهم من أوروبا ويربون تربية عربية إسلامية ويتخذون بعد ذلك جنداً وخدماً للدولة في القصور والوظائف » . وقد استكثر إبراهيم بن الأغلب من هؤلاء جميعاً ، وأضاف إليهم بعد ذلك قوة من السود[٢] ثم كون قوة بحرية[٣] هائلة للأغالبة مكنتهم بعد ذلك من غزو صقلية ومالطة والسواحل الإيطالية ، ولم يطمئن على حكمه إلا بعد أن تم له إنشاء هذه القوة خلال السنوات الأولى من حكمه لإفريقية ، أيضاً أقام إبراهيم الخطبة لبني العباس على المنابر ورفع شعار بني العباس ، ودفع الخراج المقرر عليه أربعين ألف دينار ، ونقش اسم الخليفة على السكة ، وتمجيداً للعباسيين شيد مدينة جديدة أطلق عليها العباسية[٤] (القصر القديم) على بعد ثلاثة أميال جنوبي القيروان[٥] ، وفي عهد إبراهيم بن الأغلب ثار بتونس رجل من كبار رجالات العرب يسمى حمديس[٦] ونزع السواد شعار بني العباس ، فأرسل إبراهيم قائده عمران بن مجالد في جيش كبير للقضاء على هذه الحركة ، والتقى عمران معه في معركة قرب تونس انهزم فيها حمديس وأنصاره ، وقتـــــــــــل منهم نحو

---

(١) د. السيد عبد العزيز : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ٣٣٤ .
(٢) النويري : المصدر السابق جـ ٢٤ ص ١٠٢ .
(٣) د. أحمد مختار العبادي : سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ص ١٩٦ ــ مجلة كلية الآداب ــ جامعة الإسكندرية ، العدد ١ ، ٢ سنة ١٩٥٧م .
(٤) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٢٠ .
(٥) ابن عذارى : المصدر السابق جـ ١ ص ١١٧ .
(٦) ابن خلدون : المصدر السابق جـ ٤ ص ٤١٩ .

عشرة آلاف[١] ، وتمكن عمران من دخول تونس .

لم يخل عهد ابن الأغلب من الثورات والفتن ولكنها كانت لا تقاس بالثورات التى كانت تضطرم[٢] في إفريقية في العهود السابقة ، على أي حال تمكن إبراهيم بن الأغلب بفضل ما لديه من كفاءة وشجاعة وذكاء وقوة مؤيديه من الجماعات اليمنية والقيسية من أن يقيم دولة جديدة تمثل الدولة العباسية في بلاد إفريقية .

وكان إبراهيم بن الأغلب حقاً حاكماً قادراً ، فنظم دولته ودفعها في طريق العلم والحضارة والرقي فازدهرت . فقد كان إبراهيم فقيهاً عالماً[٣] مؤيداً للسنة وشاعراً[٤] خطيباً ذا رأي وبأس وحزم وحلم وعلم بالحروب والمكايد حسن السيرة ، ولم يكن أحد قبله يساويه فس حسن السياسة في إفريقية ، وكان كثير الزيارات للفقيه المصري الليث بن سعد[٥] حيث تتلمذ على يده ولا غرابة في ذلك .

كان إبراهيم بن الأغلب حافظاً[٦] للقرآن ، عارفاً به رءوفاً بالرعية ، فمهد الأحوال وطوع البربر ، وكان الليث بن سعد الفهمي قد وهب له جارية تدعى جلاجل وهى أم ولده زيادة الله .

وكان لتربية إبراهيم بن الأغلب التربية الدينية أثر كبير في ثقافته الظاهرة وميوله وقدرته على قول الشعر . وهذا هو ما قرب بينه وبيت الفقهاء من أهل الدين وهذا بدوره أكسبه تأييد الناس فاتخذ من الفقهاء مستشارين له وكانوا خير عون له في ضبط أمور الدولة .

ووسط هذا الجو الذي كان يحمل الهدوء والاستقرار برز عدد كبير من

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٨٩ .
(٢) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي جـ ٢ ص ٢٨ .
(٣) ابن أيبك : الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية جـ ٦ ص ٢٤ — ٢٥ .
(٤) الباجي المسعودي : الخلاصة النقية بأمراء إفريقية ص ٢٢ — ٢٣ .
(٥) ابن عذارى : المصدر السابق جـ ١ ص ١١٦ .
(٦) الباجي المسعودي : المصدر السابق ص ٢٣ .

العلماء والفقهاء ، ومن بينهم سحنون الذي عاصر نصف قرن من حياة دولة الأغالبة وكان سنه ٢٤ عاماً ، فلعب دوراً هاماً في النهضة الفقهية المالكية السنية التي تصدت للخوارج الذين كانوا يشكلون خطراً ويهددون كيان السنة والسلطان لبني العباس في إفريقية قبل قيام دولة الأغالبة وبعدها .

* * *

٢ ـــ الحضارة والعمران

أما فترة الأغالبة فهي من أمجد[١] فترات إفريقية وتاريخها ، والتي عاش سحنون ستاً وخمسين سنة من عمره في ظلها ، فقد دامت قرابة أكثر من قرن ساد أثناءها الاستقرار السياسي النسبي بلاد إفريقية ، وكان للمذهب السني وشيوخه نصيب كبير في إقامة وتثبيت دعائم هذا الاستقرار ، فقد تمكن الفقهاء بمعاونة أمراء الأغالبة من إخراج الخوارج من بلاد إفريقية ، فلم يعودوا يعيشون إلا في جبل نفوسة[٢] جنوب ولاية طرابلس من أملاك الأغالبة ، أما طرابلس نفسها فقد كانت سنية يسودها الفقه المالكي وعندما أقام الخوارج الأباضية دولة لهم أقاموها خارج بلاد الأغالبة في إقليم تاهرت[٣] وهو الجزء الغربي من المغرب الأوسط .

إن قيام دولة الأغالبة جعل لإفريقية وأهلها شخصية مميزة وفريدة تختلف كل الاختلاف عن بقية بلدان المغرب ، فكانت مدن وقرى إفريقية محطات ومراكز الطوائف وطلاب العلم والشيوخ والتجار ، فنهضت حركة العمران والإنشاء إلى جانب الزراعة والرعي وكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر ، فكانت تونس[٤] قد احتلت بخطواتها السريعة محل مكانة مدينة قرطاجنة فهي تشتمل على معالم الحياة من مبان وأسواق ودار صناعة للسفن التي أنشأها حسان بن النعمان وممن جاء بعده من الولاة والحكام وخاصة أفراد الأغالبة ، وهذا قد أصاب العرب من سكان أهل تونس بالغروروالكبرياء والتمرد على الحكام في القيروان .

وكان من المعروف عن فترة المهالبة أنهم قد أعطوا اهتماماً كبيراً في إفريقية

---

(١) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٩٥ .
(٢) الأنصاري : المنهل العذب في تاريخ طرابلس والعرب جـ ١ ص ٦٨ .
(٣) ابن عذارى : المصدر السابق جـ ١ ص ٨٩ .
(٤) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات جـ ١ ص ٣٩ .

لإقامة الأبنية والمنشآت وخاصة في فترة يزيد بن حاتم[١] الذي كان له دور كبير في توسيع جامع القيروان وإنشاء العديد من الأسواق في مدينتي تونس[٢] والقيروان وغيرها . أما هرثمة بن أعين فقد أنشأ القصور للمرابطين[٣] والزهاد والمحارس على الساحل ، ولكن الأغالبة قد جلبوا المدنية والحضارة في إفريقية والمغرب الأوسط .

ومن أعظم إنجازات الأغالبة المعمارية تجديد مسجدي القيروان وتونس وهما المعروفان بمسجد عقبة بن نافع ومسجد الزيتونة .

فمسجد القيروان قد تعرض لعدة تجديدات منذ أن أسسه عقبة بن نافع الفهري إلى نهاية عصر الأغالبة ، فقام حسان بن النعمان بتجديده ولم يكمله[٤] ، ثم قام حنظلة بن صفوان بإكماله ، ولكن الذي أدخل عليه التجديدات الحاسمة ورفع قبابه ومئذنته وأعطاه صورته الحالية كان زيادة الله ابن الأغلب[٥] ، فقد أنفق زيادة الله أموالاً كثيرة في هذا العمل ، وكان زيادة الله يفتخر بهذا العمل فيقول « ما أبالي ما قدمت عليه يوم القيامة ، وفي صحيفتي أربع حسنات : بنياني المسجد الجامع بالقيروان ، وبنياني قنطرة أم الربيع ، وبنياني حصن مدينة سوسة ، وتوليتي أحمد بن أبي محرز قضاء إفريقية »[٦] .

وقال الأستاذ أحمد فكري عن جامع القيروان في كتابه « آثار تونس الإسلامية ومصادر الفن الإسلامي »[٧] « ولا يقتصر فضل القيروان على التخطيط ، فإن هذا المسجد العظيم يحوي عناصر معمارية ظهرت فيه لأول مرة

---

(١) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص ١٩٥ .
(٢) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات جـ ١ ص ٦٠ .
(٣) د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٧٦ .
(٤) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٤٥ .
(٥) ابن عذارى : المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٨ .
(٦) النويري : نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١١٥ .
(٧) أحمد فكري : آثار تونس الإسلامية ومصادر الفن الإسلامي ص ٥٧ .

في تاريخ العمارة أو على الأقل يبقى فيها أقدم الأمثلة التي لاقت من بعده انتشاراً كبيراً في بلاد الشرق والغرب ، وأصبحت من العناصر المميزة للعمارة الإسلامية ، وأذكر من هذه العناصر أقواس مسجد القيروان » .

وكذلك قام زيادة الله بتجديد وتوسيع جامع تونس ولكن المنية أدركته قبل أن يكملها ، فتولى بعده إبراهيم بن أحمد سادس أمراء الأغالبة فهو الذي أمر ببناء قبابه المضلعة[1] ووضع فيه أعمدة الرخام وزينه بالزخارف والنقوش والكتابات الكوفية[2] الجميلة ، وكذلك أمر إبراهيم بن أحمد ببناء القبة الكبيرة الموجودة الآن في جامع القيروان ، وهي من أجمل القباب في تاريخ المساجد الإسلامية . وحول القباب في مسجد القيروان يقول الدكتور أحمد فكري « ولاشك أن أول مثل إسلامي للنظام المبتكر للقباب المرتكزة على أقواس يظهر أيضاً في مسجد القيروان ، وسواء أكان الفضل في وضع هذا النظام الجديد يعود إلى الفرس أو إلى الرومان ، وسواء أكان الأصل في اشتقاق هذه القباب يرجع إلى مصر القبطية أم إلى إفريقية البيزنطية ، وأيًّا كان الأصل في هذه القباب فإنه لا يضعف شأن بناء القيروان »[3] .

ثم قام أبو العباس محمد بن الأغلب خامس أمراء الأغالبة ببناء جامع سوسة الذي يعتبر من أجمل الآثار المعمارية الإسلامية في إفريقية ، ومن منشآته أيضاً رباط سوسة المعروف بقصر الرباط[4] .

اعتنى بنو الأغلب بالمنشآت العسكرية والمدنية ، وهذا لا يقل أهمية عن عنايتهم بالمنشآت الدينية فقد أنشأ الأغالبة الكثير من الأسوار والأبراج للمدن وخاصة التي تقع على الساحل ، ولا ننسى دار تونس وسوسة[5] اللتين كانت لهما أمجاد في تاريخ البحرية الإسلامية وخاصة في حوض البحر الأبيض المتوسط وخير مثال لنا فتح جزيرة صقلية .

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات جـ ١ ص ١١٣ .
(٢) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦١ .
(٣) أحمد فكري : مسجد القيروان ص ٧٨ .
(٤) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي جـ ٢ ص ٧١ .
(٥) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٣٦٣ .

ومن أشهر المنشآت العسكرية في عصر الأغالبة الرباطات وهي قريبة الشبه بالقصور السابق ذكرها ، ولكن كانت الرباطات تخصص للمجاهدين والمرابطين ما بين حاميات رسمية وأفراد من المتطوعين ، ولكن من المعروف أن الرباط كان للأفراد ، أما الجند الرسمي فكانت تبنى لهم معسكرات ، وقد وصف لنا الأستاذ الدكتور حسين مؤنس الرباطات فقال « يحيط بالرباط عادة سور مرتفع ، تقوم على أركانه وعلى مسافات منه أبراج يقف فيها الحراس ، وتوقد فيها النيران وقت الخطر ، وقد بقي لنا من رباطات عصر الأغالبة رباط[١] سوسة وهو من بناء زيادة الله بن الأغلب[٢] أسسه في سنة ٢٠٦ هـ ، وتاريخ الإنشاء مسجل على لوحة من الرخام بأعلى مدخل المنار ، تقرأ عليها النص التالي (ما أمر به الأمير زيادة الله بن إبراهيم أطال الله بقاءه على يد سرور الخادم مولاه في سنة ست ومائتين ، اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين)[٣] ويقع رباط سوسة على خليج قابس[٤] ، وهو داخل سور المدينة من ناحية البحر وطول ضلع سوره أربعون متراً تقريباً ، وبداخل السور ثلاث قاعات واسعة تسمى الأسطوانات مرفوعة على عمد وفوقها سقف يتكون من ثلاث قباب ، وهذه القاعات والأسطوانات يؤدي بعضها إلى بعض وهي تستعمل للنوم والأكل ، ويليها صحن الرباط وهو مساحة واسعة مسورة تدور حولها البوائك ، وهذه البوائك طابقان وهي تفتح أو تطل على صحن الرباط ، وفي ركن من الصحن يقوم مسجد الرباط » .

وحول الرباط وقصره قال الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب « في فجر المائة الثالثة للهجرة وجه الأمير زيادة الله عناية كاملة لإعادة الحصن الذي أقامه أبوه إبراهيم الأكبر في مكان الرباط الحالي ، فأمر أحد فتيانه بتوسيع نطاق الحصن الأول ويجعله على طابقين أسفل وأعلى ويقيم فيه ثلاثين غرفة لسكنى المرابطين علاوة على الحمام والمرحاضات ، وينصب في الطابق العلوي مسجداً

(١) د. حسين مؤنس : المرجع السابق ص ٩٧ .

(٢) Creswell A short account p. 232.

(٣) عبد السيد عبد العزيز : المرجع السابق ص ٣٦٤ .

(٤) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة بإفريقية التونسية جـ ٢ ص ٢٤ .

جامعاً للصلاة والخطبة ، ويبني المسجد على أقواس متماسكة العقود . وهو أول مسجد يبنى أي قبل إنشاء فنائه وقبل الجامع الكبير الآتي ذكرهما ، فمن يقطن سوسة وقتئذ كان يقصد الرباط لأداء الجمعة والأعياد »[1] .

وكان رباط سوسة قريب الشبه برباط المنستير[2] وهو أقدم وأجمل منه من الناحية الهندسية ، وقد اتسع هذا الرباط حتى أصبح على شكل مدينة كثيرة المساكن ، والرباط عبارة عن طابقين يخصص الأول منهما للمسجد وقاعات الدرس والاجتماع والطعام الذي كان المرابطون وأهل الرباط يتناولون معهم أحياناً ، ويخصص الثاني للحراسة والعبادة والخلوة ، وفي العادة يتولى الرباط شيخ[3] من أهل التقوى والورع والصلاح هو الذي يتولى تنظيم وتسيير العبادة أو الحراسة فيه .

أما المنشآت المدنية وخاصة مدينة القصر القديم[4] فهي التي بناها إبراهيم

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٤ .

(٢) كانت المنستير ميناء يقع بين سوسة والمهدية وكانت في الأصل رباطاً أو قصراً يرابط فيه المسلمون لحماية ثغور إفريقية من الغارات البحرية التي كان يقوم بها الروم ، بناه هرثمة بن أعين والي إفريقية من قبل الرشيد في سنة ١٨٠ هـ .

وصف البكري هذا الرباط فقال « وبالمنستير البيوت والحجر والطواحين ومواجل الماء ، وهو حصن عالي البناء متقن العمل وفي الطبقة الثانية منه مسجد لا يخلو من شيخ خير فاضل يكون مدار القوم عليه ، وفيه جماعة من الصالحين والمرابطين قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين دون الأهل والعشائر ، وهو قصر كبير عال داخله ربض واسع ، وفي وسط الربض حصن ثان كبير كثير المساكن والمساجد والقصاب العالية طبقات بعضها فوق بعض . وفي القبلة صحن فسيح من قباب عالية متقنة ينزل حولها النساء المرابطات وله يوم عاشوراء موسم عظيم ومجمع كبير ، وكان أهل القيروان يخرجون إليهم بالأموال والصدقات الجزية ، وبقرب المنستير محارس خمسة متقنة البناء ، ومعمورة بالصالحين » . البكري : المصدر السابق ص ٣٦ ، ابن الخطيب : المصدر السابق جـ ٣ ص ١١ .

(٣) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٩٧ .

(٤) يبدو أن سبب بناء ابن الأغلب لهذه المدينة يرجع إلى سكان القيروان لما كانوا يتصفون به من تدين وورع أبدوا سخطهم على الأمير لإقباله على الخمر وانغماسه في حياة اللهو واللذات ، فاضطر ابن الأغلب إلى إقامة هذه المدينة للاستمتاع بالحياة بعيداً عن أنظار رعيته فلا يناله شيء من تقريع فقهائهم وانتقادهم لسلوكه ، وقد يكون اتخذ هذه المدينة تقليداً للخلفاء الأمويين والعباسيين في اتخاذهم القصور خارج عواصمهم أو إشباعاً لرغبته في الظهور بمظهر العظمة والأبهة ، ولقد اشترى ابن الأغلب هذا أرضاً من بني طالون ، وبنى قصراً للإمارة ، نقل إليه السلاح والعددَ سراً ، وأسكن حوله عبيده وفتيانه ومواليه وأهل الثقة من خدمه ، وسمي بالقصر القديم بالنسبة لقصر رقادة الذي بناه إبراهيم بن أحمد في سنة ٢٦٤ هـ ، وعرف بالقصر الأبيض ربما لبياض لون جدرانه .

=

ابن الأغلب وهي تبعد ثلاثة كيلومترات جنوبي مدينة القيروان لتكون معسكراً لجنده ومقاماً له ومعقلاً لأسرته . وكانت المدينة تتكون من قصور وحدائق ومعسكرات وأماكن للعبادة ، ولم يبق من آثار هذه المدينة شيء ، وكانت هذه المدينة تسمى العباسية ثم سميت بالقصر القديم تمييزاً عن مدينة القصر الجديد (رقادة)[1] التي بناها إبراهيم بن أحمد سنة ٢٦٤ هـ/٨٧٨م .

اعتنى الأغالبة ببناء صهاريج المياه وجبابها ، والصهريج عبارة عن خزان ماء فوق الأرض ، أما الجب فلايكون إلا في باطن الأرض ، والجب مخزن واسع يتكون من حجرة واسعة قد يصل قطرها إلى أربعين متراً ، وعمقها نحو عشرين متراً ثم يبنون عند الماء حجرة أو قبواً واسعاً بالحجر أو الطوب الأحمر أو الطوب المغطى بالبلاط الذي لا تؤثر فيه المياه .

كذلك أكثر الأغالبة من بناء المواجل ، والماجل عبارة عن أحواض ماء واسعة وعميقة تشبه الفسقيات يتجمع فيها ماء المطر وهي دائماً مكشوفة ، وقد يقام في وسط الماجل جوسق فيه يجلس الأمير للراحة ، ومواجل القيروان[2] وسوسة وتونس تعتبر من الآثار الجميلة التي تستحق المشاهدة .

= وفي هذه المدينة استقبل الأمير رسل شارلمان إليه سنة ١٨٥ هـ عندما قدموا لنقل رفات القديس سان سيبرين .

ابن عذارى : المصدر السابق جـ ١ ص ١١٧ ، اليعقوبي : البلدان ص ٣٤٧ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ ٢٤ ص ٣٦٢ .

Marcais : L'Arch it Ecture Musiumone p. 26-27.

(١) يصفها البكري فيقول « وأكثرها بساتين وليس بإفريقية أعدل هواء ، ولا أرق نسيماً ولا أطيب تربة من مدينة رقادة » وسميت رقادة لأن الأمير إبراهيم أرق يوماً ، وشرد الكرى عن جفنيه فلم ينم وأمر بالخروج والسير فلما وصل إلى هذا الموضع نام ، فسمي رقادة ، والذي بنى رقادة واتخذها داراً إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب انتقل إليها من مدينة القصر القديم وبنى بها قصوراً عديدة وجامعاً ، وعمرت بالأسواق والحمامات والفنادق ، وكان يحيط برقادة سور من الآجر واللبن أصلحه الأمير زيادة الله الثالث يتحصن فيها عند محاصرة أبي عبيد الله الشيعي لها .

البكري : المصدر السابق ص ٢٧ ،

Marcais : op, cit. p. 28.

(٢) ويصف الإدريسي الماجل الكبير بالقيروان بأنه « من عجيب البناء لأنه مبني على تربيع وفي وسطه بناء قائم كالصومعة ، وذرع كل وجه منه مائتا وذرع وهو مملوء كله ماء » .

أما البكري فيذكر عن الماجل الكبير « أنه مستدير الشكل ، عظيم الاتساع ، يتوسطه برج مثمن الشكل ، يعلوه مجلس له أربعة أبواب وبأعلاه قبة يحملها ١١ عموداً . وبجوار هذا الماجل مباشرة ، =

وفي عهد زيادة الله الثالث آخر أمراء الأغالبة أنشأ بركة [١] أو ماجلا طوله خمسمائة ذراع وعرضه أربعمائة ذرّاع وأجرى إليه الماء بالسواقي وسمى هذا الماجل الفسيح بالبحر ، وأقام على ضفته قصراً من أربعة طوابق سماه العروس[٢] ، وأنفق في إنشائه فيما يقال ٢٣٢,٠٠٠ دينار .

ومن غريب المصادفات أن هذا القصر تم على يد زيادة الله الثالث ابن الأغلب آخر أمراء الأغالبة وكان الفاطميون قد أوغلوا في بلاد إفريقية وكثرت جندهم ، واقتربوا من القيروان ، وهنا جمع زيادة الله ألفاً[٣] من أهل بيته وهرب بهم إلى مصر تاركاً بلاد إفريقية مقر ملكه وملّك إياها للفاطميين .

ومما لا شك فيه أن الحياة الاقتصادية في إفريقية قد تطورت بقيام دولة الأغالبة ، فاستفاد الأغالبة من وضع البلاد الجغرافي فجمعوا الثروات الطائلة . وبفضل الموانى المنتشرة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط مثل ميناء سوسة وتونس وبجاية أمكن للأمراء الأغالبة أن يقيموا الأساطيل ويحرزوا الانتصارات وهذا انعكس على أحوال أهل سكان إفريقية فأحدث انتعاشاً اقتصادياً .

ونتيجة إحكام الأغالبة على زمام البحرية دون منازع ، فاحتكروا دور الوساطة التجارية بالنسبة للتجارة العالمية بين الشرق والغرب وجنوا من وراء

= وفي الجهة الشمالية منه ماجل آخر أقل اتساعاً يعرف بالفسقية يتلقى مياهه من الوادي عند جريانها ، فيخفف سرعتها ، وعندها يمتلىء بالمياه حتى ارتفاع قامتين ، تتدفق في الماجل الكبير عن طريق فتحة يسميها الصرح » .

وكان قد شرع في بنائه الأمير إبراهيم بن أحمد سنة ٢٤٥ هـ وأتمه في سنة ٢٤٨ هـ ، ويروى أنه اعتل أثناء اتخاذ الماجل بالقصر القديم ، فكان يسأل : هل دخله الماء ؟ إلى أن دخله الوادي ، فعرفوه بذلك فسر به ، وأمرهم أن يأتوه بكأس مملوءة منه فشربها وقال : الحمد لله الذي لم أمت حتى تم أمره . ثم مات على أثر ذلك .

وكان بالقيروان فيما يذكر البكري ١٥ ماجلاً كانت هذه المواجل مستديرة الشكل ، تكسو سطوحها طبقة من الملاط شديد الصلابة .

ابن الخطيب : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٣ ، البكري : المصدر السابق ص ٢٥ ، الإدريسي : المصدر السابق ص ١١٠ .

(١) ابن عذارى : المصدر السابق جـ ١ ص ١٨٦ .

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي جـ ٢ ص ١٦٧ .

(٣) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٨٢ .

ذلك أطيب[١] الثمار ، كذلك لم يهملوا التجارة مع الجنوب فمهدوا طرق القوافل[٢] لتسهيل التجارة مع أهل اللثام وبلاد الجريد ، كما راجت دور الصناعة مثل دور تونس[٣] وسوسة وغيرهما مستفيدة من الاستقرار النسبي للبلاد ، وأصبحت القيروان من أكبر المراكز التجارية في غرب البحر الأبيض المتوسط ، وأيضاً سوسة والأريس وقفصة وغيرهم .

كذلك اشتهرت رقادة بالأسواق[٤] والفنادق والقصور ، وكذلك العباسية[٥] فإذا كانت بغداد ودمشق والإسكندرية قد عرفت نظام الأسواق المتخصصة[٦] ، وأيضاً فالقيروان شهدت مثل هذه الأسواق منذ أيام حاتم بن يزيد المهلبي[٧] ، وغص طريقها الرئيسي بالمتاجر ودور الصناعة[٨] ، ويحدثنا المالكي[٩] عن حوانيت الرفائين والكفايين وتجمعها في مكان واحد حيث عرفت بالحوانيت الجدد .

وكانت إفريقية الأغلبية تصدر القمح والشعير إلى الإسكندرية والرقيق السوداني إلى بلاد الشام ، كما كانوا يصدرون أيضاً النسيج[١٠] والأبسطة

---

(١) محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة ص ٤٥ .
(٢) الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص ١٢١ .
(٣) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ٣٢٣ .
(٤) البكري : المصدر السابق ص ٢٧ .
(٥) البكري : المصدر السابق ص ٢٨ .
(٦) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي جـ ٣ ص ٣٢٠ .
(٧) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ٩٣ .
(٨) حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق جـ ٣ ص ٣٢٥ .
(٩) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١٩٥ — ١٩٦ .
(١٠) اشتهرت إفريقية بصناعة المنسوجات ، وإلى سوسة كانت تنسب الثياب السوسية الرفيعة البياض الناصع ، وكانت منسوجات دور الطراز بإفريقية مما يهادي به للخلفاء العباسيين ، ويذكر ابن عذارى أن أبا عبد الله الشيعي لما هزم جيش إبراهيم قائد زيادة الله بن الأغلب ، غنم كثيراً من الأموال والسلاح والسروج واللجم وضروب الأمتعة ، وهي أول غنيمة أصابها الشيعي وأصحابه ، فلبسوا أثواب الحرير ، وتقلدوا السيوف المحلاة وركبوا بسروج الفضة واللجم المذهبة .
البكري : المصدر السابق ص ٣٤ ، مجهول : الاستبصار ص ١١٩ ، ابن عذارى : المصدر السابق جـ ١ ص ١٨٧ .

والأقمشة الفاخرة إلى بغداد[١] .

أخذ الأغالبة من المشرق زراعة بعض المحاصيل مثل القطن وقصب السكر[٢] ، وما جناه الأغالبة من ثروات[٣] طائلة ظهرت آثارها فيما أقاموه من منشآت وعمائر بإفريقية .

وتعتبر فترة إبراهيم بن الأغلب وابنه زيادة الله الأول من أزهى فترات دولة الأغالبة حيث ساد الرخاء الاقتصادي في عهدها فضرب الدنانير[٤] والدراهم على نمط الطراز العباسي ، كما دونت الدواوين مثل ديوان الخراج وكان صاحبه من الشخصيات المرموقة في البلاط الأغلبي وصاحب ثقة[٥] ، وديوان الخاتم وكان إبراهيم بن الأغلب أسنده لابنه عبد الله ، وكذلك دار الطراز التي كانت تنتج ما يرسله الأمير من الكساوى والإنعامات إلى مشاهير وكبار رجال الدولة في المناسبات[٦] ، كما عرف الأغالبة الحسبة[٧] والعسس[٨] وكان بلاط الأغالبة صورة مصغرة للبلاط العباسي .

* * *

---

(١) يذكر ابن عذارى أن زيادة الله الثالث بعث الحسن بن حاتم إلى العراق رسولاً منه بهدايا وطرف .

ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٨٥ ، ابن خلدون : المقدمة ص ١٨١ .

(٢) **Heyd : Historie Du Commerce vol. 1 p. 50.**

(٣) هناك ثروة معدنية فقد اشتهرت بجانة بمعادنها الكثيرة وعلى الأخص الفضة والكحل والحديد والرصاص ، ويعتقد الأستاذ مارسيه أن منطقة بجانة أصبحت منذ منتصف القرن الثاني الهجري تتمتع بنشاط اقتصادي بوجود المعادن بكثرة في أرضها .

Marcais : op. cit. p. 79.

(٤) ويرى الأستاذ مارسيه أن المشرفين على دار السكة كانوا من الموالي والروم أو العبيد أو الفتيان الذين أولاهم أمراء بني الأغلب كل ثقتهم ، ويذكر مارسيه بعض هؤلاء الفتيان منهم موسى في عهد إبراهيم بن الأغلب ، ومسرور في عهد زيادة الله الأول ، ويذكر ابن عذارى أن زيادة الله الثالث اشتد كلفه بغلام له يسمى خطاب ، فكتب اسمه في سكة الدنانير والدراهم . **Marcais :op. cit. p. 82.** وابن عذارى : المصدر السابق جـ ١ ص ١٨٥ .

(٥) محمود إسماعيل عبد الرازق : المرجع السابق ص ٧٦ .

(٦) محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة ص ٧٦ .

(٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ٦ ص ١٤ .

(٨) السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٣٢٦ .

الفصل الثالث

حيـــاة سحنــون

حيـــاة سحنــون

ولد أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب بن حسان بن هلال بن بكار بن ربيعة التنوخي[1] في رمضان عام ١٦٠ هـ[2] من صليبة[3] العرب ، ويرجع أصله إلى بلاد الشام من أهل حمص[4] ، وكانت قبيلته تنوخ من عرب الشام وأصلها من اليمن[5] . وقد دخلت تنوخ في الإسلام بعد الفتوح العربية لبلاد الشام ، وكان للتنوخيين دور بارز في هذه الفتوح .

قدم أبوه إلى إفريقية مع جند حمص من العرب ، وكان من أهل العلم مع أنه كان من الجند الشامي . والغالب أن أباه دخل به إفريقية ، ولو أن بعض مؤرخي المغرب يقولون أنه ولد في إفريقية .

وغلب على أبي سعيد عبد السلام لقب سحنون منذ صغره ، وهو اسم طائر[6] معروف بحدة النظر والذكاء . والذي أطلق عليه هذا اللقب بعض مشايخ من أهل الحديث[7] لشدة ذكائه في الدرس والتحصيل .

تلقى أبو سعيد عبد السلام بن سعيد علومه الأولى في كتاتيب ، شأنه في ذلك شأن غيره من الصبيان في ذلك الحين ، ولما أنس فيه استعداداً للدرس والتحصيل عندما شب عوده أعانه أبوه وكبار مشايخ إفريقية وعلمائها آنذاك كأبي خارجة وبهلول وعلي بن زياد وابن أبي حسان وأبي مسعود بن أشرش

---

(١) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٤٩ .

(٢) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ١٠١ .

(٣) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٠١ .

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٢ ص ٩٤ .

(٥) القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص ٤٧ .

(٦) الدميري : حياة الحيوان جـ ٢ ص ٢٩ .

(٧) ابن حجر العسقلاني : لسان الميزان جـ ٣ ص ٨ .

وابن غانم ومعاوية الصمادحي[١] ، وسنتحدث عنهم بالتفصيل عند الكلام عن شيوخ سحنون . ولما أظهر سحنون حسن استعداده وإقباله على العلم أشار عليه الفقيه بهلول بن راشد[٢] بالذهاب إلى مدينة تونس للدراسة العميقة الفائضة على يد فقيهها البارع المتمكن علي بن زياد التونسي[٣] الذي استقبله بكل حفاوة وتكريم ، وكان سحنون يحمل معه كتاباً إلى علي بن زياد من بهلول بن راشد للعناية به ، كتب إليه فيه « إني كتبت إليك في رجل يطلب العلم لله عز وجل »[٤] . عنى به علي بن زياد ودرس له موطأ مالك بن أنس إمام دار الهجرة . حقاً كان علي بن زياد خير عون لسحنون في استيعابه وتحصيله وفهمه للفقه المالكي .

طلب سحنون بن سعيد المزيد من العلم ، فأشار عليه معلمه علي بن زياد بالذهاب إلى المدينة موطن إمام دار الهجرة ومعقل الفقهاء والعلماء ، ولهذا رحل سحنون إلى المشرق .

وكان من عادة أهل إفريقية والمغرب[٥] أن يرحلوا إلى المشرق ليتلقوا علوم الشريعة ، ومن هؤلاء الراحلين عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري الذي تلقى العلم عن جماعة من التابعين ، وكان رفيقه في الدرس الخليفة أبو جعفر المنصور[٦] ، وعاد عبد الرحمن بن زياد إلى القيروان بعلم غزير ، وكذلك علي ابن زياد التونسي الذي أخذ عن الإمام مالك ، وعاد إلى تونس بعلم واسع وغزير ، وهو أول من أدخل[٧] الموطأ في إفريقية .

اختلف المؤرخون وأصحاب السيرة حول تاريخ رحلة سحنون للمشرق

---

(١) هو أبو الجون معاوية بن الفضل من أهل إفريقية وكان معدوداً من شيوخها . كان ثقة ولكن اتهمه بعض الناس بأنه كان يعتنق مذهب الصفرية ، روى عنه سحنون .
انظر : العيون والحدائق في أخبار الحقائق جـ ٤ القسم الأول ص ١١٧ .
(٢) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٥٠ .
(٣) ابن الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ٨٠ .
(٤) ابن فرحون : الديباج ص ١٦١ .
(٥) د. أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٢١ .
(٦) القضاعي : عيون المعارف وفنون أخبار الخلايق ورقة ٢٧ .
(٧) ابن السراج : الحلل السندسية في الأخبار التونسية . جـ ١ القسم الثالث ص ٧٠٨ .

فقيل إنه ذهب إلى المشرق عام ١٧٨ — ١٧٩ هـ[١] ، أي أنه كان يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً أو تسعة عشر عاماً ، وأيد هذا الرأي ابنه محمد حيث قال إن أباه رحل إلى مصر عام ١٧٨ — ١٧٩ هـ وتقابل مع الفقيه المالكي عبد الرحمن بن القاسم العتقي[٢] الذي كانت ترد إليه جوابات الإمام مالك رداً على المسائل الفقهية التي كان يبعث بها إليه . كذلك من الثابت تاريخياً أن سحنون لم يتقابل مع الإمام مالك لقلة[٣] المال معه ، ولدينا خير دليل على هذا الرأي عبارة نقلت على لسان سحنون « لحى الله الفقر فلولاه لأدركت مالكاً »[٤] وربما لم يكن هذا صحيحاً لأننا لا نعرف أن سحنون نشأ ميسور الحال وإنما عمره كله كان في سعة من العيش ، ولا ندري من أين جاءت حكاية عجزه عن الذهاب إلى المدينة للقاء مالك والأخذ عنه ، وقد تكون هذه تعليلات ابتكرها بعض تلاميذ سحنون المتعلقين به لتعلل عدم سماعه عن مالك ، وهذا يدل على أن سحنون كان في المشرق[٥] قبل وفاة الإمام مالك بمدة قصيرة .

بينما أشار بعض الفقهاء ومن ألف في سيرة سحنون أمثال أبي العرب والمالكي والقاضي عياض والدباغ أن سحنون رحل إلى الحجاز عام ١٨٨ هـ ، ومن هنا وعلى أي حال نرى أن سحنون لم تتح له فرصة لقاء الإمام مالك للسماع عنه بل أخذ علم الفقه على أيدي كبار تلاميذه الأجلة من مختلف الأمصار الإسلامية ، فسمع في المدينة من عبد الله بن نافع[٦] ومعن بن عيسى وأنس بن عياض وعبد الملك بن الماجشون والمغيرة بن عبد الرحمن .

أما في مكة فسمع من سفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن مهدي ووكيع بن الجراح وحفص بن غياث ويزيد بن هارون ويحيى بن سليمان وأبي داود

---

(١) الشيرازي : طبقات الفقهاء ص ١٣٢ .
(٢) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٠٢١ .
(٣) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٦٧ .
(٤) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٢ ص ٥٨٧ .
(٥) الذهبي : دول الإسلام جـ ١ ص ١١٥ .
(٦) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٦١ .

الطيالسي[١] وأبي إسحاق الأزرق[٢] وغيرهم .

وفي مصر سمع من عبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن وهب وأشهب بن عبد العزيز وعبد الله بن عبد الحكم[٣] وشعيب بن الليث بن سعد الفهري ويوسف بن عمر . أما في بلاد الشام فأخذ من الوليد بن مسلم وأيوب بن سويد[٤] .

وحج سحنون مع ابن القاسم وابن وهب وأشهب مرة واحدة ، وكان زميله[٥] في رحلته ابن وهب ، وعاد سحنون إلى بلده القيروان عام ١٩١ هـ أي بعد وفاة القاسم مباشرة وكان قد خرج إليه على هذا الرأي وهو في الخامسة والعشرين .

ربما أمكننا التوفيق بين الرأيين إذا فرضنا أن سحنون بن سعيد قد قام برحلتين إلى المشرق الأولى عام ١٧٨ هـ — ١٧٩ هـ ليدرك مالك فلم يوفق في ذلك ، ودرس على من تيسر له من الشيوخ ثم عاد إلى بلده ليرحل مرة ثانية عام ١٨٨ هـ ليستزيد من العلم من شيوخ المشرق ثم العودة به إلى إفريقية .

وحقاً كان سحنون هو الذي ثبت مكانة هذا المذهب في إفريقية ومنها امتد المذهب المالكي إلى بقية أجزاء بلاد المغرب .

ومن المعروف أن بلاد المغرب والأندلس[٦] كانت تسير على مذهب

---

(١) هو أبو داود الطيالسي سليمان بن داود بن الجارود البصري كان حافظاً ، ثقة ، كثير الحديث ، مات سنة ٢٠٣ هـ .

انظر ترجمته في الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٣٥١ ، العبر جـ ١ ص ٣٤٥ ، ميزان الاعتدال جـ ٢ ص ٢٠٣ ، الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ص ١٢٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٢ ص ١٢ .

(٢) هو إسحاق بن يوسف بن مرداس الأزرق القرشي المخزومي وكنيته أبو محمد الواسطي ، وكان ثقة ، حافظاً من الصلحاء ولد سنة ١١٧ هـ ومات سنة ١٩٥ هـ .

انظر ترجمته في ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ ١ ص ٥٧ م ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ٣٤٣ ، الذهبي : العبر جـ ١ ص ٣١٨ ، تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٣٢٠ .

(٣) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٥٠ .

(٤) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٢ ص ٥٨٧ .

(٥) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٥١ .

(٦) ليفي بروفنسال : الحضارة العربية في أسبانيا ص ٥٩ .

الأوزاعي الشامي ، والأوزاعي هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمر إمام أهل الشام[١] ، ولم يكن بالشام أعلم منه . قيل إنه أجاب في سبعين ألف مسألة[٢] ، وكان إمام أهل زمانه[٣] في الشام ، وكان ثقة مأموناً صدوقاً فاضلاً[٤] كثير الحديث والعلم ، ولد سنة ٨٨ هـ وتوفي سنة ١٥٧ هـ[٥] وكان يسكن بيروت[٦] ، وأنشأ الأوزاعي مذهباً فقهياً لنفسه أخذ به الكثيرون ، ولكن مذهب مالك عندما انتشر غلب على مذهب الأوزاعي[٧] في إفريقية والمغرب والشام أيضاً .

وعندما بدأ سحنون نشاطه في التدريس كان مذهب مالك قد استقرت قواعده في إفريقية على يد شيوخ الأجيال السابقة على سحنون ، وسنتحدث عن ذلك في حينه ، والمهم في ذلك أن سحنون عندما بدأ حياته العلمية كان مذهب مالك قد غلب على إفريقية وكثرت شيوخه وتلاميذه في كل ناحية ، حتى أصبحت إفريقية من المراكز الكبرى للفقه المالكي .

وهناك نقطة يجب الإشارة إليها وهي إعجاب ابن القاسم بسحنون . وكان سحنون رفض البقاء والاستمرار بمصر كمعلم ، وحرص كل الحرص على العودة إلى لإفريقية ، وكان ابن القاسم قد طلب وألح على محمد بن رشيد[٨] صديق سحنون ورفيق عمره وأقرب الناس إلى قلبه أن يقنع سحنون بالبقاء بمصر « قل لصاحبك سحنون يقعد فالعلم أولى به من الجهاد وأكثر ثواباً »[٩] وفشل ابن رشيد في إنجاز هذه المهمة . ويفهم من هذا الخبر أن أهل مصر والمشرق كانوا ينظرون إلى بلاد إفريقية على أنها ثغر ودار جهاد .

---

(١) السلاوي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ٢ ص ٦٠ .
(٢) السيوطي : طبقات الحفاظ ص ٧٩ .
(٣) الذهبي : العبر في خبر من غبر جـ ١ ص ٢٢٧ .
(٤) الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٧٨ .
(٥) ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ ٦ ص ٢٣٨ .
(٦) الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ص ١٩٧ .
(٧) الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٧٨—١٧٩ .
(٨) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٥٢—٢٥٣ .
(٩) السقطي : في آداب الحسبة ٢ .

وعاد سحنون بن سعيد إلى القيروان فوجد في إفريقية عدداً عظيماً من العلماء والفقهاء والقضاة على رأسهم أسد بن الفرات وأحمد بن محرز ومحمد بن أبي الجواد وابن أبي خارجة الغافقي .

وكان هؤلاء الفقهاء يتخذون من مسجد القيروان مكاناً[1] للمجادلة والمناقشة وطرح المسائل للفقه المالكي والسنة ، ونلاحظ أن معظم هؤلاء الرجال تولوا مناصب القضاء بإفريقية بعد ذلك . وكان أقرب الفقهاء لقلب سحنون وأشهرهم أسد بن الفرات صاحب كتاب الأسدية ، وهي مجموعة تضم فيما يقال نحو ست وثلاثين ألف مسألة من المسائل الفقهية جمعها ، وقد أخذ سحنون الكثير من أسد بن الفرات لأنه تتلمذ على يد الإمام مالك ، بل كان من أقرب تلاميذه إلى قلبه حيث لازمه مدة كبيرة حتى مات مالك عام ١٧٩ هـ ، فرحل أسد إلى العراق[2] ومنها إلى إفريقية . ويمكن أن نعتبر أسد بن الفرات من كبار معلمي سحنون ، بل في الحقيقة أن سحنون أقام مدونته الكبرى على أساس الأسدية مع الاستعانة[3] بابن القاسم إذا وجد الاختلاف في مسألة ما .

واعتمد أهل القيروان على الأسدية وأقبل عليها الشيوخ والطلاب حتى صارت سنداً ومرجعاً لأهل إفريقية وكثر أصحابه وتلاميذه ، وعندما بدأ سحنون عمله كان أسد بن الفرات شيخ العصر وفقيه إفريقية فبدأت المنافسة تطرق أبواب إفريقية مع مجيء سحنون إليها . ونتيجة ذلك أن العصر الذي ظهر فيه سحنون في إفريقية شهد نهضة فقهية مالكية كبيرة لم يسبق لها مثيل ، وكان أكبر أعلام هذه النهضة أسد بن الفرات ، فقد ذاعت شهرته في أرجاء العالم الإسلامي واعتمد أهل العلم على كتابه الأسدية ، وكان سحنون من بين الذين درسوها وأعجب بها .

ولما عاد سحنون إلى عقر داره بعد هذه المرحلة جلس للقراءة في مسجد

(١) السقطي : في آداب الحسبة ٢ .

(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٤٦٦ .

(٣) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ١٢ .

القيروان ، وشارك في تعليم الصبيان[1] حفظ القرآن وإقامة الصلاة ، ثم بدأ نجمه يصعد عندما كان يحضر الحلقات الفقهية والعلمية التي كانت تعقد في المساجد وبيوت الفقهاء والعلماء ، وكان سحنون يقارعهم ويجادلهم في كل صغيرة وكبيرة في المسائل الفقهية المالكية ، ونال سحنون إعجاب الكثير من كبار مشايخ وأمراء إفريقية .

تأثر سحنون بن سعيد بشخصية الإمام مالك كل التأثر ، فصار على نمطه في حياته ومعيشته سواء في المأكل أو الملبس ، وقد حكى لنا بعض تلاميذ سحنون حول مأكل سحنون ، فقال إسماعيل بن إبراهيم[2] « دخلت على سحنون وهو يومئذ قاض وأنا يومئذ غلام ، فإذا هو جالس في بيته وفي عنقه تسبيح وهو يسبح به وفي الدار جشيش قد طبخ ، فقال : احتس من هذا الجشيش . فأبيت عليه من ذلك ، فقال : يا بني خذ هذه الشقة فقل لأخيك يبيعها وأخبره أنه قد دخل في طعمتها كذا وكذا ، وتبين لمن تبيعها منه أن قيامها أصطبه ، وعجل علي بثمنها لشيخك ثلاثة أيام لم يجد ما يشتري به سخينة يأكلها . فقال إسماعيل بن إبراهيم : فذهبت بالشقة فبعتها ، وجئته بالثمن عشية وهو ينظر بين الناس ، فأخذ الدراهم وكنت جعلتها في كمي وجعلتها بين أصبعين من أصابعي ، فحرك سحنون أذني بيديه ، وقال : ليس هكذا تمسك الدراهم ، إنها يا بني حلال ، فإذا ذهبت فأين أجد مثلها ؟ قال : ثم وجه ربع درهم فاشترى به أربع ثروات فطبخها وأفطر عليها . فلما خرج للصلاة ، وقال سحنون : ما أطيب الثرد ، اشير لي منها أربع . فبعثت بواحدة إلى ابني محمد ، وواحدة إلى ابنتي خديجة وأخرى إلى كذا ، وأكلت أنا واحدة » ومن المعروف أن سحنون كان يبعث إلى مغيث بن الأزهر[3] ليشتري له ربع الربع لحماً ليفطر عليه ثم استكثره .

وحول معيشة سحنون قال الفقيه سليمان بن سالم نقلاً عن لسان ابن أستاذه محمد بن سحنون « أخذ سحنون بمذهب أهل المدينة في كل شيء حتى

---

(١) عبد العزيز الأهواني : التربية في الإسلام ص ١٤٧ .

(٢) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٦٠ .

(٣) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٦٠-٢٦١ .

في العيش ، ولا يتكلف أكثر مما في يده ، وإن احتاج امرأة طلبها على قدر ذات يده في مؤنتها وقناعتها حتى يتبقى في يده ما استغنى به ، فإن كان له حال اعتمد عليه وتفرغ للعبادة ، وإن لم يكن عنده فعليه بكسب يده ، فذلك أولى به من مسألة الناس ، وإن كان مستغنياً عن الزوجة فتركها أحب إلي ، وأكل أموال الناس بالمسكنة والصدقة خير من أكله بالعلم والقرآن »[١] .

أما عن ملبس سحنون فقد ذكر لنا تلميذه ابن بسطام « كانت لسحنون قلنسوة طويلة ربما لبسها ، وساجاً ، وربما حمل في يده ، وقد لبسها ، حزم البصل وغير ذلك إلى داره تواضعاً »[٢] .

بينما قال سليمان بن سالم « ورأيت لسحنون ساجاً كحيلاً ، وساجاً أزرق ، ورداء وقلنسوة حبرة وقلنسوة زرقاء ، وقلنسوة تشبه قلنسوة الأغلب ، فإذا قعد للسماع لبس الرداء وقلنسوة الأغلب ، وإذا شهد الجمعة لبس الساج وقلنسوة الحبر ، وإذا حضر جنازة لبس الأزرق والقلنسوة الزرقاء ، كان هذا أكثر فعله »[٣] وكان سحنون يركب الخيل[٤] بلجام حديد ليس فيه فضة ، وكان له برنس أسود يلبسه في المطر والبرد .

نستنتج من أقاويل تلاميذ سحنون إلى أي مدى كانت ملابسه تميل إلى البساطة ، وهذا ما يتميز به مالك في ملابسه ، فأخذ هذه الصفة سحنون عن مالك ، فكان سحنون يرتدي أفخم وأغلى الملابس وقت الجنازة وصلاة الجمعة ومقابلة الأمراء الأغالبة .

على أي حال كان سحنون يعتمد على دخل ضيعته التي كانت تجلب له ٣٠ ديناراً[٥] سنوياً وقيل شهرياً ، وكانت أموال الضيعة تكفيه في المعيشة ، ولهذا لم يتقاض راتباً عن وظيفة القضاء أو إلقاء العلم في المسجد، في نفس

---

(١) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٦٣ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٩٣ .
(٣) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٩٣ .
(٤) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ القسم الثالث ص ٧٧٦ .
(٥) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٦١ .

الوقت لم يفكر سحنون في أخذ عطاء أو هدايا أو منح من أمير من أمراء الأغالبة وكانت هذه سياسة مالك مع الخلفاء العباسيين .

أما عن هيئة سحنون فقد وصفه أبو العرب : « وكان سحنون ربع القامة ، بين البياض والسمرة ، حسن اللحية ، كثير الشعر ، بعيد ما بين المنكبين ، كثير الصمت ، قليل الكلام ، يتكلم كثيراً بالحكمة ، مهيباً جداً ، يأخذ من شاربه على المشطِ ، حسن اللبس ، وكان به فتق في جوفه فكان يعصبه بلبد ، وكان له برذون يركبه وقلما رئى متطوعاً في المسجد »[١] وأضاف أبو العرب « كان عريض الطوق نحو الأصبعين »[٢] .

أما عن مجلس سماع سحنون فقال أحد تلاميذه « كان سحنون يجلس للسماع على باب داره ، ونحن على الأرض إلا من أتى بحصير ، فإذا قمنا قال : قوموا قومة رجل واحد فتتفرق »[٣] .

وحكى عبد الجبار بن خالد عن أستاذه « كنا نسمع من سحنون بمنزله في الساحل فصلى يوماً الصبح ثم دخل فخرج علينا يوماً وعلى كتفيه المحراث وبين يديه زوج بقر مقرون ، فقال لنا : إن الغلام حم فأنا أريد أن أذهب لأحرث ثم أرجع إليكم إذا فرغت أسمعتكم ، فقلت له : أنا أذهب وأحرث لك واجلس أنت تسمع أصحابنا ، فإذا رجعت قرأت عليك ما فاتني به أصحابي ، قال : إلي المحراث ، فذهبت به فحرثت فلما رجعت أدخلت البقر الدار . قال : فقرب إلى سحنون غداء ، فإذا هو خبز شعير وزيت قديم ، فأكلت معه ثم قرأت عليه ما فاتني »[٤] كانت هذه أهم معالم وسمات شخصية حياة سحنون .

* * *

---

(١) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٠٢ .
(٢) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٠٢ .
(٣) الدباغ : المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٥ .
(٤) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٩٥—٢٦٠ .

الفصل الرابع

مشـــايخ سحنـــون

مشايخ سحنون

ولا يتم الكلام عن سحنون ودوره في تاريخ العلم في إفريقية إلا بالكلام عن شيوخه ومدرسته التي أخذ منها علمه ، فأما شيوخه فسنتحدث عنهم بعد قليل ، وأما مدرسته فهى المدينة المنورة « دار الهجرة » وفيها عاش وعمل وألقى دروسه الإمام مالك بن أنس ، فهي مهد أو معقل المذهب المالكي لأنها كانت بمثابة مصدر النور الساطع الذي أضاء قلوب المسلمين في أرجاء العالم الإسلامي[1] ، وفيها ولد الإمام الجليل مالك بن أنس ، وفيها خرج تلاميذه ليبثوا بناء هذا المذهب الجديد للأمة الإسلامية ، ولهذا يعرف باسم إمام دار الهجرة .

وإذا تكلمنا عن الإمام مالك صاحب الموطأ « السهل الواضح » نستطيع أن نكتب عنه وعن فضائله الكثير ، وهذا يرجع إلى ما تميز به مالك من علم ودين وفضل وورع وتقوى وإيمان ، وذلك لأن سحنون اجتهد بالتشبه به في أكثر خصائصه شأنه في ذلك شأن كبار فقهاء المالكية .

ونستطيع أن نوجز كلامنا عن الإمام مالك بن أنس في عدة سطور قليلة ، فنتحدث فيها عن نشأته وعلمه وحرصه على نشر مذهبه ، وأشهر تلاميذه في المدينة والعالم الإسلامي ، وما قيل عنه من فضائل .

والإمام مالك بن أنس هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن عوف من ولد يعرب بن قحطان[2] من أهل اليمن ، لأنه الأصبح وهى قبيلة يمنية معروفة ولهذا يكنى بأبي عبد الله الأصبحي[3] الحميري المدني ،

---

(١) أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٢٠ .

(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٣٦ .

(٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر جـ ٢ ص ١٥ .

وفي يعرف بنافع، سمع من الزهري[١] وأخذ الرأي من ربيعة بن عبدالرحمن[٢].

اختلف المؤرخون والرواة وأصحاب السير حول سنة ميلاد الإمام مالك ، فقال يحيى بن بكير[٣] : ولد عام ٩٣ هـ ، وقال عكاف بن خالد : ولد عام ٩١ هـ ، بينما قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم[٤] : عام ٩٤ هـ أي في سنة ميلاد الليث بن سعد ، ولكن الرأي المتفق عليه بين الرواة أنه عام ٩٥ هـ[٥] ، ولكن الثابت أنه ولد عام ٩٣ هـ .

لقب الإمام مالك بعدة ألقاب منها شيخ الأئمة[٦] ، وإمام دار الهجرة[٧] ، وعالم المدينة ، وفقيه المدينة ، وشيخ الأمة[٨] . وقد اشتهر مذهبه في الأمصار وانتشر أمره في سائر الأقطار وارتحل الناس إليه من كل مصر وأتوه من كل قطر ، فجلس مالك لتدريس العلم وهو ابن سبعة عشر عاماً ، وشهد له التابعون ورجال العلم بالفقه والحديث .

والذين رووا عنه الموطأ إلى جانب مسائل الرأي والحديث قد بلغوا أكثر من ألف[٩] رجل ، وكان مالك يقول لطلابه : ليس العلم بكثرة الرواية ، وإنما هو « نور يضعه الله في القلب »[١٠] .

---

(١) هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب المدني رأى عشرة من الصحابة ، كان فقيهاً فاضلاً وهو أحفظ زمانه وأحسنهم سياقاً لمتون الأخبار ، مات سنة ١٢٤ هـ .

الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٠٨ ، العبر جـ ١ ص ١٥٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٥١ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ ٩ ص ٤٤٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٩٤ ، الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ص ٣٠٦ ، الشيرازي : طبقات الفقهاء ص ٦٣ .

(٢) ربيعة بن أبي عبد الرحمن واسمه فروخ مولى آل المنكدر ، ثقة ، أحد مفتي المدينة ، كان يجلس إليه وجوه الناس ، كان حافظاً للفقه والسنة والحديث ، مات سنة ١٣٦ هـ بالمدينة وقيل بالأنبار .

(٣) أمين الخولي : مالك بن أنس ص ١٦١ .

(٤) محمد أبو زهرة : مالك ص ٣٤٦ .

(٥) اليافعي : مرآة الجنان جـ ١ ص ٣٧٣ .

(٦) أمين الخولي : المرجع السابق ص ٢٨٠ .

(٧) السيوطي : تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك ٧ .

(٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٨٤ .

(٩) الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٠٧ .

(١٠) السيوطي : المصدر السابق ٧ .

وكان أشهر تلاميذه عبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن مهدي ومحمد بن إدريس الشافعي ويحيى بن يحيى الليثي وعبد الملك بن الماجشون ويحيى بن معين وأسد بن الفرات ومحمد بن عبد الله ابن عبد الحكم وسعد بن الليث وأحمد بن حنبل وغيرهم .

توفي الإمام مالك بن أنس في ربيع الأول سنة ١٧٩ هـ بالمدينة في خلافة هارون الرشيد[١] حيث اجتمعت فيه صفات لم تجتمع في إمام غيره ، ويمكن أن نوجزها في عدة عناصر بسيطة وهي علو الرواية والذهن الثاقب[٢] والفهم وسعة العلم[٣] ، واتفاق الأئمة على أنه صحيح الرواية وتقدمه في الفقه والفتوى وصحة قواعده ، ومن أشهر تلاميذ الإمام مالك في المدينة والذين أخذ عنهم سحنون ، عبد الله بن نافع مولى بني مخزوم وكان يعرف بالصائغ[٤] ، وهو من كبار أصحاب مالك ، وقال عبد الله عن نفسه « صحبت مالكاً أربعين سنة ، ما كتبت منه شيئاً وإنما كان حفظاً أتحفظه »[٥] .

سمع من عبد الله بن نافع الكثير من الفقهاء والعلماء مثل سحنون بن سعيد وكبار أتباع أصحاب مالك ، وله شرح للموطأ رواه يحيى بن يحيى الليثي . قال أشهب : ما حضرت لمالك مجلساً إلا وابن نافع ، وما سمعت سماعاً إلا وقد سمع ، لكنه كان لا يكتب[٦] . قال ابن وضاح : كان أفضل أصحاب مالك في العبادة المصريين والإسكندرانيين ، وكان ابن نافع رجلاً صالحاً ، لكن هؤلاء فوقه . قال سحنون : كان ابن نافع رجلاً صالحاً ، وكان ضيق الخلق ، وكان أبوه صائغاً وكان أولاً في حداثته منحرفاً ، فبينما هو في حائط من حيطان المدينة إذ سمع رجلاً يقرأ القرآن ، قال : هذا يتلو كتاب الله

---

(١) القضاعي : عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف ورقة ٥٧ . محفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٧٧٩ تاريخ .
(٢) الإشبيلي : الفهرسة جـ ١ ص ٧٧ .
(٣) محمد أبو زهرة : مالك ص ٤١٠ .
(٤) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٣١ .
(٥) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ١ ص ٣٥٧ .
(٦) محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية ص ٥٥ .

وأنا مشغول في هذا الحائط فرجع ولزم المسجد[١] . وكان ابن نافع أصم أمياً لا يكتب ، ضعيف الحديث ، توفى في المدينة سنة ١٨٦ هـ[٢] .

ومن كبار معلمي سحنون في المدينة عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله ابن أبي سلمة[٣] الماجشون ، والماجشون كلمة فارسية بمعنى أحمر الوجه[٤] وقيل الورد ، ولكن الثابت أن الماجشون موضع بخراسان[٥] نسب إليه ، وكان عبد الملك فقيهاً فصيحاً ودارت عليه الفتوى في أيامه إلى موته وعلى أبيه قبله ، فهو فقيه ابن فقيه[٦] . كان عبد الملك مفتي أهل المدينة[٧] في زمانه ، وكان ضرير البصر[٨] ، ويقال إنه أصابه العمى في أواخر عمره ، وبيته بيت علم وحديث بالمدينة .

تفقه عبد الملك بأبيه وبمالك بن أنس ، وكان فصيحاً مفوهاً[٩] عليه دارت الفتيا في زمانه بالمدينة ، تفقه على يده سحنون ، وعبر عنه بقوله « هممت أن أرحل إليه وأعرض عليه هذه الكتب ، فما جاز منها أجزت ، وما رد رددت »[١٠] وأثنى عليه ابن حبيب كثيراً وكان يرفعه في الفهم على أكثر أصحاب مالك ، وله كُتب في الفقه مصنف[١١] عنه . كتب إليه الخليفة المأمون بولاية القضاء وكان قد عمى فامتنع من ذلك ، وقيل له لو خرجت إلى العراق وعالجت بصرك فإن بها من يعالجه ، ولكنه أبى ذلك .

وعن محنة القرآن الكريم فقد أرسل إليه سحنون يسأله في التشبيه والقرآن ، فكتب إليه عبد الملك يقول « من عبد الله بن الماجشون إلى

---

(١) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٥٧–٣٥٨ .
(٢) ابن فرحون : المصدر السابق ص ١٣١ .
(٣) ابن الأثير : اللباب في تهذيب الأنساب جـ ٣ ص ١٤١ .
(٤) ابن عبد البر : المصدر السابق ص ٥٧ .
(٥) ابن العماد : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٨ .
(٦) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٦٠ .
(٧) الذهبي : العبر في خبر من غبر جـ ١ ص ٣٦٣ .
(٨) اليافعي : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٣ .
(٩) ابن عبد البر : المصدر السابق ص ٥٧ .
(١٠) ابن فرحون : المصدر السابق ص ١٥٣ .
(١١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨١ .

سحنون بن سعيد ، سلام عليكم فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد وفقنا الله وإياكم لطاعته . سألتني عن مسائل ليست من شأن أهل العلم والعمل بها جهل ، فيكفيك من مضى من صدر هذه الأمة أنهم اتبعوا بإحسان ولم يخوضوا في شيء منها ، وقد خلص الدين إلى العذراء في خدرها فما قيل لها كيف ولا من أين ؟ فاتبع لما اتبعوا واعلم أنه العلم الأعظم الذي لا يشاء الرجل أن يتكلم في شيء من هذا ، فيكب فيهوى في نار جهنم »[١] .

وحول فضائل وزهد عبد الملك بن عبد العزيز الماجشون فقد قيل : كان عبد الملك يجيد تفسير الرؤيا ، وقال ابن عبد البر : كان عبد الملك مولعاً بالسماع ارتجالاً وغير ارتجال[٢] . وقال أحمد بن حنبل : قدم علينا ومعه من يغنيه . وقال ابن معين : قدم علينا عبد الملك ومعه من يغنيه فكنا نسمع صوت معازفه ، لهذا والله أعلم لم يخرج عنه في الصحيح[٣] .

وكانت وفاة عبد الملك سنة ٢١٢ هـ وقيل سنة ٢١١ هـ[٤] وهو ابن بضع وستين سنة .

ومن أكفأ وأبرع تلاميذ الإمام مالك بن أنس معن بن عيسى بن يحيى بن دينار القزاز المدني[٥] . روى عن مالك وهو الذي قام بقراءة الموطأ[٦] للخليفة هارون الرشيد وابنيه الأمين والمأمون وخلف مالك في الفقه ، وله سماع من مالك معروف ، وكان أشد الناس ملازمة لمالك[٧] ، وكان يتكيء عليه عند خروجه من البيت إلى المسجد حتى قيل له عصية مالك[٨] ، وهو أوثق أصحاب مالك وأثبتهم ، وكان كثير الحديث مأموناً ثبتاً .

---

(١) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٦٣ .
(٢) ابن عبد البر : المصدر السابق ص ٥٩ .
(٣) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٦٥ .
(٤) الذهبي : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ١٣٠ .
(٥) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٣٤٧ .
(٦) الذهبي : العبر في خبر من غبر جـ ١ ص ٣٢٧ .
(٧) الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٣٣٢ .
(٨) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٦٨ .

قال معن بن مالك : « كان مالك لا يجيب أحداً من العراقيين حتى أكون أنا الذي أسأله عنه »[١] . سمع معن بن عيسى من مالك أربعين ألف مسألة[٢] سمعها منه سحنون وأضاف بعضها في مدونته الكبرى ، مات سنة ١٩٨ هـ[٣] بالمدينة .

أما مكة فقد أنجبت في ذلك العصر عدداً كبيراً من الفقهاء والعلماء الذين لعبوا دوراً بارزاً في تقدم الفكر والحضارة الإسلامية ، نذكر منهم على سبيل المثال وكيع بن الجراح وسفيان بن عيينة . وكيع بن الجراح الرواسي[٤] ويكنى بأبي سفيان ، ولد سنة ١٢٩ هـ وهو أحد أئمة الأعلام ، ورواس بطن من قيس عيلان[٥] .

تفقه على يد مالك بن أنس والليث بن سعد وابن الماجشون وهشام بن عروة[٦] والأعمش ، وكان أبوه على بيت المال ، وأراد الرشيد[٧] أن يولي وكيعاً قضاء الكوفة فامتنع ، ولما مات سفيان جلس وكيع موضعه . وحول زهد وعبادة وكيع ، قال القعنبي : كنا عند حماد بن زيد فلما خرج وكيع قالوا : هذا راوية سفيان . فقال : هذا إن شئتم أرجح[٨] من سفيان . وكان وكيع يقول الزهد[٩] ولا يكون إلا في الحلال وطريق الله بضاعة لا يرتفع فيها إلا صادق ، وكان وكيع يصوم[١٠] الدهر ويختم القرآن في كل ليلة ، وكان إذا آذاه شخص يرفع التراب على رأسه ويقول : لولا ذنبي ما يسلط هذا علي ، ثم

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ٣٥٥ .
(٢) الخزرجي : المصدر السابق ص ٣٢٩ .
(٣) ابن العماد : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٥٥ .
(٤) النووي : تهذيب الأسماء جـ ٢ ص ١٤٤ ، ابن الأثير : اللباب جـ ١ ص ٤٧٨ ، ابن الخطيب : تاريخ بغداد جـ ١٣ ص ٤٦٦ .
(٥) الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٣٠٧ .
(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٥٣ ، الذهبي : العبر جـ ١ ص ٣٢٤ ، ميزان الاعتدال جـ ٤ ص ٣٣٥ ، حلية الأولياء جـ ٨ ص ٣٦٨ ، شذرات الذهب جـ ١ ص ٣٤٩ .
(٧) الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ص ٣٥٦ .
(٨) عبد الوهاب الشعراني : الطبقات جـ ١ ص ٦٩ .
(٩) الداودي : طبقات المفسرين جـ ٢ ص ٣٥٧ .
(١٠) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط جـ ٢ ص ٧٥٧ .

يكثر الاستغفار حتى يسكت ذلك المؤذي . قال ابن معين[1] : ما رأيت أفضل منه ، كان يستقبل القبلة ويحفظ حديثه ويقوم الليل ويسرد الصوم ، ويفتي بقول أبي حنيفة . وقال مروان بن محمد الطاطري[2] : ما رأيت أخشع من وكيع ، وما وصف لي أحد إلا ورأيته دون الصفة إلا وكيع فإني رأيته وفق ما وصف لي .

وقال أحمد بن حنبل[3] : ما رأت عيني مثل وكيع قط يحفظ الحديث ويذاكر بالفقه ، فيحسن مع ورع واجتهاد ولا يتكلم في أحد ، وكان وكيع يلحن ولو حدثت عنه بألفاظه لكانت عجباً يقول عن عيشة .

تتلمذ على يده كبار قضاة وفقهاء المسلمين آنذاك منهم يحيى بن يحيى الليثي وعبد الملك بن حبيب وعبد الرحمن بن زياد وأسد بن القرات والغزي[4] ابن قيس وعون بن جعفر وسحنون وغيرهم .

توفي وكيع بن الجراح عام ١٩٧ هـ[5] بعد أداء فريضة الحج وهو بالغ من العمر ثمانية وستين عاماً ، وقيل مات سنة ١٨٣ هـ وكان وكيع أعور ، وكان لا يؤمن بخلق القرآن[6] .

أما سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي مولى امرأة من بني هلال[7] بن عامر رهط ميمونة زوج النبي ﷺ ، فقد قيل من موالي بني هاشم ، وقيل من موالي الضحاك بن مزاحم ، وقيل من موالي مسعر بن كدام ، وأصله من الكوفة ، وقيل ولد بالكوفة ونقله أبوه إلى مكة . كان إماماً عالماً ثبتاً ، حجة زاهداً ورعاً مجمعاً على صحة حديثه وروايته ، وحج سبعين حجة ، ويكنى بأبي محمد الأعور أحد أئمة الإسلام .

---

(١) السيوطي : طبقات الحفاظ ص ١٢٧ .
(٢) الداودي : طبقات المفسرين جـ ٢ ص ٣٥٩ .
(٣) الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٣٠٨ .
(٤) خليفة بن خياط : المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٥٧ .
(٥) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ٣ ص ١٤١ .
(٦) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٤٣٨ .
(٧) ابن خلكان : المصدر السابق جـ ١ ص ٢١٠-٢١١ .

روى عن عمرو بن دينار والشافعي[1] والزهري ويحيى بن بكير وزيد بن أسلم وعبد الرحمن بن القاسم ، تفقه على يده الشافعي وابن معين وابن المديني وغيرهم .

وكان ابن عيينة إماماً حجة حافظاً واسع العلم كبير القدر[2] ، وكان أهل الحديث يقولون « ما في أصحاب الزهري أتقن من ابن عيينة »[3] . قال الشافعي عنه « لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز »[4] . وأضاف الشافعي قوله « وجدت أحاديث الأحكام كلها عند مالك سوى ثلاثين حديثاً وجدتها كلها عند ابن عيينة »[5] . وقال عبد الرحمن بن مهدي « كان ابن عيينة من أعلم الناس بحديث أهل الحجاز »[6] . قال الترمذي « سمعت البخاري يقول : سفيان بن عيينة أحفظ من حماد بن زيد »[7] وقال حرملة « سمعت الشافعي يقول : ما رأيت أحداً فيه آلة العلم ما في سفيان ، وما رأيت أحداً أكف عن الفتيا منه ، وما رأيت أحداً أحسن لتفسير الحديث منه »[8] وقال ابن وهب « لا أعلم أحداً أعلم بالتفسير منه »[9] قال الإمام أحمد « ما رأيت أعلم بالسنن منه »[10] وقال العجلي « كان ابن عيينة ثبتاً في الحديث،وحديثه نحو سبعة آلاف ولم يكن له كتب »[11] وأضاف ابن مهدي

---

(١) هو عمرو بن دينار المكي وكنيته أبو محمد الجمحي أحد الأعلام ، كان فقيهاً عالماً ، مات سنة ١٢٥ هـ وهو ابن ثمانين سنة .

الشيرازي : طبقات الفقهاء ص ٧٠ ، الذهبي : العبر ج ١ ص ١٦٣ ، تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١١٣ ، النووي : تهذيب الأسماء جـ ٢ ص ٢٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ١٧١ ، ابن قتيبة : المعارف ص ٤٦٨ .

(٢) الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٦٣ .

(٣) السيوطي : طبقات الحفاظ مخطوطة ورقة ٣٢ .

(٤) الذهبي : العبر جـ ١ ص ٣٢٦-٣٢٧ .

(٥) الداودي : المصدر السابق جـ ١ ص ١٩١ .

(٦) الجزري : طبقات القراء جـ ١ ص ٣٠٩ .

(٧) الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٦٥ .

(٨) ابن العماد : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٥٤ .

(٩) ابن النديم : الفهرست ص ٢٢٧ .

(١٠) الذهبي : ميزان الاعتدال جـ ٢ ص ١٧١ .

(١١) ابن الخطيب : تاريخ بغداد جـ ٩ ص ١٥٩ .

« عند سفيان بن عيينة من المعرفة بالقرآن وتفسير الحديث ما لم يكن عند الثوري »[١] وقد اتهمه بعض المحدثين بالتدليس وخاصة السيوطي[٢] ، مات ابن عيينة سنة ١٩٨ هـ .

والآن قد فرغنا من الكلام عن شيوخ سحنون في المدينة ومكة وهم شيوخ المذهب المالكي ، سنتحدث عن شيوخ سحنون في مصر . فبعد أن سمع سحنون من شيوخ المدينة ومكة انتقل إلى مصر وأخذ من أعلام فقهاء المالكية الذين سنتحدث عنهم ، ومن المعروف أن مصر جذبت إليها في القرون الإسلامية عدداً كبيراً من علماء المسلمين بوجه عام ، ومن علماء المغرب والأندلس بوجه خاص . كما أن مسلمي المغرب[٣] والأندلس كانت تتطلع نفوسهم وأرواحهم دائماً إلى المشرق منبت الدعوة الإسلامية وموطن العلم الإسلامي .

وقد أخرجت مصر عدداً كبيراً من رجال الفقه والحديث والعلم كان لهم دور يذكر في تطور الفكر والحضارة الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني الهجريين ، فقد نبغ فيها عدد من الفقهاء والقضاة تفقهوا وأخذوا العلم من إمام دار الهجرة مالك بن أنس ، نذكر على سبيل المثال عبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن وهب وأشهب بن عبد العزيز وأصبغ بن الفرج ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم .

وبفضل هؤلاء الرجال انتشر هذا المذهب في مصر وغرب الدولة الإسلامية حيث تتلمذ على أيديهم كبار رجال الفقه في المغرب والمشرق ، نذكر منهم عبد الملك بن حبيب وعيسى بن دينار ويحيى بن يحيى الليثي من أهل الأندلس ، وعبد الله بن غانم وأسد بن الفرات وعلى بن زياد التونسي والبهلول بن راشد ، وغيرهم وهم الذين أدخلوا المذهب المالكي في إفريقية والمغرب ، ومنهم أيضاً الشخصية التي هى موضوع البحث ، فقد شب سحنون في بيئة مالكية ، وكان لابد له من أن يلتقي بمالك بن أنس أو بنفر من

---

(١) الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ص ١٢٤ .

(٢) السيوطي : أسماء المدلسين ورقة ٣ . مخطوطة بمعهد المخطوطات العربية .

(٣) أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ص ١١٩ .

كبار تلاميذه الذين تولوا مشيخة المذهب المالكي في الحجاز ومصر ، ولم يكن له الحظ في أخذ العلم من الإمام مالك نفسه ، ولكن عوضه الله عنه بأكابر تلاميذه حيث أعطوه كل ما عندهم من علم ، وما أخذوه من الإمام من تقوى وفضل وورع وعلم وثقة .

نبدأ بالتحدث عن أول شخصية فقهية من هؤلاء كان لها دور كبير في حياة سحنون الفقهية والعلمية وهي شخصية عبد الرحمن بن القاسم بن خالد ابن جنادة العتقي[1] يكنى بأبي عبد الله وهو مولى زبيد بن الحارث العتقي[2] ، وقيل منسوب إلى العبيد الذين نزحوا إلى الطائف وأعتقهم[3] النبي ﷺ .

تتلمذ على يد الإمام مالك بن أنس الذي اعتنى به كل العناية حتى أصبح الرجل الأول للمذهب المالكي بعد صاحبه ، كذلك تتلمذ أيضاً على يد الليث ابن سعد الفهمي وعبد العزيز بن الماجشون ومسلم بن خالد الزنجي[4] . وكان مالك بن أنس يلقبه بلقب الفقيه ، وقال عنه النسائي « ابن القاسم ثقة ، رجل صالح سبحان الله ما أحسن حديثه وأصحه عن مالك ، ليس يختلف في

---

(١) اختلف المؤرخون وكتاب السير حول العتقاء ، وذلك أن العتقاء جماع فيهم من حجر حمير ومن سعد العشيرة ومن كنانة مصر وغيرهم ، قال ابن وضاح : وأصله يرجع إلى الشام من فلسطين من مدينة الرملة ، سكن مصر . قال الدارقطني : وله بمصر مسجد يعرف بمسجد العتقي .

ابن الأثير : اللباب جـ ٢ ص ٣٢١ ، القاضي عياض : المصدر السابق ج ١ ص ٤٣٣ ، القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص ١٤٥ ، ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٦١ .

(٢) الذهبي : دول الإسلام جـ ١ ص ١٢١ .

(٣) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٦٢ .

(٤) هو مسلم بن خالد بن فروة وكنيته أبو خالد المكي المعروف بالزنجي لشدة بياضه ، روى وتفقه عن الزهري وابن جريج وهشام بن عروة ، أخذ عنه الشافعي وعبد الله بن وهب ، قيل عنه منكر الحديث ، قال عنه ابن حبان : كان من فقهاء أهل الحجاز ومنه تعلم الشافعي الفقه وكان يجالسه قبل أن يلقى مالكاً من أنس ، مات سنة ١٧٩ هـ وقيل ١٨٠ هـ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٠١ ، ابن الجزري : طبقات القراء جـ ٢ ص ٢٩٧ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٥ ص ٣٦٦ ، الشيرازي : طبقات الفقهاء ص ٧١ ، الذهبي : ميزان الاعتدال جـ ٤ ص ١٠٢ ، العبر جـ ١ ص ٢٧٧ ، ابن الأثير : اللباب جـ ١ ص ٥٠٩ ، الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ص ٣٢١ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ٢٩٤ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ ١ ص ١٢٨ ، طبقات الحفاظ ص ١٠٩ .

كلمته ، ولم يرو أحد الموطأ عن مالك أثبت من ابن القاسم ، وليس أحد من أصحاب مالك عندي مثله »[١] قيل : فأشهب ؟ قال : لا أشهب ولا غيره ، وهو عجب من العجب في الفضل[٢] والزهد وصحة الرواية وحسن الحديث وهو من أعيان[٣] أصحاب مالك وأفضلهم .

لازم عبد الرحمن بن القاسم مالك بن أنس مدة تتراوح ما بين عشرين وخمسة وعشرين[٤] عاماً ، نقل عنه كل ما رواه من حديث وتفسير وأخذ عنه الفقه ، وكان عبد الرحمن بن القاسم يقول « إنما أقتدي في ديني برجلين : مالك بن أنس في علمه وسليمان بن القاسم في ورعه[٥] . وقال عنه الفقيه يحيى ابن يحيى الليثي « كان ابن القاسم أعلمهم بعلم مالك وآمنهم عليه »[٦] بينما ذكر ابن الحارث عنه « أنه هو أقعد الناس بمذهب مالك »[٧] وكان معظم شيوخ الفقه يفضلون ابن القاسم على جميع أصحابه في علم البيوع[٨] .

نصح إمام دار الهجرة تلميذه البارع ورفيق علمه بنصيحة عمل بها طوال سنوات عمره وحياته ، وهي التقوى والعمل بكل ما عنده من جهد وطاقة على نشر[٩] هذا العلم ، وكان ابن القاسم أميناً في تحقيق هذه الرغبة لأستاذه وفاءً وتقديراً للمعلم ، فلم يبخل ابن القاسم بعلمه على أي طالب علم دون مقابل .

سئل أشهب عن ابن القاسم وابن وهب ، فقال عنهما « لو قطعت رجل ابن القاسم لكانت أفقه من ابن وهب »[١٠] وهذه عبارة شديدة اللهجة فيها

(١) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٣٤ ، السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة جـ ١ ص ٣٠٣ .
(٢) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٢١ .
(٣) الشيرازي : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٢١ .
(٤) ابن حزم : جوامع السيرة ص ٣٣٣ .
(٥) السيوطي : تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك ص ١٨ .
(٦) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨١ .
(٧) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ٣٢٩ .
(٨) ابن عبد البر : المصدر السابق ص ٥٠ .
(٩) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٤٧ .
(١٠) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٣٤ .

قسوة وترجع شدتها إلى ما كان بين الرجلين من تنافس وتباعد . وقال ابن عبد البر « كان قد غلب عليه الرأي ، وكان رجلاً صالحاً مقلاً وروايته في الموطأ صحيحة قليلة الخطأ ، وكان فيما رواه عن مالك متقناً حسن الضبط »[١] وقال أبو زرعة « هو ثقة رجل صالح ، كان عنده ثلاثمائة جلد عن مالك من المسائل أو نحوها »[٢] . وقال النسائي « ومن فقهاء الأمصار بمصر عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز »[٣] . وقال فقيه الأندلس يحيى بن يحيى الليثي « كان ابن القاسم أحدث أصحاب مالك بمصر منا ، وأحدثهم طلباً وأعلمهم بعلم مالك وآمنهم عليه »[٤] . وقال الفقيه الحارث بن مسكين « كان في ابن القاسم الزهد والعلم والسخاء والشجاعة والإجابة »[٥] ثم قال إمام المدينة « مثله كمثل جراب مملوء مسكاً »[٦] .

وأثناء قيام سحنون برحلته إلى المشرق مر بمصر وهناك اتصل بابن القاسم الذي منحه كل ما عنده من علم وفقه ، وبهذا العلم الذي أخذه عن أبي القاسم أقام مدونته الكبرى وهي من أمهات[٧] كتب الفقه المالكي ، وفوق ذلك عرض عبد الرحمن بن القاسم على سحنون العمل والبقاء بمصر معلماً ولكن سحنون فضل العودة لإفريقية ، وحقاً كان ابن القاسم هو المصدر الأول للفقه المالكي عند سحنون وجيله .

توفي عبد الرحمن بن القاسم بمصر في صفر عام ١٩١ هـ وهو ابن ثلاث وستين عاماً[٨] ، ومولده كان سنة ١٣٢ هـ وقيل عام ١٢٨ هـ .

والشخصية الثانية التي أثرت في تكوين حياة سحنون العلمية والفقهية

---

(١) محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية ص ٥٨ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٣٥ .
(٣) الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ٢ ص ٤١٨ .
(٤) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٣٥ .
(٥) ابن فرحون : المصدر السابق ص ١٤٨ .
(٦) الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ص ١٩٧ .
(٧) محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية ص ٥٩ .
(٨) الذهبي : المصدر السابق جـ ١ ص ١٢١ .

هي شخصية عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي مولاهم مولى يزيد بن ريحانة[١] ، ويقال مولى بني فهر ، ويمكن أن نطلق عليه ابن وهب الأنصاري أو ابن وهب القرشي ، وكان جده مسلماً بربرياً[٢] .

تتلمذ عبد الله بن وهب على يد مالك بن أنس والليث بن سعد وابن أبي ذوئب ويونس بن يزيد[٣] والسفيانين وعبد الملك بن جريج وعبد العزيز بن الماجشون ويحيى بن أيوب[٤] ، ونحو أربعمائة شيخ من المصريين والحجازيين والعراقيين ، وقد قال عنه حرملة « سمعت ابن وهب يقول : لقيت ثلاثمائة عالم وستين عالماً ، ولولا مالك والليث لضللت في العلم »[٥] أخذ العلم وهو ابن ستة عشر عاماً .

صحب عبد الله بن وهب مالك بن أنس عشرين عاماً[٦] ، وقيل لم يكتب مالك بالفقه لأحد إلا لابن وهب . وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل « ابن وهب عالم ، صالح ، فقيه ، كثير الحديث ، صحيح الحديث ، ثقة ، صدوق ، يفضل السماع من العرض والحديث من الحديث ما أصح حديثه »[٧]. وقال القاضي الزهدي « كان أصحاب مالك بالمدينة يختلفون في قول مالك بعد موته

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٠٢ .

(٢) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٤٢١ .

(٣) يونس بن يزيد الأيلي وكنيته أبو يزيد الرقاشي روى عنه ابن وهب والليث بن سعد والأوزاعي ، مات سنة ١٥٩ هـ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢٠ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ٢٣٣ ، الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ص ٣٨٠ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ ١١ ص ٤٥٠ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٦٢ ، العبر جـ ١ ص ٢١٨ ، ميزان الاعتدال جـ ٤ ص ٤٨٤ ، السيوطي : طبقات الحفاظ ص ٧١ .

(٤) يحيى بن أيوب المصري وكنيته أبو العباس الغافقي ، روى عن أبي حنيفة ومالك ويزيد بن أبي حبيب ، تفقه على يده الليث بن سعد وابن جريج ، قيل عنه سيء الحديث .
الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٢٧ ، العبر جـ ١ ص ٢٠٤ ، السيوطي : طبقات الحفاظ ص ٩٦ .

(٥) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٢١ .

(٦) اليافعي : المصدر السابق جـ ١ ص ٤٥٨ .

(٧) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٢٢ .

فينتظرون قدوم ابن وهب ، فيصدرون من رأيه »[١] وقال ابن وضاح « كان أهل الحجاز يحتاجون إلى ابن وهب في علم الحجاز ، وأهل العراق يحتاجون إليه في علم العراق ، وكان عنده علم كثير »[٢] قال محمد بن عبد الحكم وابن بكير « كان ابن وهب أفقه من ابن القاسم إلا أنه كان يمنعه الورع من الفتيا »[٣] وقال حرملة عنه « كنا نسمي ابن وهب ديوان العلم » .

وكان أكثر المحدثين والرواة عنه أصبغ بن الفرج وأحمد بن صالح وسحنون الذي أخذ علم الحديث[٤] والسنن والآثار ، ونزل في ضيافته أثناء رحلته إلى المشرق حيث قدم له العون من الكتب التي ألفها ، ومنها سماع مالك ثلاثون كتاباً[٥] وموطؤه الكبير وكتاب الأموال وكتاب البيعة وكتاب المناسك وكتاب المغازي وكتاب الردة ، وكلها مؤلفات عظيمة المنفعة ساعدت على نشر هذا المذهب .

جمع ابن وهب بين صفتين : صفة المحدث وصفة الفقيه ، فقال عنه يوسف بن عدي « أدركت الناس فقيهاً غير محدث ، ومحدثاً غير فقيه خلا عبد الله بن وهب ، فإني رأيته فقيهاً محدثاً زاهداً صاحب سنة وآثار »[٦] وقال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم « هو أثبت الناس في مالك ، وهو أفقه من ابن القاسم إلا أنه كان يمنعه الورع من الفتيا »[٧] وقد أعجب الأصبغ كل الإعجاب بابن وهب فقال عنه « هو أعلم أصحاب مالك بالسنن والآثار إلا أنه روى الضعفاء »[٨] .

وحول عبادة وزهد ابن وهب ، قال سحنون عنه « كان ابن وهب قد

---

(١) الكندي : فضائل مصر ص ٤٠ .
(٢) الكندي : المصدر السابق ص ٤٠ .
(٣) الذهبي : ميزان الاعتدال في نقد الرجال جـ ٢ ص ٥٢٢.
(٤) محمد بن محمد مخلوف : المرجع السابق ص ٥٩ .
(٥) السيوطي : المخطوطة السابقة ورقة ٣٨ .
(٦) الذهبي : المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٢٣ .
(٧) العبدري : رحلة العبدري ص ١٠١ .
(٨) العبدري : المصدر السابق ص ١٠١ .

قسم دهره أثلاثاً ، ثلثا في الرباط وثلثا يعلم الناس بمصر وثلثا في الحج »[١] وذكر أنه حج ستاً وثلاثين حجة ، وكان ابن وهب صالحاً خائفاً لله .

وعبد الله بن وهب يفوق بتصنيفه جماعة من الفقهاء والمصنفين يقع في نحو مائة جزء[٢] ، وكان الإمام مالك يلقبه بلقب عالم[٣] . ولد ابن وهب في ذي القعدة سنة ١٢٥ هـ وقيل عام ١٢٤ هـ ، ومات في شعبان ١٩٧ هـ[٤] وكان له ابن اسمه حميد .

والشخصية الثالثة هي شخصية أشهب بن عبد العزيز بن داود بن إبراهيم وكنيته أبو عمر القيسي[٥] المعافري[٦] الجعدي ، من ولد جعدة بن كلاب بن ربيعة بن عامر ، غلب عليه اسم مسكين وهو من أهل مصر ، وأشهب لقب منحه إياه الإمام مالك ، تفقه بمالك والليث بن سعد والفضل بن عياض . قال الشيرازي[٧] : تفقه بمالك والمدنيين .

سمع منه عدد كبير من الفقهاء والعلماء منهم الحارث بن مسكين[٨] ، سحنون وأسد بن الفرات وغيرهم ، فقد حكى سحنون وأسد عن أشهب ، علمه ، فقال سحنون[٩] : قال لي ابن القاسم إن كنت مبتغياً هذا العلم بعدي

---

(١) ابن خلكان : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤١ .

(٢) ابن عبد البر : المصدر السابق ص ٤٨-٤٩ .

(٣) ابن خلكان : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢١٦ .

(٤) ابن عبد البر : المصدر السابق ص ٥١ .

(٥) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٤٧ .

(٦) ابن فرحون : المصدر السابق ص ٩٩ .

(٧) الشيرازي : طبقات الفقهاء ص ١٢٦ .

(٨) الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف الأموي وكنيته أبو عمر المصري قاضي مصر ، ثقة في الحديث ثبتاً ، حبسه المأمون إذا لم يجب إلى القول بخلق القرآن ، ولد سنة ١٥٤ هـ ، ومات سنة ٢٥٠ هـ .

ابن الخطيب : تاريخ بغداد جـ ٨ ص ٢١٦ ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢ ص ١١٣ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٣٣١ ، السيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٠٨ .

(٩) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٤٧ .

فابتغه عند أشهب . وقال أسد : أتيت ابن القاسم فقال لي : أنا مشغول بنفسي وجعلت الآخرة أمامي ، ولكن عليك، فأتيته فقال : إنما أنا صاحب آثار ولكن إيت أشهب .

أظهر أشهب براعة فائقة في علم الخراج ، ولم يعاصر الإمام الشافعي من أصحاب مالك بمصر سوى أشهب حتى قال عنه « ما رأيت أفقه من أشهب » « وما نظرت أحداً من المصريين مثله لولا طيش فيه »[١] .

كان أشهب فقيهاً ، نبيهاً ، حسن النظر من المالكيين المحققين[٢] . وكان كاتب خراج مصر وكان ثقة فيما روى عن مالك .

سئل سحنون عن ابن القاسم وأشهب أيهما أفقه ، فقال « كانا كفرسي رهان ربما وفق هذا ، وخذل هذا ، وربما خذل هذا ووفق هذا »[٣] وقال سحنون : أيضاً حدثني المتحري في سماعه ، وقال « رحم الله أشهب ما كان أصدقه وأخوفه لله تعالى ، ما كان يزيد حرفاً واحداً » وقال أيضاً سحنون « ما كان أحد يناظر أشهب إلا اضطره بالحجة حتى يرجع إلى قوله ، ولقد كان يأتينا في حلقة ابن القاسم فيتكلم في أصول العلم ، ويفسر ويحتج ، وابن القاسم ساكت ما يرد عليه حرفاً »[٤] وكان أشهب مهيباً ، وكان أزرق العينين فإذا كلمه إنسان في مسألة يرفع عينيه إليه إذا تعذرت المسألة .

نلاحظ ما قاله سحنون عن أشهب : إنه تأثر كل التأثر بشخصية أشهب فأخذ منه الورع والزهد[٥] ، لم تقصر المنافسة العلمية بين أشهب وابن القاسم (أصحاب مالك) بل دخل فيها الشافعي ، فقد قيل كان الشافعي وأشهب يتصاحبان بمصر ويتذاكران الفقه[٦] وكان ما بينهما متقارباً . بينما ذكر ابن

---

(١) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٤٨ .
(٢) د. حسين مؤنس : شيوخ العصر في الأندلس ٩ .
(٣) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٢ ص ٤٤٨ .
(٤) ابن عبد البر : المصدر السابق ص ٦٨ .
(٥) د. حسين مؤنس : شيوخ العصر في الأندلس ٩ .
(٦) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٥٢ .

عبد الحكم عن موقف أشهب من تركته عبداً ، ثم مات أشهب فاشتريت أنا ذلك العبد من تركته .

ألف أشهب عدة كتب رواها تلميذه سعيد بن حسان وغيره نذكر منها فضائل عمر بن عبد العزيز ، وكتاب اختلاف في القسامة والمدونة[١] .

ولد أشهب سنة ١٤٠ هـ وقيل عام ١٥٠ هـ وتوفي عام ٢٠٤ هـ أي بعد وفاة الشافعي بثمانية عشر عاماً ، وقيل بشهر ، وقبره مجاور لقبر ابن القاسم[٢] .

والشخصية الرابعة وهي أصبغ بن الفرج بن سعيد بن نافع[٣] مولى عبد العزيز بن مروان ، ويكنى بأبي عبد الله ، سكن الفسطاط ، رحل هذا الفقيه إلى المدينة ليسمع من مالك بن أنس ، فدخلها يوم مماته[٤] فرجع إلى مصر فأخذ من ابن القاسم وابن وهب وأشهب .

روى عنه البخاري والذهلي ويعقوب بن سفيان والخشني وابن وضاح وسعيد بن حسان ، كان أصبغ بن الفرج فقيه البلد ماهراً[٥] في فقهه طويل اللسان ، حسن القياس نظاراً ، من أفقه هذه الطبقة . وهو أجلى أصحاب ابن وهب ، صدوق ، ثقة ، كان كاتب ابن وهب وأخص الناس به . قال عبد الملك بن الماجشون فيه « ما أخرجت مصر مثل أصبغ »[٦] وأضاف الفقيه يحيى بن معين « كان أصبغ من أعلم خلق الله كلهم برأي مالك يعرفها مسألة مسألة متى قالها ، ومن خالفه فيها »[٧] .

ومن أهم مؤلفات أصبغ بن الفرج : الأصول في عشرة أجزاء[٨] ،

---

(١) اليافعي : مرآة الجنان جـ ٢ ص ٢٨ .
(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٩٩ .
(٣) الذهبي : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٣ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢١٧ .
(٥) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٢ ص ٥٦ .
(٦) الذهبي : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٤ .
(٧) اليافعي : المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٦ .
(٨) الذهبي : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٩٣ .

وكتاب تفسير غريب الموطأ ، وكتاب آداب ، وكتاب أدب الصائم ، وكتاب أدب القضاء ، وكتاب الرد على الأهواء ، وكتب سماعه في ابن القاسم .

تعرض أصبغ إلى محنة خلق القرآن ، فقد قيل إن الأصبغ اختفى عند الأصم في داره ومات فيه ، وقيل أيضاً إن المعتصم طلبه للامتحان فهرب إلى حلوان ، ومات هناك ، توفى أصبغ بن الفرح في سنة ٢٢٥ هـ[1] وقيل سنة ٢٢٤ هـ[2] .

أما الشخصية الخامسة فهى عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن الليث مولى عميرة[3] امرأة من موالي عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقيل موالي رافع[4] مولى عثمان ويكنى بأبي محمد .

سمع وتفقه من مالك بن أنس والليث بن سعد وابن عبد الرزاق وابن لهيعة والقعنبي[5] وابن علية وإسماعيل بن أبي عياش وهارون بن إسحاق والعطاف بن خالد وسفيان بن عيينة .

وكان عبد الله بن عبد الحكم رجلاً صالحاً ، ثقة ، متحققاً بمذهب مالك ، فقيهاً ، صدوقاً ، عاقلاً ، حليماً ، وكان من ذوى الأموال[6] ، وإليه أفضت الرياسة بمصر بعد أشهب ، وكان أعلم أصحاب مالك بمختلف قوله ، ولابن عبد الحكم سماع من مالك الموطأ ونحو ثلاثة[7] أجزاء ، روى عن ابن وهب وابن القاسم وأشهب كثيراً ، وصنف كتاباً اختصر فيه أسمعته ثم اختصر منه كتاباً صغيراً ، وعلى هذين الكتابين مع غيرهما معول المالكيين من البغداديين في المدارسة وإياهما شرح أبو بكر الأبهري وغيرهما .

---

(١) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٦٥ .
(٢) العبدري : المصدر السابق ص ١٥٢ .
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٣٩ .
(٤) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٧-١٨ .
(٥) السيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٠٥ .
(٦) الشيرازي : المصدر السابق ص ١٢٨ .
(٧) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٢٥ .

أخذ ودرس سحنون منه أكثر مؤلفاته ، وقد بلغ من الجاه والتقدم ما لم يبلغه أحد من تلاميذ مالك . كان ابن عبد الحكم صديقاً[١] للإمام الشافعي ويقيم عنده عند مجيئه إلى بغداد ، وكان يسير على نمط حياة الخليفة عمر بن عبد العزيز[٢] .

كانت هناك بين عبد الله بن عبدالحكم وأصبغ منازعة ومباعدة حتى كاد يرمي كل واحد منهما بالبهتان[٣] . ومن أشهر مؤلفات ومصنفات عبد الله بن عبد الحكم (المختصر الكبير)[٤] واختصار كتب أشهب ، والمختصر الأوسط ، والمختصر الأصغر قصره على الموطأ ، والمختصر الأوسط صنفان فالذي في رواية القراطيسي فيه زيادة الآثار ، خلاف الذي في رواية محمد ابنه وسعيد بن حسان وله أيضاً كتاب الأهوال وكتاب القضاء في البنيان ، وكتاب فضائل عمر بن عبد العزيز وكتاب المناسك .

وقد اعتنى الناس بمختصري[٥] ابن عبد الحكم ما لم يعتن بكتاب آخر من كتب مذهب مالك بعد الموطأ والمدونة الكبرى ، فقام الشيخ أبو بكر الأبهري بشرح المختصر الكبير وعليه تعليق لأبي جعفر بن الجصاص نحو مائتي جزء ، وأيضاً شرح أبو بكر الأبهري المختصر الصغير وعليه شرح وتعليق من ابن الجهم .

قال أبو العرب التميمي في كتاب المحن عنه « إنه امتحن في القرآن على يد الأصم ، وضرب بالسياط في مسجد مصر أقل من ثلاثين سوطاً أيام المأمون[٦] ، وابن أبي دواد على قضاء مصر .

وقال الكندي[٧] : وكان القاضي عيسى بن المنكدر قد كتب إلى المأمون

---

(١) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ص ١٧ .
(٢) السيوطي : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٠٥ .
(٣) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٣٥ .
(٤) ابن عبد البر : المصدر السابق ص ٥٣ .
(٥) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٥٣٧ .
(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢١١ .
(٧) الكندي : الولاة والقضاة ص ١٨٤–١٨٥ .

كتاباً في شأن المعتصم أخيه لما ولاه مصر ، فعرضه المأمون على المعتصم ، فلما ورد المعتصم مصر ، عزل ابن المنكدر وسجنه إلى أن مات في سجنه ببغداد ، وسجن عبد الله بن عبد الحكم بالتهمة في هذا الكتاب.

ولد ابن عبد الحكم عام ١٥٥ هـ[1] وقيل ١٥٦ هـ ، ومات سنة ٢١٤ هـ وقيل عام ١٩١ هـ وهو ابن ستين عاماً .

وبعد أن انتهينا من الكلام على كبار مشايخ سحنون في مصر وما كان لهم من دور في تكوين وثقل سحنون بالعلم والفقه المالكي ، نتجه إلى إفريقية ، وهي موطن سحنون لنتحدث عن شيوخ سحنون فيها . فمن هؤلاء الشيوخ :

علي بن زياد التونسي ، وهو أبو الحسن علي بن زياد التونسي من قبيلة عبس[2] ، وقيل إن نسبه أصله يرجع إلى العجم[3] ، ولد بمدينة طرابلس ثم انتقل مع أسرته إلى تونس فسمي بذلك التونسي ، سمع من مالك بن أنس وسفيان الثوري ، والليث بن سعد[4] ، وابن أبي لهيعة . ويقال عنه أول من أدخل للمغرب وإفريقية كتاب الموطأ[1] ، وأدخل كذلك الكتاب المعروف

---

(١) الشيرازي : المصدر السابق ص ١٢٦ .

(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ـ ١ ص ٣٢٨ .

(٣) ابن عبد البر : الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء جـ ١ ص ٦٠ .

(٤) هو الليث بن سعد الفهمي أبو الحارث المصري مولى بني فهم ، ولد بقلقشندة « أي أصله فارسي أصبهاني » عام ٩٤ هـ وقيل عام ٩٣ هـ ، في عهد خلافة الوليد بن عبد الملك ، كان ثقة ، كثير الحديث وكان قد استقل بالفتوى في زمانه بمصر ، وكان سرياً من الرجال نبيلاً سخياً ، له ضيافة . قال الشافعي : كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه . يعني لم يدونوا فقهه كما دونوا فقه مالك وغيره . وقال يحيى ابن بكير : ما رأيت أحداً أكمل من الليث ، كان فقيه النفس ، عربي اللسان ، يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر ، حسن المذاكرة ، مات في شعبان ١٧٩ هـ أي قبل وفاة الإمام مالك بشهرين .

الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٠٣ ، العبر جـ ١ ص ٢٦٧ ، ميزان الاعتدال جـ ٣ ص ٤٢٣ ، دول الإسلام جـ ١ ص ١١٤ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٧ ص ٣١٥ ، السيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٠١ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ٢٨٥ ، النووي : تهذيب الأسماء واللغات جـ ١ ص ٧٣ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٨٥ ، ابن حجر : الرحمة الغيثية ٧ ، الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ص ٢٧٥ ، اليافعي : مرآة الجنان جـ ١ ص ٣٦٩ .

(٥) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ القسم الثالث ص ٧١٠ .

باسم جامع سفيان وهو يرد فيه الأحاديث التي رواها سفيان الثوري ، وقام بتدريس الموطأ وفقه مالك للمغاربة .

ذهب علي بن زياد إلى الحجاز والعراق لطلب العلم على أيدي علمائها وفقهائها ، وله كتب عديدة في الفقه على مذهب مالك أشهرها كتاب خير من زنته ذهباً[١] ، ورد اسم هذا الكتاب عند القاضي عياض في كتاب ترتيب المدارك ، وهناك رواية ذكرت حول تسمية هذا الكتاب فقيل إن علي بن زياد لما ألف كتابه في البيع[٢] لم يجد ما يسميه به ، فقيل له في المنام سمه كتاب خير من زنته ذهباً ، وكان حبيب بن سعيد قد رأى في المنام هاتفاً يقول له : خير من زنته ذهباً فإنه الحق من عند الله ، فأشار حبيب بهذا الاسم على أستاذه ابن زياد ، وأصل هذا الكتاب لعبد الرحيم بن أشرس ولكن الذي رواه عنه علي بن زياد ، ويقال إنه كان يقرؤه على المعنى أي لا يقرؤه بنصه ، وابن أشرس كان من نفس سن علي بن زياد[٣] .

اتصل سحنون بهذا الفقيه عن طريق أستاذه بهلول بن راشد الذي أرسل معه كتاباً يحثه على العناية به ، وكان سحنون لا يقدم[٤] عليه أحداً من أهل إفريقية ، ويقول : « ما بلغ البهلول بن راشد شسع نعل علي بن زياد »[٥] وأضاف سحنون كلامه فيه : كان البهلول يأتي إلى علي بن زياد ويسمع منه ويفزع إليه ، يعني في المعرفة والعلم ، ويكتب إليه في تونس يستفتيه .

وكان أهل العلم بالقيروان إذا اختلفوا في مسألة ما ، كتبوا بها إلى علي بن زياد ليعلمهم الصواب ، وحقاً كان علي بن زياد خير أهل إفريقية في الضبط للعلم .

وكان سحنون شديد الإعجاب بمعلمه الجليل الذي منحه كل ما عنده من

---

(١) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٣٧ .
(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٩٢ .
(٤) أبو العرب : المصدر السابق ص ٢١١ .
(٥) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١٥٨

علم وفقه وفضيلة ، وقد أكثر الكلام والحديث عنه ، ومن أقواله فيه « ولو أن التونسيين يسألون لأجابوا بأكثر من جواب المصريين »[١] وهنا نلاحظ أن سحنون كان متعصباً لأهل بلده إفريقية حتى إنه يفضلهم على شيوخه المصريين وهم أصحاب الفضل الأكبر عليه فهم الذين علموه الفقه والحديث ، بل في رأينا أن عبد الرحمن بن القاسم وابن وهب وأشهب وأصبغ يفوقون علي بن زياد بشهادة كل رجال العلم من القدماء .

وقال سحنون أيضاً في شيخه « ما أنجبت إفريقية مثل علي بن زياد »[٢] كذلك قال عنه أسد بن الفرات فاتح صقلية « كان علي بن زياد من نقاد أصحاب مالك ، وإني لأدعو له مع والدي »[٣] وفي رواية أخرى قالها أسد بن الفرات « إني لأدعو في أدبار صلاتي لمعلمي وأبدأ بعلي بن زياد ، لأنه أول من تعلمت منه العلم »[٤] .

وقد نبع على يد هذا الفقيه البارع عدد كبير من الفقهاء أمثال بهلول بن راشد وأسد بن الفرات وشجرة بن عيسى المعافري وسحنون بن سعيد وغيرهم ، ولم يكن في عصره أفقه[٥] منه ولا أورع .

صفوة القول : كان علي بن زياد ثقة مأموناً ، خيراً متعبداً ، بارعاً في الفقه ، وكان ممن يخشى الله عز وجل مع علوه في الفقه فهو الذي أشار على سحنون بالقيام برحلته إلى المشرق للتوسع في دراسة الفقه المالكي .

ومنهم عبد الرحيم بن أشرس مولى أنصاري من العرب[٦] من أهل تونس

---

(١) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٣٧ .

(٢) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ١٥٨ .

(٣) أبو العرب : المصدر السابق ص ٢٢١ .

(٤) قال أسد بن الفرات « ما طرأ علينا طارىء من بلد من البلدان كشف هذا الأمر » ونلاحظ من سيرة علي بن زياد وجود مدرستين للعلم إحداهما بتونس والأخرى بالقيروان .
ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ القسم الثالث ص ٧٧٩ .

(٥) ابن حجر العسقلاني . لسان الميزان جـ ٣ ص ٤٠٦ .

(٦) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ ص ٧١٢ .

وكنيته أبو مسعود[١] ، وقيل أبو العباس ، وهو ثقة ، سمع من مالك بن أنس ومن ابن القاسم العتقي ، أخذ عنه سحنون الرواية فقال عنه « كان علي بن زياد خير أهل إفريقية في الضبط للعلم ، وكان ابن أشرس أحفظ على الرواية ، وكان شديد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »[٢] .

وكانت هناك منافسات فقهية وعلمية بين عبد الرحيم بن أشرس وعدد من الشيوخ في أهل عصره ، وكان ذلك شائعاً ، وسنرى سحنون يتعرض لعداء الكثيرين ممن عاصروه .

ومنهم البهلول بن راشد : وهو أبو عمرو البهلول بن راشد من أهل القيروان ، كان ثقة[٣] مجتهداً وورعاً مستجاب الدعوة ، كان عنده علم غزير . قال عنه المالكي « كان البهلول من أهل الفضل والعلم والورع ، معروفاً بذلك مع الاجتهاد والعبادة »[٤] .

أخذ العلم من مالك بن أنس وسفيان الثوري ، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم[٥] ، والحارث بن نبهان ، وموسى بن علي بن رباح ، والليث بن سعد ، وعبد الرحمن بن غانم الرعيني وغيرهم .

كان بهلول بن راشد في بداية حياته مشغولاً بالعبادة[٦] ، فلما احتاج إليه الناس في العلم درس وسمع الموطأ من علي بن زياد وابن غانم ، وجامع سفيان الصغير من أبي خطاب[٧] وابن أبي خارجة والجامع الكبير من ابن غانم الرعيني ، ودون الناس عنه جامعاً وقام بفتياهم .

---

(١) أبو العرب : المصدر السابق ص ٢٢٣ .
(٢) ابن حجر : المصدر السابق جـ ٣ ص ٤٠٥ .
(٣) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٢٦ .
(٤) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١٣٣ .
(٥) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٢٦ .
(٦) الدباغ : معالم الإيمان حـ ١ .
(٧) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٣٠ . قيل أنه وضع ديواناً في الفقه المالكي وربما مال إلى قول الثوري .

سمع من بهلول العديد من المشايخ والفقهاء وكان على رأسهم سحنون وعون الجعفري ويحيى بن سلام وأبو سنان وخالد بن يزيد[١] ، وكلهم جميعاً قاموا بدور بارز في النهضة الفقهية والفكرية بعد ذلك في إفريقية الأغلبية .

وهناك صفحات عديدة مليئة بالأخبار والأحاديث عنه في المصادر العربية سوف نستعرض بعضها ، قال عنه مالك بن أنس « هذا عابد بلده »[٢] بينما قال سعيد بن الحداد « ما كان بهذا البلد أحد أقوم بالسنة من بهلول في وقته وسحنون في وقته »[٣] أما أبو حاتم فذكر « هو ثقة لا بأس به »[٤] وأضاف العقيلي « هو شيخ من أهل المغرب ليس به بأس »[٥] وروى القعنبي عنه « وهو وتد من أوتاد المغرب »[٦] وقال أبو إسحاق البرقي « كان بهلول بن راشد من أصحاب مالك فاضلاً »[٧] .

وأكثر المتحدثين عنه كان تلميذه سحنون الذي قضى معظم أوقات شبابه معه ، بل يرجع له الفضل الأول في تكوين ملكة سحنون الفقهية ، ومن أشهر عباراته عنه « كان البهلول رجلاً صالحاً ، ولم يكن عنده من الفقه ما عند غيره ، وإنما اقتديت به في ترك السلام على أهل الأهواء ، كان الذكر لرباح فلما مات صار لبهلول،وما ذاك إلا من خشية كانت له »[٨] وكان البهلول من الفقهاء لكن غلبت عليه العبادة وابن غانم فقيه لكن لما ولي القضاء غلب عليه اسمه قال سحنون « كنا نختلف عن البهلول نتعلم منه السمت »[٩] وقال سحنون عنه أيضاً « مثل العلم القليل في الرجل الصالح مثل العين العذبة في الأرض العذبة يزرع فيها صاحبها زرعاً فينتفع به ، ومثل العلم الكثير في الرجل

(١) السراج : الحلل السندسية في الأخبار التونسية جـ ١ ق ٣ ص ٧١٣ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٣١ .
(٣) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ ق ٣ ص ٧١٤ .
(٤) ابن فرحون : المصدر السابق ص ١٠١ .
(٥) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٢٧ .
(٦) الدباغ : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٦٦ .
(٧) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٣ .
(٨) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٣١ .
(٩) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٣١ .

غير الصالح مثل العين الخرارة في الأرض السبخة تهدر الليل والنهار لا ينتفع بها »[١] وكان سحنون يقول على أثر هذا « البهلول كان رجلاً صالحاً ولم يكن عنده من الفقه ما عند غيره ولكن نفعه الله تعالى به »[٢] وذكر رجل آخر عنه « أنه من بحر من البحور ما نفعه الله بعلمه »[٣] .

قال سحنون[٤] : لقد أتيت يوماً إلى البهلول فوافاني رجل من أهل الأهواء على بابه ، وسألني عن الشيخ فما رددت عليه جواباً ، والشيخ يسمع ذلك ، فلما دخلت على الشيخ سلمت عليه ، فلم يرد علي السلام وأعرض عني ، فلما خرج الناس من عنده تقدمت فجثوت على ركبتي بين يديه ، فقلت له : ما خبري وما قصتي ؟ فقال : يسلم عليك رجل من أهل الأهواء ويسألك عني ، فقلت له : والله ما رددت عليه جواباً ، قال سحنون : فقام لي عند ذلك ، وقال لي : مرحباً وأهلاً وسلم ، وقال لي : إن هذا الذي أمرتك به تعرف به الحق من الباطل . نستنتج من هذه الرواية مدى كراهية البهلول لأهل الأهواء وعدم الرد عليهم السلام .

وذكر أبو عثمان سعيد بن الحداد « بلغني أنه كان عند البهلول طعام ، فغلا السعر فأمر فبيع له ثم أمر من يشتري له رُبع قفيز ، فقيل له : تبيع ثم تشتري ، فقال : نفرح إذا فرح الناس ، ونحزن إذا حزنوا »[٥] وهذا يدل على مدى حبه لأهل بلده .

وعن رجل من أصحاب البهلول قال : جئت إلى البهلول وبين يديه ابنته وعليها ثياب مصبغة وهي طفلة فقال « ما أحب شيئاً مثل حبي لها ، وإني أحب لو قدمتها »[٦] فانصرفت عنه ثم عدت إليه فإذا الناس مجتمعون على

---

(١) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ١ ص ٣٣٧ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٣٧ .
(٣) الدباغ : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٢٦ .
(٤) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٤ .
(٥) الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٢٦٧ .
(٦) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١٣٦ .

بابه ، فقلت « ما للناس مجتمعون » ؟ فقيل لي « توفيت ابنة البهلول » فدخلت إليه فلما عزيته ووليت عنه ، لحقني فقال « سألتك بالله لا تذكر لأحد ما كان مني مادمت حياً » يريد ما كان منه في تمنيه في صدر ذلك اليوم لموت ابنته ، فقلت له « والله لا ذكرته مادمت حياً » وهذا خير ما يدل على تقبله قضاء الله سبحانه وتعالى ومدى حبه لرجاله وعدم الإيمان بالحسد .

أما عن موقف البهلول بن راشد من أهل الذمة فقد قال الفقيه أحمد بن إبراهيم ، « دفع بهلول دينارين إلى رجل أمره أن يشتري له بهما زيتاً من الساحل ويستعذبه له ، فلما انتهى الرجل إلى الموضع سأل عن الزيت العذب فذكر أنه عند رجل نصراني ، وليس بالموضع زيت أعذب منه ، فانطلق إليه فسأله أن يبيع منه بالدينارين وقال : إنما أردته للبهلول ، فقال له النصراني « فنحن نتقرب إلى الله بالبهلول كما تتقربون به إلى الله تعالى »[1] فأعطاه بدينار من ذلك الزيت الذي ليس بالموضع أعذب منه مقدار ما يباع بأربعة دنانير من الزيت الدون ، ثم قدم على بهلول فأخبر بجميع ما صنع من النصراني وما سمع له به ، وما قال له . فقال له البهلول « قد قضيت حاجة فاقض الأخرى : أردد علي الدينارين » فقال له الرجل « ولم أصلحك الله ؟ » قال ذكرت قول الله عز وجل : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾[2] فخشيت أن آكل من زيت النصراني فتحدث له مودة في قلبي ، فأكون ممن واد من حاد الله ورسوله على عرض من الدنانير .

أما عن موقفه في رد الدين فحدث عبد الله بن سعيد الحداد عن أبيه عن جده قال « كان لقوم من النحاسين على بهلول عشرون ديناراً ، وكان لبهلول مع دحيون عشرون مثلها ، فوقف على بهلول سائل ، فقال لدحيون : ادفع إليه ديناراً من العشرين »[3] ثم أقبل إلى بهلول أصحاب العشرين فقال لهم بهلول

---

(١) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٣٣ .

(٢) سورة المجادلة : آية ٢٢ .

(٣) أبو العرب : المصدر السابق ص ٥٧ .

« حضر منها تسعة عشر ديناراً » ثم قال لدحيون « عدها عليهم » فعدها ، فأصاب عشرين ديناراً ، فقال لبهلول : « أراها عشرين » فقال له بهلول « لا إله إلا الله . أراك لا تحسن العدد » .

حدث بعض مشايخ إفريقية عن أحد مواقف بهلول بن راشد من الفقيه مغيث بن رباح فقالوا : دخل مغيث بن رباح على البهلول في مسجده ، فقال له البهلول : يا أبا أحمد ما جاءك ؟ أما كنت حججت ؟ فقال : نعم قد حججت ولكني اشتقت إلى بيت الله الحرام وإلى قبر النبي ﷺ . فقال له البهلول : فكم هيأت لخروجك ؟ فقال مائة دينار ، فقال له البهلول : فهل لك أن تأتيني بها ، فأصرفها في مواضع ، وأضمن لك على الله عز وجل عشر حجج مقبولة ؟ فقام مغيث وأتى بالمال ، ثم قام بهلول بتوزيع المال على الفقراء فأحدهم يقول له : تزوج منها وعش بالباقي ، وآخر يقول له : « عد بها على عيالك وصبيانك ، وآخر يقول له : استر بها وجهك »[١] .

أما عن موقف البهلول من الأمراء فقد قال أبو عثمان سعيد بن الحداد « أتى هرثمة بن أعين وهو والي إفريقية حتى انتهى إلى مسجد البهلول برجاله وألويته ، وكان البهلول في مسجده مستنداً إلى عمود ، فمال هرثمة عن السرج لينزل فلم يزح بهلول رأسه عن العمود ، فلما رآه لم يرفع رأسه إليه ولم ينهض إلى القيام ، رجع إلى سرجه وقال لبعض أعوانه « ادفع هذا المزد من الدراهم إليه وقل له : يأمرك الأمير أن تفرقه ، فأقبل عليه رسوله وأمره بما أمره به فقال له البهلول : قل له أنت أعرف بموضعه مني ، وأبى أن يقبله »[٢] .

مات البهلول بن راشد من شدة التعذيب أيام والي إفريقية محمد بن مقاتل العكي[٣] ، وكان البهلول يجتمع الناس حوله ويحرضهم على العصيان والتمرد

---

(١) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٨ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٣٤ .
(٣) ابن الرقيق : تاريخ إفريقية والمغرب ص ٢٠١ .

ضد الوالي ، وكان سحنون ذكر أن وفاة بهلول بن راشد كانت بعد وفاة[١] علي بن زياد بخمسة وثلاثين يوماً ، وقد قيل ولد البهلول بن راشد عام ١٢٨ هـ مع مولد ابن غانم في ليلة واحدة[٢] .

ومنهم عبد الله بن فروخ ، ولد أبو محمد عبد الله بن فروخ الفارسي (الأصل)[٣] بالأندلس عام ١١٥ هـ ثم انتقل إلى القيروان واستوطن بها . وقيل كان اسمه بالأندلس عبدوساً[٤] ، ولكنه نفر من هذا الاسم ثم رحل إلى المشرق في طلب العلم ، فلقي جماعة من المحدثين والعلماء والفقهاء أمثال زكريا ابن أبي زائدة[٥] وهشام بن حسان[٦] وعبد الملك بن جريج والأعمش وسفيان الثوري ومالك بن أنس ، وأبي حنيفة فسمع وتفقه منهم وكان اعتماده في الحديث والفقه على مالك بن أنس وكان ابن فروخ يميل كل الميل إلى النظر[٧] والاستدلال من أجل الوصول إلى الصواب ، وكان يكاتب مالك بن أنس في المسائل الفقهية ويجاوبه[٨] مالك إلا أنّ سحنون كان يقول : لا ينص الأصول ما كان يسأل في المسألة فيجيب فيها بالأقاويل المختلفة .

حفلت إفريقية بالمنافسات والصراعات العلمية بين ابن فروخ وعبد الله

---

(١) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ ق ٣ ص ٧٢١ .

(٢) ابن حجر : المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٦ .

(٣) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٣٩ .

(٤) ابن حجر : لسان الميزان جـ ٢ ص ٦٦ .

(٥) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ ق ٣ ص ٧٢٤ .

(٦) هشام بن حسان الأزدي القردوسي أبو عبد الله البصري ، تفقه وروى عن الحسن البصري وابن سيرين وهشام بن عروة ، كان أعلم الناس بحديث الحسن ، قيل كان له ألف حديث ، كان من البكائين . مات سنة ١٤٦ هـ ، وقيل سنة ١٤٨ هـ .

الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٦٣ ، العبر جـ ١ ص ٢٠٨ ، ميزان الاعتدال جـ ٤ ص ٢٩٥ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ٢١٩ ، الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ص ٣٥١ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ ١١ ص ٣٤ ، السيوطي : طبقات الحفاظ ص ٧١–٧٢ .

(٧) الذهبي : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٧١–٤٧٢ .

(٨) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٠٧ .

هناك قول بأن عبد الله بن فروخ سمع من أبي حنيفة وأخذ عنه العديد من المسائل الفقهية نحو عشرة آلاف مسألة .

ابن غانم ، فقال سحنون « واختلف ابن غانم وابن فروخ في الرجل يوليه أمير غير عدل القضاء ، فأجاز بن غانم له أن يلي ، وأباه ابن فروخ وكتبا بذلك لمالك ، فلما قرأ مالك هذا الكتاب ، قال للرسول أصاب الفارسي وأخطأ الذي يزعم أنه عربي »[١] .

ونلاحظ من هذه العبارة الأخيرة غضب مالك على عبد الله بن غانم لرفضه[٢] الزواج من ابنته والإقامة بالمدينة ، وكان عبد الله بن غانم عظيم القدر عند العلماء والفقهاء ، وربما كان هذا القول من مالك صدى لما يقال من أن مالك عرض على عبد الله بن غانم أن يقيم معه في المدينة ويزوجه ابنته فأبى وفضل الرجوع لوطنه إفريقية .

وكان عبد الله بن فروخ يتسم بالعقل والعلم والورع والدين ، فكان رجلاً صالحاً متواضعاً قليل الهيبة للملوك ، لا يخاف في الله لومة لائم ، مبايناً لأهل البدع[٣] حافظاً للحديث والفقه . وقال أبو بكر المالكي « كان ثقة في حديثه ، واستعفى[٤] من القضاء » وقال ابن أبي مريم « وهو أرضى أهل عندي ، وقد خرج له مسلم في صحيحه »[٥] وقال عبدالله بن وهب عنه « قدم إلينا ابن فروخ سنة ست وتسعين بعد موت الليث بن سعد ، فرجونا أن يكون خلفاً عنه ، فما لبث إلا يسيراً حتى مات ، فجعلت على نفسي ألا أحضر جنازة إلا وقفت على قبره وأدعو له »[٦] وقال المالكي « كانت لوفاته بمصر فجعة عظيمة عند أهل العلم ، وقالوا : طمعنا أن يكون خلفاً عن الليث وكانوا يعظمونه ويعتقدون إمامته »[٧] .

---

(١) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ١١٤ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣١٦ .
(٣) أبو العرب : المصدر السابق ص ٣٦ .
(٤) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ ق ٣ ص ٧٢٥ .
(٥) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٤١ .
(٦) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ ق ٣ ص ٧٢٥ .
(٧) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ١١٤ .

وحول زهد وعبادة ابن فروخ وقيامه بالحق ، قال عنه ابن قادم « كان ابن فروخ كثير التهجد وكان تهجده آخر الليل »[١] وأضاف كلامه « وكان الناس يتبركون بصحبة ابن فروخ ، ويجلسون له على طريقه إذا خرج من داره ، ويمشون معه ويغتنمون منه موعظة »[٢] وقال أحمد بن يزيد « كان عبدالله بن فروخ إذا أخذ الجند أعطياتهم ، أغلق حانوته تلك الأيام حتى يذهب ما في أيديهم »[٣] .

وحول مكانة ابن فرزخ عند مالك ، قال الدباغ « وكان عبدالله ابن فروخ ، لما قدم على مالك - يعني في الرحلة الثانية قام له مالك ، وكان لا يفعل ذلك لكثير من الناس ، فأجلسه إلى جنبه وقال : لو علمت بقدومك لأتيت . وجعل مالك لا ترد عليه مسألة وعبدالله حاضر إلا قال : أجب أبا محمد . فيجيب عبدالله ، ثم يقول مالك للسائل : هو كما قال لك . ثم التفت مالك إلى أصحابه فقال : هذا فقيه المغرب »[٤] .

تتلمذ سحنون وأخوه حبيب على يد ابن فروخ ، وكانت حلقاته العلمية يتدفق عليها الطلاب لأنه كان يمازح[٥] الطلاب حوله ، هذا نقلاً عن لسان سحنون .

وحول قصة رفض عبد الله بن فروخ منصب القضاء للأمير روح ابن حاتم[٦] ذكرت عدة روايات وأحاديث ، فكان عبدالله بن فروخ ينوي الرحيل من إفريقية فلما علم روح بن حاتم أرسل إليه رسولاً « بلغني أنك تريد الخروج علينا » فقال له ابن فروخ « أرى ذلك مع ثلاثمائة وسبعة عشر رجلاً ، عدة أصحاب بدر كلهم أفضل مني »[٧] فقال له روح « قد أمناك أن

---

(١) الدباغ : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٣٩ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٤١ .
(٣) أبو العرب : المصدر السابق ص ٣٦ .
(٤) الدباغ : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٣٩ .
(٥) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٤٦ .
(٦) ابن الخطيب : أعمال الأعلام جـ ٣ ص ١١ .
(٧) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٤٤ .

تخرج علينا أبدا » ثم عرض عليه القضاء فأبى ، فأمر روح بن حاتم بربطه[١] والصعود به على سطح الجامع ، فإن هو قبل ، وإلا طرح من أعلاه . فلما صعد به قيل له : أتقبل القضاء ؟ قال : لا . ثم أجبر على الجلوس في الجامع وحوله الحرس ، فلما جلس في الجامع تقدم إليه الخصوم فكان ينظر إليهم ويبكي ويقول « ارحموني يرحمكم الله »[٢] فعلم روح بهذا ، فأمر الحرس : امضوا إليه وقولوا له : « فأشر علينا بمن نولي أو اقبل »[٣] فقال له « إن يكن أحد فعبدالله بن عمر ابن غانم ، فإني أراه شاباً له صيانة »[٤] فقبل منه روح .

وكان عبدالله بن فروخ أشد الناس كراهية للقضاء ، وكان يقول عن القضاء « القضاء على ثلاثة أوجه مثل رجل يحسن العوم فأخذ البحر طولاً ، فما عسى أن يعوم يوشك أن يكل فيغرق ، ورجل لا بأس بعومه فعام يسيراً فغرق ، ورجل لا يحسن العوم فألقى بنفسه في البحر فغرق من ساعته ، فهذا يمنعني من القضاء والدخول فيه »[٥] .

توفي عبدالله بن فروخ بمصر عام ١٧٦هـ[٦] وقيل عام ١٧٥هـ ودفن بالمقطم[٧] وهو ابن خمسة وخمسين وقيل ابن ستين عاماً .

---

(١) الدباغ : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٤٢ .
(٢) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ١١٨ .
(٣) الدباغ : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٤٢ .
(٤) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١١٨ .
(٥) ابن الرقيق : المصدر السابق ص ١٧٩ .
(٦) الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٢٤٨ .
(٧) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ١ ص ٣٤٧ .
من أخبار عبد الله بن فروخ مع الأمير روح بن حاتم المهلبي أن روح بعث إليه يوماً يسأله عن دم البراغيث فقال له ابن فروخ : يسألوننا عن دم البراغيث ، ولا يسألوننا عن دماء المسلمين التي تسفك .
وذكر رواية أخرى مع إسحاق ابن الأمير روح بن حاتم حيث قيل أن عبد الله بن فروخ خرج يصلي على جنازة في باب نافع فرأى إسحاق ابن الأمير روح قد أغرى كلابه بظبي ليدربها فنهشته ومزقت جلده ، وعندما انصرف ابن فروخ من الجنازة وفي الطريق لقيه إسحاق ، فقال له ابن فروخ : يا بني إني رأيتك آنفاً تغري كلابك بشيء من البهائم ، وما أحب لك ذلك ، لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك ، فقال : صدقت يا أبا محمد جزاك الله خيراً ثم قال : والله ما فعلت ذلك بعد هذا أبداً ثم مضى لوجهه . =

ومنهم حبيب بن سعيد أخو سحنون بن سعيد كان أسن[1] منه بسنين كثيرة لم تذكرها المصادر ، سمع حبيب من عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وعبد الله ابن فروخ . وكان حبيب بن سعيد ثقة رجلاً صالحاً وهو بمثابة النواة لأولى في بناء حياة سحنون الفقهية والعلمية حيث اعتمد عليها كل الاعتماد ، وسار على منهجه في الحياة الفكرية .

ومنهم شقران بن علي : هو رجل صالح ضرير البدن والبصر[2] وكان يقال عنه مستجاب الدعوة ، وكان من رجال الفضل والدين والاجتهاد[3] ، كان ابن علي واحد الزمان عبادة وزهداً وحسن معاملة لله تعالى ، وكثرة كرامات وعلو همة وسرعة إجابة ، نشأ على الطهارة[4] مع كثرة صلاة وصيام وكثرة حزن وخشية ، رقيق القلب غزير الدمعة ، ومن صغره كان ينطق بالحكمة ، ويرد الناس إلى عبادة ربهم بالموعظة الحسنة حتى انتفع به جماعة من المريدين منهم ذو النون المصري[5] .

وكان شقران بن علي مؤاخياً للبهلول بن راشد[6] ، عالماً بالفرائض ، له فيها كتاب لم يتمكن الفقهاء من العثور عليه ، وهو ثقة مأمون . روى عنه عون ابن جعفر[7] وسحنون حيث درسا على يده علم الفرائض ، وكان قريب السن من البهلول ، ولكن مات قبله .

= أما عن موقفه من الفقيه عبد الله بن غانم فقد خرج ابن فروخ يوماً من الجامع وخرج معه ابن قادم ، فمر في زقاق ابن غانم ، فنظر إلى دار عبد الله بن غانم القاضي وهو إذ ذاك على القضاء ، ونظر إلى غرفة مبنية بالطوب على بعض داره ، فرفع رأسه إليها ، وردد النظر فيها ثم قال : يا ابن غانم ما ظننت أنه يبلغ بك الأمل إلى مثل هذا كله ، وأقبل يتعجب من ذلك ويستعظمه . ومن آراء عبد الله بن فروخ أن الخروج على أئمة الجور يجوز ، مما جعل أمراء بني المهالبة ينظرون إليه بكراهية والقيام بعدة محاولات للتخلص منه .

(١) أبو العرب : المصدر السابق ص ٩٧ .
(٢) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٢٢ .
(٣) أبو العرب : المصدر السابق ص ٦١ .
(٤) الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٢٧٩ .
(٥) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٢٣ .
(٦) أبو العرب : المصدر السابق ص ٦١ .
(٧) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٢٣ .

وكانت فضائل شقران فى إفريقية كثيرة نذكر منها أن الفقيه عبد الرحيم[١] صاحب ابن فروخ ، قال : كنا عند البهلول بن راشد إذ جاءه رجل معه ابن له صغير قد أصابه جدرى ، فهو لا يبصر فقال : ادع الله لولدى أن يرد عليه بصره ، فقام بهلول والصبى وأبوه حتى دخلوا على شقران فسلموا عليه ، فقال البهلول : إن أخانا هذا ليس له غير ابنه هذا الذى معه وقد ابتلى فى بصره فادع الله تعالى أن يرد عليه بصره ، فقال له شقران : ادع ياأبا عمرو ونؤمن عليك . فقال البهلول : بل أنت ياأبا على فادع الله ونؤمن نحن ، فاستقبل شقران القبلة وهو على سريره ، فحمد الله تعالى وصلى على النبى (عليه الصلاة والسلام) ثم قال : اللهم إن أخانا هذا قد سألنا ما قد علمت فنسألك أن ترد على ولده بصره . فالتفت الصبى إلى أبيه وقال له : ما هذا ؟ فلما سمع البهلول أخذ بيد الرجل والصبى وقام ، وطرح شقران بنفسه على وجهه فرددنا عليه الباب وخرج الصبى بصيراً .

ومن آراء شقران بن على أنه قال : من توكل استغنى[٢] ، ومن لم يتوكل تعب ، ومن شكر كوفىء ، ومن رضى عوفى ، والنظر إلى الظلمة آفة للتحقيق ، والهجر لهم أول الطريق .

قال أبو العرب عنه « أنه كان يقول : فرائض شقران حسن يسهل على دارسه لتقوى مؤلفه »[٣] توفى شقران رحمة الله عليه سنة ١٨٦هـ[٤] وقد قارب السبعين من عمره ، ودفن بباب سلم وقبره مشهور والدعاء عنده مجاب .

ومنهم يحيى بن سلام[٥] : كان من العلماء الحفاظ الفضلاء وهو من

---

(١) الدباغ : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٨٥-٢٨٦ .

(٢) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٢٨-٢٢٩ .

(٣) أبو العرب : المصدر السابق ص ٦١ .

(٤) الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٢٨٧ .

(٥) ورد عند المالكى يحيى بن السلام بن أبي ثعلبة البصري التيمي تيم ربيعة .

الطبقة الأولى[١] من طبقة الحفاظ . كان ثقة ثبتاً يتميز بحسن الإدراك[٢] وله مصنفات كثيرة في فنون العلم والفقه ، قيل إنه لقى من العلماء ثلاثمائة وثلاثة وستين عالماً سوى التابعين وهم أربعة وعشرون وامرأة . تحدث عن عائشة وروى عن جماعة من العلماء شرقاً وغرباً ، منهم مالك بن أنس والليث بن سعد وعبدالله بن لهيعة[٣] نقل عن مالك بن أنس أربعة وعشرين حديثاً[٤] . وكان يحيى ابن سلام يقول : كل من رويت عنه العلم روى عني إلا القليل[٥] .

ومن مناقب يحيى بن سلام أنه دعا الله تعالى بثلاث[٦] دعوات فاستجاب الله له منها أن يقضي عنه دينه ، فقضى دينه ، وأن يورث ولده العلم فكان كما دعا ، وأن يكون قبره بمقطم مصر ، فكان كذلك . دفن إلى جانب عبدالله ابن فروخ .

ومن المعروف أن يحيى بن سلام سكن القيروان ثم خرج إلى المشرق للحج فتوفى بمصر ، وكان مولده سنة ١٢٤هـ .

وليحيى بن سلام كتاب فى التفسير[٧] واختيارات فى الفقه وكان ثقة ومحله من العلم معلوم ، وكان إذا مر بمغن سد أذنيه لئلا يسمعه فيحفظه ، فإنه كان لا يسمع شيئاً إلا حفظه .

---

(١) أبو العرب : المصدر السابق ص ١١١ .

(٢) الدباغ : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٢٠ .

(٣) عبد الله بن لهيعة بن عقبة المصري الفقيه أبو عبد الرحمن قاضي مصر ومسندها ، روى عن عطاء بن أبي رباح وشعبة وابن المبارك ، ثقة ، مات سنة ١٧٤ هـ .

الذهبي : ميزان الاعتدال جـ ٢ ص ٤٧٥ ، تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٣٧ ، العبر جـ ١ ٢٦٤ ، الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ١٧٩ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ٢٨٣ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ ٥ ص ٣٧٣ ، السيوطي : طبقات الحفاظ ص ١٠١ .

(٤) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ١٢٢ .

(٥) أبو العرب : المصدر السابق ص ٣٨ .

(٦) الدباغ : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٢٦ .

(٧) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١٢٣ .

ومنهم عبدالله بن عمر بن غانم : وهو عبدالله بن عمر بن غانم بن شرحبيل[١] بن ثوبان الرعيني ، وهو من أهل إفريقية وكنيته أبو عبدالرحمن ، ولد أثناء حكم[٢] بني أمية لإفريقية ، وحارب في صفوف أميرها حنظلة بن صفوان[٣] ضد الخوارج الذين هددوا كيان الحكم الأموى بإفريقية .

سمع ابن غانم من مالك بن أنس وسفيان الثورى وخالد بن أبي عمران ، ودخل الشام والعراق في طلب العلم ، ولقى أبا يوسف صاحب أبي حنيفة وعثمان ابن الضحاك .

وعبد الله بن غانم كان ثبتاً ثقة فقيهاً ، عدلاً في قضائه فقد قال عنه أبو على ابن أبي سعيد « كان ابن غانم رجلاً كاملاً فقيهاً مقدماً مع فصاحة لسان ، وحسن بيان ، وبصيراً بالعربية ، ورواية الشعر ، تروى له أبيات مستحسنة ، وكانت فيه تهتهة »[٤] أما أبو سعيد بن يونس فقال « كان أحد الثقات الأثبات ولم يعرفه أبو حاتم لبعد قطره »[٥] وقال سليمان بن عمران « كان ابن غانم كاملاً متكملاً فصيحاً ، حسن البيان ، جيد الترتيل ، لولا تمتمته ما قام بطلاقة لسانه أحد »[٦] ظلت التمتمة باقية في ولده .

كان ابن غانم من أهل العلم والدين والفضل والورع والتواضع والفصاحة والجزالة ، قال معمر : كان ابن غانم يقرئنا[٧] كتب أبي حنيفة في الجمعة يوماً . وذكر ابن حارث الخشني : أن على بن زياد كان يسيء القول فيه ويغمزه في كتبه ويقول ما صدق والله .

---

(١) ورد عند القاضي عياض « عبد الله بن عمر بن غانم بن شراحيل بن ثوبان » .
(٢) الدباغ : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٨٩ .
(٣) ابن أيبك : الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية .
(٤) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ ق ٣ ص ٧٣١ .
(٥) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣١٦ .
(٦) الدباغ : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٩٠
(٧) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ ق ٣ ص ٧٣١ .

وكان مالك بن أنس إذا دخل عليه ابن غانم وقت سماعه أجلسه[١] إلى جنبه ويسأله عن أخبار المغرب ، وإذا رآه أصحابه قالوا : شغله المغرب عنا . ويقال إن مالكاً عرض عليه أنْ يزوجه ابنته[٢] ويقوم عنده ، فامتنع من المقام ، وقال له : إن أخرجتها إلى القيروان تزوجتها .

وحكى سحنون عن العديد من مواقف أستاذه ابن غانم ، فمنها موقفه من البادية[٣] ، قال شهد قوم من أهل البادية عند عبدالله بن غانم فلم يحسنوا الشهادة ، فقال ابن غانم « كل من البادية طريف إلا الرجال » وقال أسد ابن الفرات عنه « كان ابن غانم فقيهاً ورعاً له عقل وصيانة »[٤] وكان ابن غانم حسن اللباس يلبس من الثياب رقيقها .

تأثر سحنون كل التأثر بهذا الفقيه البارع ، فسمع منه كتاب الموطأ ، وهو أحد القضاة الذي يفخر بهم أهل إفريقية حيث مكث نحو عشرين سنة[٥] في هذه الوظيفة ، وكان قد تقلد بأمر من الخليفة هارون الرشيد . وقيل ولاه[٦] أمير إفريقية آنذاك روح بن حاتم المهلبي . وكانت ولايته في رجب سنة ١٧١هـ وهو ابن ٤٢ عاماً أي في حياة مالك ، ولما بلغ مالك هذا الخبر سر به وأعلم بذلك أصحابه .

كان ابن غانم أحكم الناس ، فقد جعل لخصومات النساء[٧] يوماً يجلس فيه للنظر بينهم ، وكان دائماً ينظر ببصره إلى فوق فلا يشك من لا يعرفه أنه أعمى ، وكان يزيل الحجاب والكتاب عنه ، وكان له حظ من صلاة الليل فإذا

---

(١) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١٤٤ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣١٧ .
(٣) ابن الرقيق : المصدر السابق ص ٢٢٩ .
(٤) ابن الدباغ : المصدر السابق ص ٢٩٠ .
(٥) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١٤٧ .
(٦) ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس ص ٤٩ .
(٧) ابن الرقيق : المصدر السابق ص ٢٣١ .

قضاها وجلس في التشهد آخرها[١] عرض كل خصم يريد أن يحكم له على ربه. وكان يقول في مناجاته « يارب فلان منازع فلاناً وادّعى عليه بكذا فأنكرَ دعواه، فسألته البينة فأتى بينة شهدت بما ادعى، ثم سألته تزكيتها فأتاني بمن زكاهم، وسألت عنهم في السمر، فذكر يعني خيراً، وقد أشرفت أن آخذ له من صاحبه حقه الذي تبين لي أنه حق له، فإن كنت على صواب ثبتني وإن كنت على غير صواب فاصرفني، اللهم لا تسلمني، اللهم سلمني »[٢] ومن المعروف أن ابن غانم قد أوقف الأحمية[٣] التي كانت بمراسي إفريقية لمرافق المرابطين.

وشكى النخاسون[٤] لابن غانم من أبي هارون مولى إبراهيم بن الأغلب وصاحب أمره بأنه أخذ بغالاً بخمسمائة دينار، ولم يدفع لهم شيئاً. ونجح ابن غانم في إرجاع المبلغ إلى أصحابه.

وأيضاً خاصم ابن زرعة[٥] أختاً له عند ابن غانم، فحكم لها عليه، فبلغ ذلك من ابن زرعة كل مبلغ فوافاه في طريق الديدان فقال له «ياابن الفاعلة» وأغرق في سبه فلم يرد عليه جواباً، فلما كان بعد ذلك خرج إلى الديدان، فلقيه ابن زرعة فسلم عليه ابن غانم وبره، وقال له « امض بنا » فمضى معه إلى متنزهه فأحضر طعاماً فأكل معه ثم انصرف، فلما أراد مفارقته قال له « ياأبا عبدالرحمن اغفر لي، فقد كان مني خطأ إليك » فقال ابن غانم « أما هذا فلست أفعله حتى أخاصمك بين يدي الله تعالى. وأما أن ينالك مني في الدنيا مكروه أو عقوبة فأنت آمن من هذا »[٦].

---

(١) قيل أن مالك قال لأصحابه حول تقلد ابن غانم منصب القضاء: أعلمتم أن الفتى الرعيني الذي كان يأتي إلينا قد استقضى على إفريقية ؟

القاضي عياض: المصدر السابق جـ ١ ص ٣١٩.

(٢) المالكي: المصدر السابق جـ ١ ص ١٥٣–١٥٤.

(٣) القاضي عياض: المصدر السابق جـ ١ ص ٣٢١.

(٤) الدباغ: المصدر السابق جـ ١ ص ٢٩٥–٢٩٦.

(٥) ابن الرقيق: المصدر السابق ص ٢٣١.

(٦) ابن الرقيق: المصدر السابق ص ٢٣١.

أصيب ابن غانم بمرض الفالج[1] ومات سنة ١٩٠هـ وقيل عام ١٩٦هـ فحزنت عليه كل أهالي إفريقية ، واشترك في تشييع جنازته الأمير إبراهيم ابن الأغلب ودفن بباب نافع[2] . وكان لابن غانم ابنان[3] جليلان أبو عمر غانم وأبو شراحيل ، وكان فقيهاً نظاراً ورعاً أديباً شاعراً ، أخذ عن الكوفيين ومال إلى رأيهم ، وتوفى ابن ست وثلاثين .

ومنهم الفقيه عبدالله بن أبي حسان اليحصبي وكنيته أبو حسان[4] وقيل أبو عبدالرحمن ، وهو من أشراف إفريقية بشرف[5] أبيه وبيته وفقهه وأدبه ، كان يقيم في حارة اليحصب[6] فلهذا انتسب إليها وأبوه من عرب البلديين وله حروب مع البربر ، وقد أبلى بلاء حسناً وولي الإربس .

سمع وتفقه من الإمام مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وابن أبي ذئب[7] ، كان له علم وفصاحة ، ثقة ، وكان أعلم الناس[8] باساريخ وله إيثاره ، وكان سفيان بن عيينة يقبل عليه إذا أتاه ويحبه جداً . وكان سحنون يقول « كنت في أول طلبي إذا أغلقت علي مسألة مضيت إلى ابن أبي حسان فأعلمته بذلك ،

---

(١) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ١٥٥ .
(٢) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ ق ٣ ص ٧٤١ .
(٣) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٢٥ .
(٤) أبو العرب : المصدر السابق ص ٧٥ .
(٥) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٨٠ .
(٦) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ١٩٩ .
(٧) هو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب العامري ، وكنيته أبو الحارث المدني وهو أحد فقهاء الأمة ، تفقه على محمد بن المنكدر والزهري ونافع ، وروى عنه الثوري وابن المبارك وغيرهما . قال عنه الإمام أحمد : كان ثقة صدوقاً أفضل من مالك بن أنس إلا أن مالكاً أشد تنقية للرجال منه ، وابن أبي ذئب كان لا يبالي عمن يحدث ، مات في الكوفة عام ١٢٩ هـ .
الشيرازي : طبقات الفقهاء ص ٦٧ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ٢٤٥ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٩١ ، العبر جـ ١ ص ٢٣١ ، الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ص ٢٩٧ ، النووي : تهذيب الأسماء جـ ١ ص ٨٦ ، ابن حجر : تهذيب التهذيب جـ ٩ ص ٣٠٣ ، السيوطي : طبقات الحفاظ ص ٨٢-٨٣ .
(٨) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ٥٨ .

فكان بيده مفتاح لكل ما نغلق »[١] .

تأثر ابن أبي حسان كل التأثر بالإمام مالك، وكان حريصاً كل الحرص على حضور مجلسه ، فقد روى لنا الفقيه عيسى بن مسكين عنه « وكان ابن أبي حسان يعطي الرجل كل يوم ثلاثة دراهم ليأخذ له مجلساً فيه – في مجلس مالك – بالقرب منه ، فكان الرجل يفعل له ذلك ، وكان الرجل إذا جاء ابن أبي حسان قام ذلك الرجل وجلس ابن أبي حسان في موضعه »[٢] .

كان ابن أبي حسان يروى عن الإمام مالك ما لا يكاد يوجد عند غيره ، روى عنه أنه سمعه يقول « إن أهل الذهن والذكاء والعقول من أهل الأمصار ثلاثة : المدينة ثم الكوفة ثم القيروان »[٣] قال عبدالله بن وهب « ما رأيت مالكاً أميل منه إلى أحد كميله إلى ابن أبي حسان ، فكان مفهوماً ، حاضر الحجة قوياً على المناظرة ذاباً عن السنة ، قليل الهيبة للملوك في حق يقوله »[٤] .

قال أبو علي البصري « وكان عبدالله بن أبي حسان غاية في الفقه بمذهب مالك ، حسن البيان ، عالماً بأيام العرب وأنسابها راوية للشعر قائلاً له ، وعنه أخذ الناس أخبار إفريقية وحروبها ، روى ذلك عن أبيه ، وكان جواداً »[٥] .

كان عبدالله بن أبي حسان في غاية الكرم والخير ، فقد قيل إن رجلاً من أصحابه أتاه يوماً على أثر نوء عظيم ساد القيروان فهدم كثيراً من دورها ، فألفاه جالساً في مسجده فسلم عليه ثم أعلمه بما انهدم في داره ، وشاوره في بنيانه ومن يرى أن يبنيه ، فأمر بعض غلمانه فأتاه الناس بثلاثين ديناراً فدفعها إليه وقال : استعن بهذه على بنائك[٦] .

---

(١) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٢ ص ٤٨٠ .
(٢) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٠٠ .
(٣) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٢ ص ٤٨١ .
(٤) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ٥٩ .
(٥) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ ق ٣ ص ٧٥٨ .
(٦) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٠٣ .

ثار جند زيادة الله عليه فقاموا بنهب وسلب كل ما يقع في أيديهم ، وكان من ضمن ما سلب منزل عبدالله بن أبي حسان مما أجبره على الهرب إلى السوس[١] ، ولما ظفر زيادة الله وعاد إلى القيروان عفا عن الجند الثائرين والذين نهبوا المنازل ، فقال ابن أبي حسان « ولن يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ويقال بل أنشد :

من لم يؤدبه الجميل ففي عقوبته صلاحه

مات عبد الله بن أبي حسان سنة ٢٢٦ هـ[٢] وقيل ٢٢٧ هـ[٣] وهو ابن سبع وثمانين سنة ، ومولده سنة ١٤٧ هـ ، ودفن بباب نافع .

ومنهم أبو زياد بن زرعة الرعيني ، وهو من أهل إفريقية ، سمع من عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، وهو ثقة[٤] روى عنه سحنون الذي سمع منه ، وهو قليل الحديث ، والطلاب .

ومنهم معاوية بن الفضل الصمادحي : كان ثقة معدوداً في شيوخ إفريقية ، قليل الحديث وكنيته أبو عون[٥] ، روى عن مالك وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم وسفيان الثوري .

تتلمذ على يده عدد قليل من الفقهاء والمحدثين والرواة منهم ابنه موسى وسحنون[٦] وأبو داود والعطار ، وكان معاوية بن الفضل يقول « إن الذاكر لله تعالى بين الغافلين له من الثواب والأجر ما لا يحصى تفسيره »[٧] وكان

(١) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٨٥ .
(٢) الدباغ : المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٢ .
(٣) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٨٥ .
قال ابن الخطيب عن ابن أبي حسان « كان عظيم القدرة والشرف والشهرة ، أصيل المعرفة والدين » .
(٤) أبو العرب : المصدر السابق ص ٨٠ .
(٥) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٦١ .
(٦) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٦١ .
(٧) مجهول : المصدر السابق جـ ٤ ص ١١٧ .

أيضاً معاوية يكثر من ذكر الله تعالى في الأسواق والمواضع[١] التي يشتغل الناس فيها بالبيع والشراء ، وكان يركب بغلته فيذهب إلى السوق ويجيء ويتلو القرآن حتى يختم آياته ، وهناك نقطة أخذت عليه وهي ميوله إلى الخوارج الصفرية[٢] ، ومع هذا لم يقلل من شأنه ومستواه العلمي والفقهي . توفى معاوية بن الفضل بالقيروان سنة تسع وتسعين ومائة وصلى عليه أبو العباس عبد الله بن إبراهيم الأغلبي تقديراً لمكانته العلمية والفكرية .

ثم نختم الحديث عن كبار معلمي سحنون في إفريقية بالتحدث عن الفقيه الجليل أسد بن الفرات بن سنان مولى بني سليم[٣] من قيس وكنيته أبو عبد الله ، قيل إنه من خراسان من نيسابور[٤] ، إذن فهو نيسابوري الأصل قيرواني[٥] التربية ، رحل أبوه إلى القيروان في جيش محمد بن الأشعث[٦] الخزاعي حين ولاه أبو جعفر المنصور سنة أربع وأربعين ومائة[٧] وأسد إذ ذاك ابن سنتين .

ويروى عن أسد أنه قال : « دخلت مع أبي القيروان[٨] في جيش ابن الأشعث فأقمنا بها خمس سنين ، ثم دخلت مع أبي تونس فأقمت بها تسع سنين ، فلما أنهيت ثماني عشرة سنة تعلمت القرآن في قرية على وادي بجردة » وأضاف أسد كلامه «ورأت أمي بها كأن حشيشاً نبت على ظهري ترعاه البهائم،

---

(١) الدباغ : المصدر السابق جـ ١ ص ٣١٧ .
(٢) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ١٥٦ .
(٣) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٦٥ .
(٤) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ١٧٢ .
(٥) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ١ ص ١٧٢ .
(٦) ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ٢ ص ٣٨٠ .
(٧) الدباغ : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣ .
وكان أسد يقول « أنا أسد والأسد خير الوحوش وأبي الفرات ، والفرات خير الماء ، وجدي سنان ، والسنان خير السلاح » ولد أسد في مدينة نجران التي قيل عنها أول مدينة بنيت على وجه الأرض بعد الغرق .
(٨) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ١٧٣ .

فعبرت رؤياها عند معبر ، فقال : سوف يكون عند هذا الغلام علم يحمل عنه »[١] .

ثم خرج أسد إلى العراق[٢] والمشرق فلقي مالكاً وواظب على حضور مجالسه وسمع منه الموطأ ثم ارتحل أسد إلى العراق في طلب الحديث[٣] فلقي أصحاب أبي حنيفة أمثال أبي يوسف[٤] وأسد بن عمر ومحمد بن الحسن ، ثم انتقل إلى مصر[٥] بعد وفاة الإمام مالك عام ١٧٩ هـ للتزود بالعلم من كبار علماء وفقهاء المذهب المالكي ، وتلاميذ الإمام مالك أمثال ابن القاسم وابن وهب وأشهب وغيرهم ، وعن طريق إجابات ابن القاسم وضع أسد بن الفرات كتابه المعروف بالأسدية وهو يقال عبارة عن ست وثلاثين ألف مسألة[٦] أخذ منه سحنون بعد ذلك في كتابه المدونة الكبرى بعد أن عدل فيها وزاد في أحكامها نقلاً على لسان ابن القاسم العتقي .

وقد اقتصر الناس في إفريقية والمغرب على التفقه في كتب سحنون نتيجة إمعانه في كتاب الأسدية[٧] فغير نظرتها وهذبها وبوبها ودونها ، وألحق فيها من

---

(١) ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ٢ ص ٣٨٠ .

(٢) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١٧٣ .

(٣) الشيرازي : طبقات الفقهاء ص ١٣٢ .

(٤) هو يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الكوفي سمع وتفقه من عطاء بن السائب وهشام بن عروة . قال المزني عنه : أبو يوسف أتبع القوم للحديث . وقال ابن معين : ليس في أصحاب الرأي أحد أكثر حديثاً ولا أثبت منه ، ومن آراء أبي يوسف « من طلب غرائب الحديث كذب ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ، ومن طلب الدين بالكلام تزندق » ، وقال أيضاً : الخصومة والكلام جهل ، والجهل بالخصومة والكلام علم أسنده في ذم الكلام ، مات أبو يوسف عام ١٨٢ هـ عن ٦٩ عاماً .

ابن النديم : الفهرست ٢٠٣ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٠٣ ، الشيرازي : طبقات الفقهاء ١٣٤ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ٢٩٨ ، السيوطي : طبقات الحفاظ ١٢١–١٢٢ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٩٢ ، ميزان الاعتدال جـ ٤ ص ٤٤٧ .

(٥) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٦٦ ، أبو العرب : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤ ، ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ ق ٣ ص ٧٤٢ .

(٦) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ١ ص ٢٩٨ .

(٧) محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ص ١٥٤ .

خلافات أصحاب مالك في شتى المسائل الفقهية ، وقيل إن أبا القاسم قال عن الأسدية « اللهم لا تبارك في الأسدية فهي مرفوضة »[(١)] وقيل أيضاً كان أسد ابن الفرات هو أول من نشر مذهب مالك في القيروان[(٢)] معتمداً على موطأ الإمام كما رواه عنه ، وهو أول من وضع أسس المدرسة المالكية بكتابه الأسدية الذي لم يزل عمدة الدارسين لمذهب مالك في المغرب .

لما قدم أسد بن الفرات من المشرق نزل القيروان[(٣)] فسمع منه وجوه أهلها والمعروفون بصحبته كسحنون وأمثاله من أهل عصره مثل عمرو بن وهب[(٤)] وسليمان بن عمران ومحمد بن قادم وابن المنهال وكل من يؤمن بقول الكوفيين[(٥)] ، ورحل الناس إليه من شتى بقاع البلدان فسمعوا فيه وتفقهوا به ، فذكر عن عبد الخالق المتعبد أنه جاء إلى أسد يوماً وقال له « يا أبا عبد الله جئتنا بالرأي وتركت الآثار وما كان عليه السلف » فرد عليه أسد « أما علمت يا عبد الخالق أن قول أصحاب النبي ﷺ هو رأي لهم وهو أثر لمن بعدهم ، وكذلك للتابعين هو رأي لهم وأثر لمن بعدهم »[(٦)] .

وكان أسد بن الفرات ثقة لم يقذف ببدعة ، فقد قيل إن أسداً يقول بخلق[(٧)] القرآن فدافع عنه تلميذه قال « والله ما قاله »[(٨)] وكان أسد أعلم العراقيين بالقيروان كافة[(٩)] ومذهبه السنة لا يعرف غيرها ، وكان أسد إذا سرد أقوال العراقيين يقول له مشايخ المدنيين : أوقد القنديل الثاني يا أبا عبد الله ، فيسرد[(١٠)] أقوال المدنيين .

---

(١) الشيرازي : المصدر السابق ص ١٣٢ .
(٢) الحبيب الجنحاني : القيروان ص ١٥٥ .
(٣) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٧٢ .
(٤) الدباغ : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٧ .
(٥) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ١٨٠ .
(٦) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ١٨٢ .
(٧) أبو العرب : المصدر السابق ص ٨٢ .
(٨) الدباغ : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٨ .
(٩) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ١٨٣ .
(١٠) ابن أبي السراج : المصدر السابق جـ ١ ق ٣ ص ٧٥٠ .

نال عبد الله بن غانم إعجاب أسد بن الفرات ، فكان يشاوره حتى قال عن أسد « ما أحب أن أشاور في هذا البلد غير هذا الفتى »[١] وكان ابن غانم يقول « ضربنا في طلب العلم آباط الإبل واغتربنا في البلدان ولقينا العلماء ، وغيرنا إنما طلب العلم خلف كانون أبيه ووراء منسج أمه ، ويريدون أن يلحقوا بنـــا »[٢] .

تقلد أسد بن الفرات منصب القضاء للأمير زيادة الله الأغلبي[٣] شريكاً لأبي محرز الكناني سنة ٢٠٣ هـ[٤] وهذا أول مرة يحدث في تاريخ مصر من الأمصار الإسلامية ، فقد كان أسد أغزر علماً وفقهاً ورأياً وصوباً عن أبي محرز ، وظل الحال حتى ثار منصور الطنبدي[٥] وجماعة الجند على زيادة الله وحاصروه في القصر القديم[٦] نحو اثنى عشر عاماً ، وملك منصور مدينة القيروان وإفريقية ثم انهزم منصور الطنبدي في شهر رمضان سنة ٢١١ هـ ورجع إفريقية مرة ثانية للأغالبة .

منح زيادة الله[٧] إمارة الجيش الأغلبي في فتح صقلية[٨] للقاضي أسد بن الفرات ليكسب هذه الحملة الصبغة الدينية السياسية فخرج أسد من مدينة

---

(١) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٧٥ .

(٢) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ١٨٣ .

(٣) الباجي المسعودي : الخلاصة النقية في أمراء إفريقية ٢٧ ، ابن الأثير الكامل في التاريخ جـ ٦ ص ٢٣٣-٢٣٦ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار المغرب جـ ١ ص ١٢٤ .

(٥) ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ٢ ص ٣٨١ .

(٦) ابن عذارى : المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٠ .

لم يبق بيد زيادة الله من إفريقية كلها إلا قابس والساحل ونفزاوة وطرابلس فإنهم تمسكوا بطاعته .

(٧) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١٨٧ ، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١١٢ .

(٨) وكانت صقلية من أملاك الدولة البيزنطية وهي مسرحاً للصدام المباشر بين الروم والعرب على مر العصور .

ابن خلدون : المصدر السابق جـ ٤ ص ١٨٩ ، الدكتور علي حسني الخربوطلي : البحر المتوسط بحيرة عربية ص ٥٤ .

سوسة[١] ليتوجه منها إلى صقلية ، وخرج معه وجوه[٢] أهل العلم والناس يشيعونه ، وأمر زيادة الله ألا يبقى أحد من رجاله إلا شيعه فخرج أسد في شهر ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ وهو في عشرة آلاف[٣] منهم تسعمائة فارسي ، فظفر بكثير منها ، وتوفى أسد في حصار مدينة سرقسطة[٤] (سرقوسة) سنة ٢١٣ هـ[٥] ، وكتب زيادة الله إلى المأمون يخبره بفتح صقلية على يدي أسد بن الفرات .

* * *

(١) سوسة : مدينة ومرفأ في تونس أسسها الفينيقيون من قديم الزمان وكان اسمها هدروميتوم ، اشتهرت سوسة في العصور الإسلامية بصناعة الغزل والنسيج ، وإليها تنسب الثياب لسوسية الرفيعة ذات البياض الناصع وصناعة السفن .

البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٣٤-٣٦ ، مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ص ١١٩ ، القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٢١ ، السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٣٧ ، السيد عبد العزيز سالم ـــ أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب الأندلسي ص ١٠٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٢٠ .

ذكر الدباغ رواية حول تقلد أسد منصب القضاء قال « أصلح الله الأمير ـــ من بعد القضاء والنظر في الحلال والحرام تعزلني وتوليني الإمارة » فقال له زيادة الله : إني لم أعزلك عن القضاء إلا وقد وليت الإمارة وهى أشرف من القضاء ، وأبقيت لك اسم القضاء ، فأنت قاض أمير .

الدباغ : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٢ .

(٣) ابن الأبار : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٨١ .

(٤) (سرقوسة) **Syracus** بفتح أوله وثانيه وهي من أكبر مدن صقلية وعاصمتها قديماً وتقع على ساحلها الشرقي وقد وصفها الإدريسي بقوله « البحر محدق بها دائر بجميع جهاتها ـــ والدخول إليها والخروج عنها على باب واحد وهو بشمالها ، وبها مرسيان أحدهما أكبر من الآخر وهو بجنوبها والآخر أشهر وهو بشمالها .

الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص ٣٦ ، اليافعي : المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٦ ، الذهبي : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٦٤ .

(٥) ابن الأبار : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٨١ ، الدباغ : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥-٢٦ ، المالكي : المصدر السابق ص ٨٣ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٩٨ ، القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٨٠ ، النويري : نهاية الأرب جـ ٢٤ ص ١١٥ ، القلقشندي : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٢٠ .

الباب الثاني

سحنون ومجتمع الأغالبة

الفصل الأول : ملامح شخصيته .

الفصل الثاني : موقفه من الأغالبة .

الفصل الثالث : سحنون القاضي .

الفصل الرابع : سحنون بين معاصريه .

الفصل الأول

ملامح شخصية سحنون
ودوره في الحياة العامة في إفريقية

ملامح شخصية سحنون
ودوره في الحياة العامة في إفريقية

كان لنشأة وتربية سحنون بن سعيد أثر كبير في تكوين شخصيته التي تميزت عن أخيه حبيب بن سعيد ، فقد أخذ سحنون من أبيه سعيد بن حبيب التنوخي عدة صفات ساعدت في إبراز شخصيته القوية على الظهور في المجتمع الإفريقي الأغلبي ، فمن هذه الصفات الصرامة[1] والحزم والورع والتقوى والزهد وقوة الرأي .

وعندما درس سحنون بن سعيد الفقه في بداية حياته على يد كبار مشايخ وعلماء إفريقية ، تنبأ له كبار الفقهاء والعلماء بمستقبل باهر وخاصة الفقيه البهلول بن راشد وعلي بن زياد التونسي ، كذلك أعجب فقهاء مصر والمدينة ومكة بشخصية سحنون ، فعرض عليه الفقيه المصري المالكي عبد الرحمن بن القاسم[2] ومعلم سحنون الأول للفقه المالكي البقاء بمصر للدراسة والتدريس في آن واحد ، ولكن سحنون فضل الرجوع[3] إلى موطنه إفريقية .

وقد تعددت الأخبار والروايات عن صفات شخصية سحنون وخصائصه ، فقال أبو العرب التميمي « كان سحنون ثقة ، حافظاً للعلم ، فقيه البدن ، اجتمعت فيه خلال قلما اجتمعت في غيره ، الفقه البارع والورع الصادق ، والصرامة في الحق ، والزهادة في الدنيا ، والتخشن في الملبس والمطعم ، والسماحة ، وكان لا يقبل من السلاطين شيئاً ، وربما وصل أصحابه بالثلاثين ديناراً أو نحوها »[4] . بينما قال المالكي « وكان مع هذا رقيق القلب ، غزير الدمعة ، ظاهر الخشوع ، متواضعاً قليل التصنع ، كريم الأخلاق ، حسن الأدب سليم الصدر للمؤمنين ، شديداً على أهل البدع ،

---

(١) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٠١ .
(٢) السيوطي : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٠٣ .
(٣) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٥٤ .
(٤) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٠١-١٠٢ .

لا يخاف في الله لومة لائم ، انتشرت إمامته في المشرق والمغرب ، وسلم له الإمامة أهل عصره ، واجتمعوا كلهم على فضله وتقدمه »[١] . وذكر الفقيه عيسى بن مسكين عن أستاذه « لم يكن بين مالك وسحنون أفقه من سحنون »[٢] « سحنون راهب هذه الأمة »[٣] وقال أبو الحسن القابسي « إني لأجد في نفسي من خلاف سحنون لمالك ما لا أجده من خلاف ابن القاسم لمالك »[٤] وقال محمد بن وضاح « وكان سحنون يروي تسعة وعشرين سماعاً ،وما رأيت في الفقه مثل سحنون في المشرق»[٥] وقال سعيد بن الحارث «جالست الناس بهذا منذ بلغت ما رأيت أجود غزيرة من سحنون»[٦].

وقد ألف أبو العرب التميمي كتاباً مفرداً[٧] عن حياة سحنون وفضائله وهو مفقود ، وقال الفقيه محمود بن يزيد « أول ما تعلمت مسائل الصلاة من سحنون ، وإن قلت إن سحنون أفقه من أصحاب مالك كلهم إني لصادق »[٨] .

وقال أبو العرب : « كل من لقيت من أصحاب سحنون الذين سمعوا منه ، وسمعنا منهم عشرات من مشاهير الفقهاء والشيوخ منهم يحيى بن عمر وحبيب وابن مسكين وابن أبي سليمان وابن سالم وابن الحداد وحمديس وغيرهم »[٩] قال أبو يزيد بن أبي الغمر : « لم يقدم علينا أحد أفقه من سحنون إلا أنه قدم علينا من هو أطول لساناً منه ، يعني ابن حبيب »[١٠] وقال

(١) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٤٩ .
(٢) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٥٤ .
(٣) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ٨٤ .
(٤) الخشني : المصدر السابق ص ٣٠٥-٣٠٦ .
(٥) الدباغ : المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٢ .
(٦) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٢ ص ٥٩١ .
(٧) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٠٢ .
(٨) الدباغ : المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٢ .
(٩) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٠٣ .
(١٠) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٥٧ .

يونس بن عبد الأعلى : « هو سيد أهل المغرب ، فقال له حمديس القطان : أولم يكن سيد أهل المشرق والمغرب ؟ قال : قد كان رجلاً نبيلاً فاضلاً خيراً من شأنه ، فأثنى عليه ورفع به »[١] قال سليمان بن عمران : « إذا سألت أسداً عن مسألة أجابني من بحر عميق ومعنى جوابه زد في سؤالك ، وكان العلم في صدر سحنون كسورة في القرآن من حفظه ، وكان سحنون رجلاً صالحاً »[٢] .

وقال سحنون عن نفسه : « إني حفظت هذه الكتب حتى صارت في صدري كأم القرآن ، ثم كبرت سني وضعفت قوتي ، وأحسست الضعف ، وأخاف أن يكون قد خالطني في عقلي مثل ما أصابني في قوتي ، أفتريد أن نشككني في هذا »[٣] .

وقال الفقيه سعيد بن الحارث : « كان أبو سعيد عاقلاً بمرة وورعاً بمرة ، عالماً بمذاهب المدنيين بمرة . وقال : جالست الناس بهذا البلد منذ بلغته ما رأيت أجود غزيرة من سحنون »[٤] .

وقد وصف لنا الفقيه محمد بن الحارث حياة وعلم وشخصية سحنون فقال : « كانت إفريقية قبل رحلة سحنون قد غمرها مذهب مالك بن أنس لأنه رحل إليها أكثر من ثلاثين رجلاً ، كلهم لقى مالك بن أنس وسمع منه أن كان الفقه والفتيا إنما كان في قليل منهم كما ذلك في علماء البلاد ، ثم قدم سحنون بذلك المذهب ، واجتمع له مع ذلك فضل الدين والعقل والورع والعفاف والانقباض ، فبارك الله فيه للمسلمين ، فمالت إليه الوجوه وأحبته القلوب ، وصار زمانه كأنه مبتدىء قد امحى ما قبله ، فكان أصحابه سرج أهل القيروان ، فرأيته عالمها وأكثرهم تأليفاً ، وابن عبدوس فقيهها ، وابن غانم

(١) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٩٠ .
(٢) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ٨٢ .
(٣) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٩٠ .
(٤) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٢ ص ٥٩١ .

عاقلها ، وابن عمرو حافظها ، وجبلة زاهدها ، وحمديس أصلبهم في السنة وأعزلهم للبدعة ، وسعيد بن حداد لسانها وفصيحها ، وابن مسكين أرواهم للكتب والحديث ، وأشهدهم للوقار وتصاونا لكل هذه الصفات مقصورة على وقتهم »[١] وقال حمديس : « رأيت أبا المصعب الزهري صاحب مالك بالمدينة ، ورأيت أصحاب ابن القاسم بمصر ، وأصحاب ابن وهب وأشهب ، ورأيت بمكة علماء من أهل بغداد ، فوالله ما رأيت فيهم مثل سحنون ولا مثل ابنه محمد بعده »[٢] .

وقال بعض الفقهاء : « دخلت على بعض الملوك وكلمتهم فما رأيت أحداً أهيب في قلبي من سحنون »[٣] وقال الخشني : « سحنون إمام الناس في علم مالك ، وكان فاضلاً عادلاً مباركاً ، أظهر السنة وأخمد البدعة وثقف رسوم القضاء بعقله وعلمه »[٤] . وقال الفقيه سالم بن سليمان في مجالسه عن سحنون : « دخلت مصر ورأيت العلماء فيها متوافرين والمدينة ومكة بها ثلاثة عشر محرابا ، فما رأيت فيهم مثل سحنون وابنه بعده »[٥] .

صفوة القول أن سحنون كان في نظر الأفارقة والمغاربة وخاصة الطبقات المتوسطة الحال ناصرهم وحاميهم ضد ظلم الأمراء تارة وضد بعض أصحاب السلطة والنفوذ تارة أخرى ، فكان الناس في القيروان ينتظرون بشغف ولهفة[٦] مجالس سحنون لكي يعرضوا عليه مظالمهم ومشاكلهم التي كانت تتعلق بحياتهم اليومية . ولسحنون بن سعيد عدة مواقف مع الأمراء وسوف نوضحها بالتفصيل في الفصل القادم بإذن الله تعالى . لكن هناك نقطة مهمة يجب أن نذكرها وهي أن سحنون كان لا يهاب[٧] ولا يخشى قوة أو سلطة . وكان

(١) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ٨٣ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٩٢ .
(٣) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٩٢ .
(٤) الخشني : المصدر السابق ص ٢٩٦ .
(٥) الدباغ : المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٣ .
(٦) الحبيب الجنحاني : القيروان ص ١٦٨ .
(٧) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٧٩ .

يقول : « من فقه الرجل مطعمه ومشربه ومدخله ومخرجه وصحبته لأهل الخير ، وليست العبادة بمطأطأة الرأس »[١] . وقيل لسحنون بحضرة أبي سليمان : « يا أبا سعيد ، كيف يسعك في دينك أن تدع الطلبة وحاجتهم إليك وتخرج إلى البادية فتقيم بها الشهور الكثيرة ؟ » فقال : « يا أبا سليمان تريد أن ترى كتبي في هذا الغدير » ؟ وأشار إلى ما بين يديه — فقال له أبو سليمان : « وكيف ذلك » قال أحتاج إلى دراهم هؤلاء القوم — يريد الملوك — فآخذها فإذا أخذتها فارموا كتبي في هذا الغدير »[٢] . أيضاً مما يدل على أثر سحنون في الحياة العامة وشدة حب الناس له ، أنه لما مات سحنون رجت إفريقية والعالم الإسلامي كله وحزن الناس . قال سليمان بن سالم[٣] : لقد رأيت يوم مات سحنون مشايخ من أهل العلم يبكون ويضربون خدودهم كالنساء ، ويقولون : يا أبا سعيد ليتنا تزودنا منك نظرة نرجع بها إلى بلدنا . وقال رجل لسحنون : يا أبا سعيد ، الناس يقولون إنك دعوت الله أن لا يبلغك سنة (أربعين ومائتين) فقال : ما فعلت ، ولكن الناس يقولونه وما أرى أجلي إلا فيها .

* * *

---

(١) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٥٧ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٩٨ .
(٣) السراج : المصدر السابق جـ ١ القسم الثالث ص ٨٠٥ .

الفصل الثاني

موقف سحنون بن سعيد من الأمراء الأغالبة

موقف سحنون بن سعيد من الأمراء الأغالبة

ولد الفقيه سحنون بن سعيد قبل قيام دولة الأغالبة أو إمارة الأغالبة بربع قرن تقريباً ، ومن المعروف أن الأغالبة ولاة[1] إفريقية للعباسيين وممثلو المذهب السني في نفس الوقت في إفريقية ، وكانوا يحكمون البلاد حكماً مطلقاً[2] تقريباً كأنهم أمراء مستقلون مع احتفاظ الخلافة العباسية بحق الرقابة والتعيين الاسمي[3] للأمراء من أسرة بني الأغلب وتعيين القضاة .

لم يكن لسحنون نشاط يذكر في علاقته مع المهالبة ، بل كان طوال حياته كلها سواء مع المهالبة أو الأغالبة أن يكون وسيطاً بينهم وبين الناس وشبه رقيب شرعي على الناس دون أن يكون خارجاً على سلطانهم . ومن هذه الناحية كان سحنون يتشبه إلى حد كبير بمالك بن أنس ، فقد كان مالك صديقاً[4] لخلفاء بني العباس ، دون أن يكون خاضعاً لهم خضوعاً مطلقاً كما كان غيره من الفقهاء يعملون هذا ، وكان مالك لا يتقاضى[5] من أموال الخلفاء أو العمال شيئاً ، وكذلك كان سحنون لا يتقاضى أي راتب أو مال منتظم من الأمراء ، وهذا لا يمنع من القول أنه كان سياسياً لبقاً لا يرفض أموال الأمراء لأنه يعتبر نفسه وسيطاً بين أمراء الأغالبة وجمهور إفريقية ، وكان شعور الأغالبة أن سحنون يتعالى عليهم .

وفي أيام المهالبة كان سحنون منصرفاً كلية لدراسة الفقه وطلب العلم

---

(١) ليفي بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ص ١٠٤ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٠٣ .
(٣) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٠٢ .
(٤) الدباغ : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٧٧ .
(٥) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٨٠ .

مبتعداً عن السلطة والإدارة والأمراء ، ثم قام برحلته المشهورة إلى المشرق لأخذ فقه مالك من صاحبه إمام دار الهجرة ، ولكنه لم يتمكن من التتلمذ على مالك لوفاته أثناء دخول سحنون المدينة بفترة قصيرة ، فتفقه على كبار تلاميذ مالك وخاصة أصحاب المدرسة المالكية المصرية التي أسسها عبد الرحمن بن القاسم[١] وأشهب وابن وهب .

عاصر سحنون بن سعيد خمسة من أمراء الأغالبة هم إبراهيم بن الأغلب مؤسس إمارة الأغالبة ، وأبو العباس عبد الله بن إبراهيم ، وزيادة الله بن إبراهيم ، وأبو عقال بن إبراهيم ، وأبو العباس محمد بن إبراهيم . بدأ نجم سحنون يسطع عند الأمراء وخاصة بعد أن رجع من رحلته وانصرف إلى التعليم في مسجد القيروان ، وعقد مجالس المناظرات والمناقشات في المسجد[٢] التي كان يحضرها الفقهاء كباراً وصغاراً وتدور فيها المساجلات ، وفي هذه المناقشات كان سحنون يبدي آراءه ويناظر إخوانه بكفاءة عظيمة ويتميز بعلمه ، فتبين لأهل إفريقية أن بينهم فقيهاً جليلاً يرجى له مستقبل باهر ، وبدأ اسمه يشتهر وأخذ احترام العلماء له يتزايد ، وكانت أخبار سحنون تصل إلى قصر الأمير الأغلبي أولاً بأول لأنه كان هناك نفر من الفقهاء يتقربون إلى أمراء بني الأغلب بنقل أخبار الناس وما يجري في المسجد من مناقشات ، وقد اشتهر بذلك الفقيه محمد بن أبي الجواد الذي تقلد ولاية القضاء لزيادة الله بن إبراهيم الأغلب ثالث أمراء البيت الأغلبي ، وكان سحنون إذ ذاك شاباً .

ومما جعل بني الأغلب يهتمون بهذا الفقيه هو ما أثاره علمه وآراؤه وبلاغته وتصديه للحق ، فازدادت مخاوف قلب الأمير الأغلبي الذي اهتم بأن يضع المصاعب في طريق سحنون ويحيل بينه وبين رياسة مشيخة أهل الفقه والعلم في بلاد إفريقية كما سنرى .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٠٥ .

(٢) السفطي : المصدر السابق ص ٤ .

في عهد الأمير زيادة الله بن الأغلب أمر ذات مرة بضرب سحنون خمسمائة[١] سوط عقاباً له على موقفه من قاضي القيروان[٢] آنذاك محمد بن أبي الجواد ، فقد رفض سحنون أن يصلي وراءه في إحدى الجنائز[٣] ، فشكى القاضي للأمير زيادة الله فأرسل أحد عماله لتنفيذ هذا الأمر ، لكن تدخل الوزير علي بن حميد[٤] فمنع ذلك الأمر .

وحول موقف سحنون وسياسته نحو الأمراء ورجالهم بعد توليه القضاء عام ٢٣٤ هـ أيام أبي العباس محمد بن إبراهيم ، قال أبو العرب : « وكان لا يهاب سلطاناً في حق يقيمه عليه »[٥] ولما أكثر سحنون من رد الظلامات[٦] من رجال ابن الأغلب أيام ولايته في القضاء في عهد أبي العباس محمد بن الأغلب ، وأبى سحنون أن يقبل من رجال البيت الأغلبي والولاة منهم الوكلاء في الخصومات[٧] وأصر على أن يحضروا بأنفسهم ، وجه إليه الأمير — وقد شكوه إليه بأنه يغلظ عليهم ، فأرسل إليه ابن الأغلب ، وقال : « إن فيهم غلظة وقد شكوك ورأيت معافاتك من شرهم ، فلا تنظر في أمرهم »[٨] . فقال سحنون للرسول : « ليس هذا الذي بيني وبينه ، قل له خذلتني خذلك الله »[٩] فلما أنهى الرسول الرسالة إلى الأمير قال : ما نعمل به ؟ إنما أراد الله ، فتركه .

ومن مواقف سحنون القاضي من أمراء بني الأغلب ، ذكر أبو العرب : « أتى زوكاي بن رزيغ من بعض الحروب التي كانت بإفريقية بعدة حرائر

---

(١) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٨٥ .
(٢) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ٩٣ .
(٣) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٨٥ .
(٤) الدباغ : المصدر السابق جـ ٢ ص ٩٣ .
(٥) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٠٢ .
(٦) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٠٠ .
(٧) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٧٩ .
(٨) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ٩٤ .
(٩) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٢ ص ٦٠٣ .

أسيرات ، فأخبر سحنون أن زوكاي أدخل سبع عشرة من سبي الجزيرة قرشيات وعربيات ، فأرسل سحنون إلى جميع النواحي والأقطار ، فاجتمع إليه ألف رجل ، فقال لهم : تخيروا لي من أحداثكم مائتي شاب أريدهم لأمر يأجرني الله عليه ، فاختاروا ما أمرهم »[١] فلما صلى سحنون العشاء أمرهم بالمضي إلى دار زوكاي وأخرج القرشيات اللواتي سبيت من الجزيرة ، وطلب منهم بقتل زوكاي إذا تعرض لهم واستطاعوا إطلاق سراح القرشيات بينما ذهب[٢] زوكاي إلى الأمير الأغلبي أبي العباس محمد بن إبراهيم يشكو إليه ما بادر من سحنون . فأرسل الأمير إلى سحنون يطلب منه إعادة الحرائر إلى زوكاي ، لكن سحنون رفض هذا الطلب بشدة وهدد بترك ولاية القضاء ، وقال لرسول الأمير : « بلغ الأمير بالله الذي لا إله إلا هو لا أخرجهن من داري حتى يعزلني ويعلم الله أني لا نظر لي ولا قضاء على رجلين »[٣] وخرج ابنه محمد ليخبر رسول الأمير بما قاله سحنون ثم ذهب إلى قصر الأمير ، وقال له : « جعل الله زوكاي شفيعك يوم القيامة »[٤] فغضب الأمير في بداية الأمر من قول سحنون ، واستدعى ابنه محمد وأذن له بالدخول وقال له : « ما يقول الشيخ والدك »[٥] فرد عليه محمد بن سحنون بقوله : « يطلب الله في أن يعفيه الأمير من القضاء وهذا سجله بعث به لتولي أمر المسلمين من تراه »[٦] فقال له الأمير : « اقرأ على الشيخ السلام ، وقل له جزاك الله عن نفسك وعنا وعن المسلمين خيراً ، فقد أحسنت أولاً وأخيراً ، وقمت بما يجب عليك ، امض على أحسن نظرك إن شاء الله »[٧] . ثم عاد محمد إلى أبيه فشكر الله على موقفه ، واجتمع وجوه أهل القيروان وشكروا له سعيه ، فقال لهم

(١) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٣١٠ ج.
(٢) الدباغ : المصدر السابق جـ ٢ ص ٩٢ .
(٣) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٦٧ .
(٤) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٠٣ .
(٥) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ٩٢ .
(٦) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ ص ٧٩٠ ق ٣ .
(٧) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٨٤ .

سحنون : « تقدموا إلى باب الأمير فاشكروه . فأدخلهم أبو العباس ، ووقع ذلك بالموافقة »[١] .

وقيل إن محمد بن سحنون وقف على منبر أبيه وقال : « أشهد على صاحب هذا المنبر أني سمعته يقول : لتخف علينا مؤنة من لا يصل إلى دارنا حتى يقضي الله فينا »[٢] .

لم تعرف إفريقية وظيفة المحتسب[٣] والمحتسبين إلا في عهد سحنون ، فيعتبر سحنون أول من قام بوظيفة المحتسب ، وقام بها عنه نواب مختصون بالحسبة ، وأثناء جلوس سحنون على باب داره[٤] مر به حاتم الجزري[٥] وهو أحد القادة العسكريين ومعه سبي من سبي تونس ، فأمر سحنون أصحابه وأتباعه بإحضار القوم وخلصهم من يد حاتم الجزري ، وأتوا بهم لسحنون ، فهرب حاتم الجزري إلى الأمير فشكا أمره ، فبعث إليه الأمير : « أن اردد إلى حاتم السبي »[٦] فقال سحنون : « إنهم أحرار ولا سبي عليهم وقد أطلقتهم »[٧] فرد الأمير عليه : « لابد من ردهم »[٨] فأبى سحنون وقال للرسول : « قل للأمير جعل الله حاتم شفيعك يوم القيامة »[٩] وأقسم عليه ليبلغن ذلك الأمير ، ثم أضاف سحنون كلامه قائلاً : « وهذا الأسود يعني حاتم الجزري يمضي هكذا »[١٠] وأمر سحنون بن سعيد بوضع حاتم الجزري في السجن ، وكاد يحدث صدام بين الأمير والقاضي سحنون لولا تدخل معتب بن أبي الأزهر » .

---

(١) الدباغ : المصدر السابق جـ ٢ ص ٩٢ .
(٢) المالكي : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٨٥ .
(٣) ابن السراج : الحلل السندسية في الأخبار التونسية جـ ١ قسم ٣ ص ٧٨٥ .
(٤) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٦٤ .
(٥) محمد إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة ص ٣٧ .
(٦) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ قسم ٣ ص ٧٨٦ .
(٧) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٠٣ .
(٨) الخشني : قضاء قرطبة وعلماء إفريقية ص ١٣١ .
(٩) الدباغ : المصدر السابق جـ ٢ ص ٩٠ .
(١٠) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٠٣ .

أيضاً من الأزمات التي وقعت بين سحنون والأمير محمد بن الأغلب لما ثار القويبع[١] على الأمير أبي العباس محمد بن الأغلب ، قال بعض قواد الجند لأميرهم : « اليوم ستتمكن من سحنون ، إما يخسر دينه أو دنياه »[٢] فقالوا للأمير : « إن سحنون داعية مطاع فمره ينصرك على هذا الخارجي »[٣] . فأرسل إليه الأمير يأخذ منه الأمر والاستشار في قتال القويبع ، فكان رد سحنون هذه العبارة : « غشك من دلك على هذا ، متى كانت القضاة تشاورها الملوك في صلاح سلطانها »[٤] .

كذلك من المواقف التي قام بها سحنون نحو الأمير محمد بن الأغلب أنه قيل لسحنون إن منصور الطنبذي[٥] دخل تونس بالحرائر ، فأمر سحنون بأخذها منه ، فذهب منصور للأمير يشكو إليه بعد أن شق ثيابه[٦] ، فأرسل الأمير إلى سحنون مرة وأكثر ، ولكن سحنون كان مصمماً على ألا يترك شيئاً لمنصور الطنبذي : « يا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار »[٧] .

وعندما بدأت محنة القرآن في الدولة الإسلامية واشتد خطرها وخاصة في عهد المعتصم وبالتحديد في عام ٢١٨ هـ كان لسحنون موقف . فقد كان هدف هذه المحنة التخلص من الفقهاء والعلماء المعارضين لسياسة الدولة العباسية ، وكان وقتذاك على إفريقية أحمد بن الأغلب الذي أراد أن يطبق نفس هذه السياسة مع فقهاء وعلماء إفريقية . فلما علم سحنون بمحنة القرآن توجه فاراً إلى بيت الفقيه عبد الرحيم[٨] الزاهد ، وكان عبد الرحيم مقيماً في قصر

---

(١) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ قسم ذ ص ٧٨٧ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٠٤ .
(٣) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٢ ص ٦٠٤ .
(٤) محمد المطلبي : تراجم الأغالبة ص ١١١ .
(٥) هو منصور بن نصر الجشمي من هوازن من ولد دريد بن الصمة ويعرف بالطبنذي نسبة لقرية تعرف بطبنذة (وهي جنوبي تونس) . الحلة السيراء جـ ٢ ص ٣٨٢-٣٨٣ .
(٦) محمد المطلبي : تراجم أغلبية ص ١١١ .
(٧) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ ق ٣ ص ٧٨٩ .
(٨) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٨٥ .

زياد[1] ، وقد وصل رجل يدعى ابن سلطان[2] وكان مبغضاً لسحنون بغضاً عظيماً إلى بيت الفقيه عبد الرحيم لملاقاة سحنون وأخذه للأمير ، فقال ابن سلطان : « وجهني الأمير إليك وقصدني لبغضي فيك ، وقد حالت نيتي عن ذلك وأنا أبذل دمي دون دمك ، فاذهب حيث شئت من البلاد أو أقم فأنا معك »[3] فخرج سحنون وشيعه أصحابه . وقال عبد الرحيم لابن سلطان : « قل للأمير ، أوحشتنا من صاحبنا وأخينا في هذا الشهر العظيم — وكان شهر رمضان — سلبك الله ما أنت فيه وأوحشك »[4] فلما حضر سحنون عند الأمير جمع له قواده وقاضيه محمد بن أبي الجواد وغيره ، ثم سأله القاضي عن القرآن . فقال سحنون . أما شيء أبتدئه من نفسي فلا ، ولكني سمعت ممن تعلمت منه وأخذت عنه كلهم يقولون : « القرآن كلام الله غير مخلوق »[5] فثار محمد بن أبي الجواد « كفر » اقتله ودمه في عنقي »[6] . وقال غيره مثله ممن يرى رأيه . وقال بعضهم : « يقطع أرباعاً ويجعل كل ربع بموضع من المدينة »[7] ويقال هذا جزاء من لم يقل بكذا ، وقد قيل إن الأمير قال لداود بن حمزة : « ما تقول أنت ؟ » قال : « قتله بالسيف راحة »[8] . وذكر أن صاحب هذه العبارة الوزير على بن حميد ومحمد بن أحمد الحضرمي ورجال السنة من أصحاب السلطان .

وذكر رأي آخر أن القاضي محمد بن أبي الجواد هو الذي أمر بأخذ العملاء عليه[9] ، وقال الفقيه سهل : « فدخلت عليه ومعي دراهم أشتري بها

---

(١) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ٩٤ .
(٢) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ ق ٣ ص ٧٩٣ .
(٣) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٦١٠ .
(٤) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ ق ٣ ص ٧٩٣ .
(٥) الدباغ : المصدر السابق جـ ٢ ص ٩٤ .
(٦) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ ق ٣ ص ٧٩٣ .
(٧) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ١١
(٨) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٨٦ .
(٩) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ٩٥ .

ثيابي من الحرس إن أخذوني فعافاني الله ، فقلت : « البدعة فاشية وأهلها أغراء » فقال لي : « أما علمت أن الله إذا أراد قطع بدعة أظهرها »[١] .

وكادت حياة سحنون تذهب ضحية هذه المحنة لولا موت الأمير أبي العباس محمد بن أحمد بزمن قليل .

ويذكر لنا الدباغ الوصف الأخير لمقابلة سحنون الموت فقال : « لما انصرف الحاجب بسحنون ومشوا به ، وبقي بينه وبين القيروان قدر الميل ، وإذا بصوت الغرانيق هول الخيل يخبرهم أن أميركم قد مات »[٢] قال سحنون : فدخلت بحمد الله سالماً[٣] .

خلاصة القول أن سحنون كان دقيقاً في علاقته مع الأمراء الأغالبة ، وهذه كانت سياسة مالك مع الخلفاء العباسيين .

* * *

---

(١) ابن السراج : المصدر السابق جـ ١ ق ٣ ص ٧٩٣ .
(٢) الدباغ : المصدر السابق جـ ٢ ص ٩٥ .
(٣) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٨٦ .

الفصل الثالث
سحنون القاضي

سحنــــون القــــاضي

يعتبر سحنون بن سعيد من أعلام القضاة في تاريخ القضاء في العالم الإسلامي كله ، ويندر أن نجد رجلاً في المغرب في عصر سحنون اشتهر امره بالعلم والفضل ورشحته فضائله لأن يكون قاضياً كما كان سحنون ، فقد كان رجلاً بالفعل إماماً في العلم[1] والفضل ، ومثالاً ينحاز به في الأخلاق والحكمة وبعد النظر وحسن السياسة . وإلى جانب ذلك كان سحنون قبل أن يلي القضاء ومنذ أن ظهر أمره في المجتمع الأغلبي مفتياً يستشيره الأمراء والناس في شئون الدين والدنيا مفتياً بالرأي الصائب .

لم تقتصر شهرة[2] سحنون على إفريقية بل انتشرت مدونته في بلاد الإسلام كلها ، فكان معروفاً في مصر والحجاز والشام وبلاد المغرب والأندلس ، وقد سبق أن ذكرنا[3] سبعة من كبار الفقهاء من بلدة إسلامية واحدة وهي البيرة فقد كانوا جميعهم تلاميذ سحنون .

وإذا كان سحنون لم يل القضاء إلا وهو في سن الرابعة والسبعين من عمره[4] ، كان في الحقيقة غير راغب فيه (كما يقول تلاميذه) وكان مذهبه في ذلك هو مذهب كبار فقهاء المالكية من البعد عن الوظائف والانصراف إلى العلم حتى يحافظ على هيبتهم بين الناس ، كما كان الحال مع شيخهم مالك ابن أنس .

وقد ذكرنا في الفصول السابقة ما كان من أمر سحنون وعلو شأنه واجتهاده في المحافظة على سمته ومكانته بين الناس وزهده في القضاء ، ومن

---

(١) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٦٤ .
(٢) الحبيب الجنحاني : القيروان ص ١٥٦ .
(٣) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ص ٣٠ .
(٤) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٢ ص ٥٩٥ .

البديهي أن كل فقيه كبير أو عالِم في عالم الإسلام كانت نفسه تطمح نحو القضاء ، ولكنهم كانوا يخشون مسئولية هذا المنصب الكبير ، وما يترتب عليه من متاعب ، لأن القاضي كان يوضع في ظروف عسيرة لا تمكنه من المحافظة على مثله الأعلى الذي كان عليه أن يحتذيه .

وفي العالم الإسلامي كله كانت الظروف السياسية كلها لا تعين القاضي العادل على القيام بمسئوليات وظيفته ، فكان المتحرزون من أهل العلم والفضل يفضلون البعد عن منصب القضاء والاكتفاء بأن يكونوا من أهل الشورى أي يشاورون في الأحكام والنزول دون[1] أن يكونوا في منصب رسمي يتقاضون عليه أجراً .

وبالنسبة لسحنون نلاحظ أن الظروف في إفريقيه في عهد الأغالبة لم تكن بأحسن مما كانت في غيرها من بلاد الإسلام ، وسحنون كان لابد له بعد أن قبل القضاء من أن يحني رأسه للأمراء أو يصانع الأقوياء وأصحاب السلطان حتى يحتفظ بمنصبه ، وخاصة أن البناء السياسي لدولة الأغالبة لم يكن بناءً سليماً قوياً يعين القضاء على المحافظة على سمته وعدله وسمعته ، فإن أمراء بني الأغلب كانوا في جملتهم أصحاب أهواء ، وكان حولهم رجال من العسكر وغيرهم يتمتعون بسلطان كبير يصعب على القاضي أن يتصدى لهم . ويضاف إلى ذلك أن الدولة العباسية كلها تعرضت منذ أيام المأمون لمحنة خلق القرآن ، فقام الخلفاء[2] ورجالهم بامتحان[3] القضاة وإرغام الذين لا يرون القول بخلق القرآن على التسليم بذلك ، وخاصة إذا كانوا من أهل المناصب كالقضاة والمحتسبين .

---

(١) الحبيب الجنحاني : القيروان ص ١٥٨ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٤٠ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص ٦٣١ .

ولا شك في أن سحنون كان حريصاً على ألا يتولى[1] القضاء في عصر أصرت فيه الدولة على امتحان القضاة وأهل الفقه وأرغمتهم على اتباع هذا المذهب الذي نفر منه عامة أهل السنة نفوراً شديداً ، فإذا كان سحنون قد ابتعد عن القضاء فقد كان ذلك بُعد نظر منه ومحافظة على نفسه .

ومن الأخبار التي لدينا نفهم أن أصحاب سحنون كانوا يروون أن ابتعاده عن القضاء معدود[2] من محاسنه وميزاته ، وأن توليه القضاء يعتبر في رأيهم هبوطاً بقدر نفسه وتعريض نفسه لما لا يحب . ونفهم هذا من خطاب تلقاه سحنون من أحد تلاميذه ، ونورد الخطاب بنصه ورد سحنون عليه ، لكي تتضح أمامنا الصورة .

فقال عبد الرحيم الزاهد في كتابه إلى سحنون : « أما بعد ، فإني عهدتك وشأن نفسك عليك مهم ، تعلم الخير وتؤدب عليه ، وأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة تؤدبهم على دنياهم ، يذل الشريف بين يديك والوضيع ، قد اشترك فيك العدو والصديق ، ولكل حظه من العدل ، فأي حالتيك أفضل : الحالة الأولى أم الثانية ؟ والسلام »[3] . فرد عليه سحنون « أما بعد ، فإني جاءني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه ، وإني أجيبك : لا حول ولا قوة في شيء من الأمور إلا بالله تعالى ، عليه توكلت وإليه أنيب ، فأما ما كتبت من أنك عهدتني وشأن نفسي على فهم ، أعلم الخير وأؤدب عليه ، وأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أؤدبهم على دنياهم ، فلعمري إن من لم تصلح له دنياه فسدت له أخراه ، وفي صلاح الدنيا إذا صح المطعم والمشرب ، صلاح الآخرة ، فكلا الأمرين متصل بالآخر ، أؤدبهم في معاشهم وأدفع ظالمهم عن مظلومهم ، وأخذهم الأمور من وجوهها أدب لآخرتهم ، لأن بصلاح دنياهم تصلح لهم آخرتهم وبفساد الدنيا تفسد الآخرة »[4] .

---

(١) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٨٦ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٠١ .
(٣) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٧٤ .
(٤) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٧٨ .

لم يتطلع سحنون بن سعيد في ظاهر الأمر لتقلد منصب قاضي إفريقية لأنه كان غير راغب — كما يقول تلاميذه ومن كتب عنه — في هذا المنصب إذ أن أمنية سحنون كانت في خدمة العلم ونشر مذهب مالك دون الانتظار حسبة في الله تعـالى .

وقد قيل إن سحنون مر يوماً في أحد الأسواق فوجد ظلماً[١] وقع من قاضي إفريقية آنذاك محمد بن أبي الجواد ، والذي كان يضمر لسحنون كل الحقد والكراهية ، فلم يستطع سحنون أن يمنع هذا الظلم[٢] ، بل قال عبارة ذكرها المؤرخون : « اللهم لا تمتني حتى أراه بين يدي قاض عدل يحكم فيه بالعدل »[٣] .

وتحققت أمنية سحنون حيث وقف محمد بن أبي الجواد ليدفع حياته ثمناً لما ارتكبه من مظالم نحو أهل إفريقية كما سنرى .

وحول موقف سحنون من ابن أبي الجواد كانت هناك روايات مختلفة فيها شك كبير ، فقد قيل إن رجلاً[٤] خاصم ابن أبي الجواد بين يدي سحنون ، فحكم له على ابن أبي الجواد وحبسه ، وقال له : إن لم تؤد ضربتك بالسوط ، وقال : ما عندي مال . فيقال إنه أخرجه وضربه في جمعة عدة بالسياط مائة سوط وقيل أكثر من ذلك .

وقيل إن سبب ضرب ابن أبي الجواد أنه شهد رجل عليه بقبض وديعة[٥] فأنكرها ، فضربه ثمانية عشر سوطاً ، وكانت أسماء بنت أسد بن الفرات عملت[٦] بكل ما لديها من مال وطاقة لإنقاذ زوجها من الحبس والضرب ،

---

(١) ابن خلدون : العبر من ديوان المبتدأ والخبر جـ ٤ ص ٢٠٠ .
(٢) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٨٥ .
(٣) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٢ ص ٥٩٥ .
(٤) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٧٨ .
(٥) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٧٨ .
(٦) حسن حسني عبد الوهاب : شهيرات التونسيات ص ٢٣ .

فلم يستجب منها سحنون لأي رجاء حتى مات ابن أبي الجواد ، وندم[١] سحنون على هذه الوقعة .

نعود لنتتبع العلاقة بين القاضي محمد بن أبي الجواد ، فعندما عزل محمد بن أبي الجواد كان سحنون من أشد الناس فرحاً وسعادة وقال : « اللهم ول هذه الأمة خيرها وأعدلها »[٢] فكان هو الذي ولي بعده .

ويبدو أن العلاقة بين القاضي محمد بن أبي الجواد وسحنون كانت غير ودية ، وهذا يرجع إلى ما حدث من سحنون في رفضه[٣] الصلاة وراء ابن أبي الجواد ، فاعتبرها إهانة له ولمكانته بين الناس ، فأراد ابن أبي الجواد أن يغير قلب الأمير عليه ، وكان الأمير في ذلك الوقت أبا إبراهيم بن أحمد ، فلولا تدخل الوزير علي بن حميد[٤] في التوقيت المناسب لضرب سحنون ٥٠ سوطاً[٥] ولحلق شعره ، إلى جانب ما اشتهر به محمد بن أبي الجواد فقد عرف أيضاً بسياسته في التقرب لأمراء بني الأغلب من أجل الاحتفاظ بالمنصب (قاضي إفريقية) ، كذلك تميز محمد بن أبي الجواد بجهله في إصدار الأحكام والفتاوي مما أدى إلى حدوث تمرد وثورة من جانب الأفارقة ، وكذلك الفقهاء ومنهم سحنون .

ثم حدثت محنة القرآن ،وكاد يذهب ضحيتها سحنون . والذي تولى[٦] امتحان القضاة والفقهاء في إفريقية محمد بن أبي الجواد ، وكان يستخدم هذه الذريعة ليتخلص من المعارضين أمثال سحنون ، فتعرض سحنون لظلم كثير ، فمنه مقاطعة[٧] الناس له مجبرين بأمر من الأمير والقاضي ، وقطع ملابسه ،

(١) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٦٠٧ .
(٢) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ص ٢٨ .
(٣) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ٩٣ .
(٤) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٩٣ .
(٥) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٦٩ .
(٦) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٦٠٩ .
(٧) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٧٨ .

فلولا أن أسرعت المنية للأمير أحمد بن الأغلب[١] ثم تعاطف ابنه أبو العباس محمد مع سحنون لضاعت حياة عَلم من أعلام المذهب المالكي .

وعندما أسندت إمارة إفريقية لمحمد بن أحمد بن الأغلب[٢] جمع كبار الفقهاء والعلماء للمشورة[٣] وأخذ رأيهم حول من يتقلد منصب قاضي إفريقية ، فأشار سحنون[٤] بسليمان بن عمران ، وأشار سليمان بسحنون ، وأشار غيرهما بسليمان . وهذا يرجع للعاطفة نحو فقه أهل الكوفة (الحنفي) ، ودارت مناقشات حامية انتهت باختيار سحنون قاضياً على إفريقية .

بعث الأمير محمد بن أحمد بن الأغلب محمد بن قادم[٥] إلى سحنون يقول : « قل له إني أريد أن أستكفيك قضاء رعيتي ، فأعلمه »[٦] فقال له سحنون : « قل له أصلح الله الأمير ، أنا لا أقوى عليه ، أدلك على من هو أقوى ، سليمان بن عمران »[٧] ثم أجبر سحنون بأن حلف عليه الأمير بأشد وأغلظ الأيمان ، وتحت هذا التهديد قبل سحنون منصب قاضي إفريقية بعد أن وعده الأمير بألا يتدخل في أحكامه ، وأطلق له حريات عديدة فيما يطلبها . قال سحنون : « لم أكن أرى قبول هذا الأمر حتى كان من الأمير معنيان أحدهما أعطاني كل ما طلبت ، وأطلق يدي في كل ما رغبت حتى أني قلت له : ابدأ بأهل بيتك وقرابتك وأعوانك فإن قبلهم الناس وأموالاً لهم منذ زمن طويل إذ لم يجترىء عليهم من كان قبلي ، فقال لي : نعم لتبدأ بهم وأجر الحق على مفرق رأسي ، فقلت له : الله . قال لي : الله ثلاثاً ، وجاءني من عزمه مع

---

(١) أحمد بن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان جـ ١ ص ١٠٨ .
(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام جـ ٣ ص ٢٠ .
(٣) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٧٢ .
(٤) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٨٥ .
(٥) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٧٣ .
(٦) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٥٩٦ .
(٧) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٧٣ .

هذا ما يخاف المرء على نفسه ، وفكرت فلم أجد أحداً يستحق هذا الأمر ، ولم أجد لنفسي سعة في رده »[١] .

ساد الحزن حياة سحنون نتيجة ما اضطر فيه من قبول ولاية القضاء ، فلم يعد يهتم بأوجه حياته المختلفة من ملبس ومشرب ومأكل ، وقد وصف لنا تلميذه سليمان بن سلام الموقف ، فقال : « لما تمت ولاية سحنون تلقاه الناس ، فرأيته راكباً على دابة ما عليه كسوة ولا قلنسوة والكآبة في وجهه ، ما يتجرأ أحد يهنئه »[٢] فسار حتى دخل على ابنته خديجة وكانت من خيار النساء[٣] وقال لها : « اليوم ذبح أبوك بغير سكين »[٤] أما الفقيه عون بن يوسف فقال لسحنون : « نهنيك أو نعزيك » ؟[٥] ثم سكت فقال : « بلغني أنه من أتاه بغير مسألة أعين عليه ، ومن أتاه عن مسألة لم يعن عليه »[٦] .

فقال له سحنون : « من ولته الشفاعة عزلته الشفاعة ، ومن ولته الشفاعة حكم بالشفاعة »[٧] .

لتخذ سجنون تلميذه سليمان بن عمران كاتبه[٨] ثم أسند إليه قضاء بجاية وباجة والأريس ، وقال سليمان نقلاً عن لسان أستاذه سحنون : « إبتليتني فوالله لأبتلينك ، فولاني القضاء »[٩] وكان سحنون لا يأخذ لنفسه رزقاً[١٠] ولا صلة من السلطان في قضائه كله ، ولكنه كان يأخذ لأعوانه وكتابه وقضاته من جزية أهل الكتاب . وقال محمد بن سحنون عن أبيه وموقفه من

(١) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٧٣ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٥٩٦-٥٩٧ .
(٣) حسن حسني عبد الوهاب : المرجع السابق ذكره ص ٢٣ .
(٤) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٨٦ .
(٥) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٥٩٧ .
(٦) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٧٣-٢٧٤ .
(٧) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ١٠٤ .
(٨) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ١٠٥ .
(٩) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٧٥ .
(١٠) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٥٩٩ .

أخذ راتب أنه قال للأمير : « والله لو أعطيتني ما في بيت مالك »[١] وأضاف كلامه : « لو ملأت مجلسك هذا لي دراهم ودنانير ، ما سألني الله أن أقبل منك ذلك ، ولا آخذ منك شيئاً ، ويقول : لو أخذته لجاز لي ، ولكنه تورع »[٢] . وأضاف قوله للأمير : « حسبت أرزاق أعواني وهم أجراؤك وقد وفوك عملك ولا يحل لك ذلك »[٣] . قال الحارث بن مسكين : « كان سحنون قبل أن يلي أشرف منه بعد ما ولى »[٤] . لقد امتنع سحنون من النظر وجلس في بيته مدة حتى حضر جنازة فرأى منكراً ، فأمر بتغييره وانصرف فنظر بين الناس .

وحول مجلس سحنون القضائي وما كان يصدر منه من أحكام ، قال محمد ابن سحنون : « كان يضرب الخصوم إذا آذى بعضهم بعضاً بكلام يؤدب الخصوم ، إن طعن على الشاهد بعيب أو تجريح ، أو يقول : سل لي عن البينة فإنهم كذا حتى يسأله هو عن تجريحه . ويقول للخصوم : أنا أعني بذلك منك وهو على دونك ، وكان إذا دخل عليه الشاهد ورعب منه ، أعرض عنه حتى يستأنس ويذهب روعه ، فإن طال ذلك به هون عليه وقال له : ليس معي سوط ولا عصا فلا عليك بأس أدّ ما علمتَ ودع ما لم تعلم »[٥] .

وقال جبلة بن يوسف : « كان سحنون يؤدب الناس على الأيمان التي لا تجوز في الطلاق والعتق حتى لا يحلفوا بغير الله ، ويؤدبهم على سوء الحال في لباسهم ، وما نهى عنه ، ويأمرهم بحسن السيرة والقسط »[٦] وقال محمد بن سحنون حول إحدى القضايا التي بينت مهارة وورع سحنون قال : « تخاصم إليه رجلان صالحان من أصحابه ، فمن نظر في العلم فأقامهما وأبى أن يسمع

---

(١) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٧٥ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٥٩٩ .
(٣) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٧٥ .
(٤) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٥٩٩ .
(٥) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٧٦ .
(٦) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٥٩٩ .

منهما ، وقال استرا عني ما ستر الله عليكما »[١] .

وقد قام سحنون بعدة إصلاحات وإنجازات قضائية في إفريقية تركت له بصمات في تاريخ بلاد المغرب وإفريقية في القرنين الهجريين الثالث والرابع ، فمنها النظر[٢] في الأسواق وكان الذي ينظر فيها الولاة دون القضاة ، فنظر فيما يصلح من المعاش وما يغش من السلع وجعل الأمناء على ذلك ، وكان سحنون يؤدب على الغش وينفي من الأسواق من يستحق ذلك ، وهو أيضاً أول من نظر في الحسبة[٣] من القضاة وأمر الناس بتغيير المنكر ، وأول من فرق[٤] حلقات أهل البدع من المساجد في المغرب وشرد أهل[٥] الأهواء منها ، وكانوا يتناظرون فيها ويظهرون زيفهم ، وعزلهم أن يكونوا أئمة الناس أو معلمين لصبيانهم أو مؤذنين ، وأمرهم أن لا يجتمعوا في المسجد .

وسحنون أول من جعل في الجامع[٦] إماماً يصلي بالناس ، وكان هذا العمل للأمراء ، وجعل الودائع عند الأمناء[٧] وكانت قبل ذلك في بيوت القضاة ، وهو أول من قدم الأمناء في البوادي ، فكان يكتب إليهم ، وكان من قبله يكتب إلى جماعة من الصالحين منهم ، فأخذت القضاة هذه السيرة بعده .

كان سحنون يجلس للقضاء في بيت الجامع الذي بناه[٨] لنفسه يقضي بين الناس ، فإذا رأى كثرة الناس وكثرة ظلامهم فكان لا يحضر عنده غير الخصمين[٩] ومن يشهد بينهما في دعواهما ، وسائر الناس بمعزل لا يراهم ولا يسمع لغطهم ولا يشغل باله أمرهم ، فأصبح الجلوس في هذا البيت سنة

---

(١) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٧٦ .
(٢) يحيى بن عمر : المصدر السابق ذكره ص ٣١ .
(٣) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٧٦ .
(٤) ابن وردان : تاريخ مملكة الأغالبة ورقة ٢٩ مخطوطة بدار الكتب المصرية .
(٥) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٦٠٠ .
(٦) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٧٧ .
(٧) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٨٨ .
(٨) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٧٧ .
(٩) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٦٦٠ .

من سنن قضاة المالكية ، فإذا تولى عراقي هدمه وإذا تولى مدني بناه وحكم فيــه .

كان سحنون يكتب للناس أسماءهم في رقاع[١] تجعل بين يديه ويدعو بهم واحداً واحداً إلى أن يأتي مضطر أو ملهوف ، وكان يضرب بالدرة ، وكان أيضاً كثيراً ما يؤدب بلطم القفا[٢] . وقد قيد سحنون امرأة كانت تشتهر بسوء[٣] ، ولما تابت أطلق سراحها ، وضرب أخرى كانت تهتم بالجمع بين الرجال والنساء بالسوط ، وبنى باب دارها ونقلها بين قوم صالحين ، وجاءت إليه مرة إمرأة من القصر غاب عنها زوجها فأرادت أن تقطع بشرطها . فأبى ثم قال لها : إياك أن تشهدي أحداً من أهل القصر .

كذلك كان سحنون يأمر بقتل الكلاب[٤] ، والغالب أن الكلاب قد كثرت وزادت مما اضطر سحنون إلى القيام بهذا العمل لأننا لم نسمع من قبل ذلك أن قتل الكلاب من أعمال القضاة .

كانت فترة قضاء سحنون من أعدل[٥] وأنقى فترات القضاء في إفريقية ، وقد بين ذلك تلاميذ سحنون ، فقال عيسى بن مسكين : « فحصل الناس بولايته على شريعة من الحق ، ولم يل قضاء إفريقية مثله »[٦] وقال سعيد بن إسحاق : « كل من ولي قضاء إفريقية اكتسب إلا سحنون » .

* * *

(١) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٧٧ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٦٠١ .
(٣) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٧٧ .
(٤) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٦٠١ .
(٥) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٦٠١ .
(٦) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٧٨ .

الفصل الرابع

سحنون بين معاصريه

سحنون بين معاصريه

قد سبق أن تحدثنا عن انتشار العلم في إفريقية وبدء ظهور العلماء ، فكان من المعروف أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أرسل إلى إفريقية عشرة[1] من التابعين ليفقهوا أهلها في الدين ، وذكرناهم في موضعهم بالاسم في الفصل الثاني من الباب الأول . وهؤلاء العشرة ومن درس عليهم من أهل إفريقية قد وضعوا النواة الأولى التي كان سحنون ومعاصروه من علماء إفريقية ثمرة لهـــا .

وجدير بالذكر أنه في السنوات التي ظهر فيها أمر سحنون وتصدر للإقراء وكثر تلاميذه ، كان المغرب الأوسط ميداناً للمذهب الخارجي الأباضي الذي تولى إنشاء دولته في المغرب الأوسط عبد الرحمن بن رستم[2] سنة ١٦٤ هـ أي بعد مولد سحنون بأربع سنوات .

وخلال هذه الفترة التي انقضت بين مولد سحنون ونضجه ووصوله إلى رياسة أهل العلم بإفريقية كان المذهب الأباضي قد استقر وضرب جذوره في المغرب الأوسط وجبل نفوسة وجنوب طرابلس ، وأصبح له هناك شيوخه[3] وفقهاؤه يتصدرون للمذاهب الإسلامية الأخرى .

وهذا الوضع فرض على علماء إفريقية المالكيين مهمة جديدة ولكن كانوا أهلاً لها ، وهي مهمة التصدي لمذاهب الخوارج والاجتهاد في القضاء على كل أثر لها في بلادهم ، وسنلاحظ أنهم يسرفون في ذلك حتى أصبحوا يروون أن أي إنسان غير مالكي المذهب يعتبر خارجاً على الدين والسنة .

---

(١) المالكي : رياض النفوس حـ ١ ص ٦٤ .

(٢) محمود إسماعيل عبد الرازق : الخوارج في بلاد المغرب ص ١٤٤ .

(٣) البرادعي : رسالة في ذكر كتب الأباضية ورقة ١ مخطوطة بدار الكتب المصرية .

ومن مظاهر ذلك موقفهم العدائي من المذهب الحنفي الذي اعتبروه مذهباً غير سني ، وأطلق على أصحابه اسم المشارقة ، ومن ذلك الحين سيصبح التصدي للمشارقة جزءاً من المنهج الذي يسير عليه علماء إفريقية ومنهم الفقيه سحنون ، وإن كان الفقيه سحنون أكثر اعتدالاً[١] من غيره في هذا المجال كما سنرى بعد ذلك ، وخاصة موقفه من الفقيه الحنفي أسد بن الفرات[٢] ممثل المذهب الحنفي في إفريقية .

والآن نستعرض عدداً من كبار معاصري سحنون لكي نستكمل صورة العصر التي ظهر فيها سحنون من الناحية العلمية والأدبية والفقهية منهم :

أبو حفص عمر بن عبد الله الفتال ، كان من فضلاء المؤمنين أو ما نطلق عليهم أهل الإبدال[٣] ، ومن الأصفياء المجتبين . قال المالكي عنه « وكان أبو حفص قد جعل على نفسه ألا يضحك أبداً ولا ينام مضجعاً ولا يأكل سميناً »[٤] وهذا الكلام فيه مبالغة كبيرة ، وهل من المعقول أن الإنسان لا يبتسم أبداً ؟ وقد ذكر عبد الله بن الوليد صاحب سحنون عنه « أصاب الناس ريح وظلمة ، فخرج الناس إلى الجامع فوجدوه ساجداً وهو يبكي ويقول في سجوده : اللهم احفظ محمداً ﷺ في أمته ، ولا تشمت بنا أحداً من الأمم ، وإن كنت أخذت القوم بذنبي فهذه ناصيتي بين يديك .. فلم يزل كذلك حتى سكن الريح وانجلت الظلمة »[٥] .

وكان أبو حفص عمر بن عبد الله كثير المناجاة والبكاء ، فكان يقول « إلهي ، أسألك مسألة مدهوش بهره وقار جلالك ، وأسألك حيرة لبيب حضرته رؤية أفضالك ، وأسألك إطراق مفكر لا يدري ما الجواب ، وقد

---

(١) ابن وردان : تاريخ مملكة الأغالبة مخطوطة بدار الكتب ورقة ٣٤ .
(٢) عبد العزيز المجذوب : الصراع المذهبي ص ٦٣ .
(٣) الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٢٥٢ .
(٤) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٣٢٩ .
(٥) الدباغ : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٥٢ .

تقدم إليه إعذارك ، وأسألك إخبات خاشع قد ملك عقله إعظامك ، وأسألك قلق الوجلين وروعة الخائفين وخلوة المستكينين ، وأسألك دمعة مسربها من ماء معين ، لا يفنى مددها ولا تنفد مجاريها الأحزان كمثل شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها »[١] وكان أيضاً يقول : « اللهم إن كنت تعلم أني عبدك حباً لك ، شوقاً إلى رؤية وجهك الكريم في الجنة ، فأنجني مرة في الجنة ، واصنع بي ما شئت »[٢] .

ومنهم أبو عثمان بن حاتم بن عثمان المعافري .

سمع من مالك بن أنس وعبد الرحمن بن أنعم ، وكانت رحلته[٣] إلى الإمام مالك مع رحلة عبد الله بن غانم ، وكان أبو عثمان[٤] هو الذي يمضي مسائل عبد الله بن غانم إلى مالك بن أنس .

قال أبو عثمان حاتم : كتب لي مرة جواباً عن كتب ابن غانم ، فقلت له : اختم عليه أصلحك الله ، فإنها أحكام المسلمين . فقال : ما لي خاتم إنما الخاتم لثلاثة : تاجر أو قاض أو سلطان . فمضيت بالكتاب إلى ابن غانم غير مختوم .

وكان أبو عثمان حاتم من أقرب الناس للإمام مالك ، فكان يروي عن مالك غرائب[٥] لا يكاد يرويها عنه غيره .

ومنهم كذلك صقلاب بن زياد الهمداني الفقيه المتعبد .

كان إماماً من أئمة المسلمين مأموناً على ما سمع ، سمع من مالك ، وهو من طبقة[٦] البهلول بن راشد وهو من أهل الفضل والاجتهاد .

---

(١) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١٣٠ .
(٢) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٥٣ .
(٣) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ٧١ .
(٤) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٥٧ .
(٥) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣١٤ ، ابن حجر : لسان الميزان جـ ٢ ص ١٥٥ .
(٦) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٥٥ .

سمع من صقلاب بن زياد عدد كبير من أهل إفريقية والمغرب منهم أبو سنان[١] زيد بن سنان الأسدي وداود بن يحيى . وقد ذكر أبو سنان عنه : أنه كان يدعو إذا جن الليل : « اللهم إني أسألك منك ما هو لك رضى ، وبعداً من كل أمر يسخطك ، اللهم إني أسألك من صفاء الصفاء ، صفاءً أنال به منك شرف العطاء . اللهم لا تشغلني شغل من شغله عنك ما راد منك ، إلا أن يكون لك »[٢] وكان يقول أيضاً عن الأدب والعلم « نحن إلى كثير من الأدب أحوج منا إلى القليل من العلم ، والله لوددت أن جسدي قرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوا الله عز وجل »[٣] . توفي صقلاب بن زياد سنة ١٩٣ هـ في سنة وفاة هارون الرشيد (بطوس) وهو ابن ٤٧ عاماً وقيل ابن ٤٥ عاماً ، ودفن بباب سلم[٤] رحمة الله عليه .

ومنهم حفص بن عمارة كان من أهل الفضل والدين ، وهو من نظراء[٥] البهلول بن راشد ورباح بن يزيد ، سمع من سفيان الثوري ، وكان مؤاخياً للبهلول ، كثير التهجد ، كانت له ختمة[٦] كل ليلة ، وقيل إن العكي والي إفريقية لما حبسه[٧] مع البهلول ، قال حفص للبهلول : سمعت الثوري يقول : إذا كمل الصادق في صدقه لم يملك ما في يديه ، فخر البهلول على يد حفص يقبلها ، ويقول له : أنت سمعت هذا من سفيان ؟ قال نعم ، والله لقد سمعت سفيان يقوله .

توفي حفص بن عمارة سنة ١٩٧ هـ[٨] في السنة التي قتل فيها الأمين بن هارون الرشيد .

---

(١) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣١٥ .
(٢) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ٦٢ .
(٣) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٥٥ .
(٤) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣١٥ .
(٥) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٠٨ .
(٦) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣١٩ .
(٧) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ٧٣ .
(٨) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٠٨ .

ومنهم أيضاً يحيى بن زكريا بن محمد التجيبي . كان صالحاً ثقة وهو من جملة أصحاب مالك[١] ، وقد ذكر سليمان بن عمران[٢] عن جنازة يحيى بن زكريا أنه قال : كنا في جنازة يحيى بن زكريا فازدحم الناس عليه وكثروا على النعش ، فبقى النعش واقفاً في باب نافع لا يقدر الناس على أن يتعدوا به لكثرتهم ، فصاح صائح « يا معشر المسلمين ازدحموا على عمله ولا تزدحموا على نعشه »[٣] .

ومنهم أبو زكريا يحيى بن سلام[٤] بن أبي ثعلبة البصري التيمي ، تيم ربيعة .

كان من العلماء الحفاظ الفضلاء ، قيل إنه لقى من العلماء ثلاثمائة وثلاثة وستين عالماً ســوى التابعين ، وكان يحيى بن سلام يقول عما لقيه من الناس : « أحصيت بقلبي من لقيت من العلماء فعددت ثلاثماية وثلاثة وستين »[٥] سوى التابعين وهم أربعة وعشرون وامرأة ، تحدث عن عائشة[٦] رضي الله عنها .

روى عن أبي زكريا يحيى عدد قليل من العلماء نذكر منهم مالك[٧] بن أنس والليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة .

وكان أبو زكريا يحيى بن سلام كثير المؤلفات والكتب ، نذكر منها كتاباً في التفسير وكتاباً في اختيارات[٨] في الفقه ، كان ثقة ومحله من العلم معلوماً ،

---

(١) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٣٩ .
(٢) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٩٣ .
(٣) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ٧٢ .
(٤) ورد عند المالكي يحيى بن سلام جـ ١ ص ١٢٢ .
(٥) الدباغ : معالم الإيمان جـ ١ ص ٢٣٩ .
(٦) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ٣٧ .
(٧) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٢٢–١٢٣ .
(٨) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٤ .

وكان مقيماً[1] في القيروان ثم خرج إلى المشرق للحج ، فتوفي بمصر وكان مولده عام ١٢٤ هـ .

ومنهم أيضاً أبو عبد الله محمد بن مسروق المعروف بالزاهد[2] ، كان رجلاً صالحاً زاهداً في الدنيا ، راغباً في الآخرة ، ترك الدنيا عن مقدرة[3] رغبة منه فيما عند الله عز وجل . ذكر ابن اللباد بإسناد يتصل بسعيد[4] الأدم المتعبد بمصر أنه قال : « كان يقال إن رجلين كانا في الدنيا فزهدا فيها ، وهما عمر بن عبد العزيز ومحمد بن مسروق هذا »[5] قال الفقيه يحيى بن عمر عنه : « محمد ابن مسروق هذا هو صاحب المسروقين »[6] التي على طريق سوسة .

نشأ محمد بن مسروق هذا في رفاهية من العيش ، وحول هذا ذكر لنا علي بن مطلب[7] عنه قال : مسروق والد محمد خليفة موسى بن نصير بالمغرب ، وأضاف كلامه : فكان محمد بن مسروق يفض كل يوم عذراء ، فلما مات أبوه بات ينظر في كتبه وفي أمواله ومنازله حتى أصبح ، فقال لجواريه : من منكن تساعدني على أمر أريده ؟ فأجابته واحدة منهن إلى ذلك ، فقال لها : اثردي علي خبزاً وزيتاً ، وقدميه لي عند إفطاري ، ففعلت ذلك ، فلما أمسى قدمته إليه ، فلم تساعده نفسه على أكله لما عهدته من الطعام الطيب ، فقال لها : غطيه وارفعيه ، وأصبح صائماً ولم يأكل منه شيئاً ، فلم يأت الليل حتى اشتهاه وأكله .

وعن عمل الخير الذي قام به محمد بن مسروق نحو قرية من قرى أملاك

(١) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٢٣ .
(٢) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٢٨–٣٢٩ .
(٣) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٢٦ .
(٤) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٢٩ .
(٥) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٢٦ .
(٦) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٢٩ .
(٧) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٢٧ .

أبيه ، فقد ذكر لنا الفقيه علي بن مطلب : فكان بعد ذلك يمر بالقرية[١] من قرى أبيه ، فيخرج إليه أهلها ومن فيها فيقولون : « نحن عبيدك وكل ما لنا في هذه القرية فهو لك » فيقول : « إن كنتم صادقين فأنتم أحرار مالي لكم »[٢] ثم تنازل عن كل شيء كان يملكه أبوه للناس .

رحل محمد بن مسروق من القيروان إلى الإسكندرية[٣] فسكنها ومات فيها ، وكان كثير الخوف من الله عز وجل .

ومنهم أبو يزيد بن رباح اللخمي .

كان رباح رجلاً صالحاً مستجاباً ، مشتهراً بالفضل والزهد ، وكان من أهل الإبدال[٤] ويضرب به المثل في عبادته ، رقيق القلب ، غزير الدمعة ، كثير الإشفاق والخشية ، وله كرامات[٥] مشهورة . قال أبو العرب : طلبت حديث رباح فما وجدت منه إلا كتاباً واحداً رواه عن ابن سمعان[٦] . وحول فضائل أبي يزيد بن رباح ، فقد ذكر لنا أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن يزيد القصير[٧] عنه قال : رأيت أربعة ما رأيت في الدنيا مثلهم ، رأيت ابن عون بالبصرة فما رأيت مثله ، ورأيت سفيان الثوري بالكوفة فما رأيت مثله[٨] ، ورأيت الأوزاعي بالشام فما رأيت مثله . ورأيت أبا يزيد بن رباح بإفريقية فما رأيت مثله . وقال سحنون عنه : « كان البهلول بن راشد وأبو يزيد بن رباح ، فكان الذكر لرباح ، فلما مات رباح كان الذكر للبهلول »[٩] وذكر أن رجلاً من الأندلسيين أتى إلى رباح فقال له : « يا أبا يزيد إن سعيد بن حميد أخذ

---

(١) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٢٦ .
(٢) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٢٩ .
(٣) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ٤٥ .
(٤) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢١٠ .
(٥) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٥٣ .
(٦) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢١٢ .
(٧) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ٤٥ .
(٨) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٥٣ .
(٩) الدابغ : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٥٤ .

مني جارية لي »(١) فأخذ رباح عصاه وانطلق إلى دار سعيد بن حميد ونجح في إعادة الجارية إلى مولاها . وكان رحمه الله مستجاب الدعوة ، قال سعيد بن الحداد(٢) : كان لرباح بن يزيد صديق كانت له بنت مقعدة سأله أن يزوجها له ، ففعل . فلما دخل عليها أخذ بيدها وقال لها : « قومي بإذن الله » . فقامت صحيحة تمشي . فمال إلى موضع في البيت فصلى فيه حتى أصبح وخرج وخلى سبيلها .

توفي رباح سنة ١٧٢ هـ بعد صراعه مع المرض وازدحم الناس على نعشه فقال الأمير يزيد بن حاتم المهلبي : ازدحموا على عمله ولا تزدحموا على نعشه . وصلى عليه الأمير المهلبي .

ومنهم أيضاً أحمد بن أبي محرز القاضي . كان أحمد بن أبي محرز ورعاً(٣) ، أفضل الناس في زمانه ، وأعدلهم حكومة وأكثرهم إشفاقاً ، وكان بحراً من بحور العلم ، حافظاً للسنن ، جامعاً لها ، إماماً فيها ، عارفاً بأصول الديانات ، من أهل الورع والكرامات على هدى وسنة واستقامة ، كثير البكاء غزير الدمعة ، وكان سيفاً مجرداً على أهل الأهواء والبدع ، غيوراً(٤) على الشريعة ، شديداً في ذات الله تعالى .

تقلد أحمد بن أبي محرز منصب قاضي إفريقية مجبراً(٥) من قبل الأمير زيادة الله بن إبراهيم . وكان أحمد بن أبي محرز قد اشترط على الأمير(٦) ألا يقبل أحداً من أقاربه ولا من حشمه ولا يطوف به وكيلاً ، وكان زيادة الله يفتخر بهذا العمل ويقول : لا أبالي إن سألني(٧) الله ما قدمت عليه يوم القيامة ، وقد

(١) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢١١ .
(٢) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ٤٧ .
(٣) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ٨٥ .
(٤) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٨٩ .
(٥) الدباغ : المصدر السابق ذكره ج ٢ ص ٢٤ .
(٦) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ٢٣ .
(٧) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٩٠-١٩١ .

قدمت عليه بأربعة . قيل : وما هي ؟ قال : بنائي المسجد الجامع بالقيروان ، وبنائي القنطرة بباب ابن الربيع ، وبنائي الحصن بسوسة ، وتوليتي أحمد بن أبي محرز قضاء إفريقية .

تعددت الروايات والأخبار حول حكم أحمد بن أبي محرز ، فقال الشيخ أبو بكر بن اللباد : « بلغنا أن أحمد بن أبي محرز لم يحكم بحكم في قضائه منذ ولي إلى أن مات إلا بحكم واحد ، يقال إنه حكم في حمار وغرم ثمنه » بينما قال سحنون : « إن سلم أحد من القضاء فما سلم إلا أحمد بن أبي محرز ، ولم يقض في أيامه إلا في قضيتين أداهما من ماله » .

توفي أحمد بن أبي محرز في جمادي الآخرة سنة إحدى وعشرين ومائتين وحضر جنازته زيادة الله وعدد كبير من أهل القيروان ، وقال عنه زيادة : « يا أهل القيروان لو أراد الله بكم خيراً لم يزل أحمد بن أبي[1] محرز بين أظهركم » .

ومعظم معاصري سحنون كانوا من طلبة الفقه وعلوم الدين من قرآن وحديث وتفسير ولكن في معرفتهم ، فمن رواة الأدب الذين دخلوا إفريقية جنوداً الحَكم بن ثابت السعدي[2] من ولد سلامة بن جندل الشاعر المشهور ، جاء الحَكم بن ثابت إلى إفريقية سنة ١٤٤ هـ — سنة ٧٦١م مع دخول الجيش العباسي الذي بعثه الخليفة أبو جعفر المنصور تحت قيادة محمد بن الأشعث[3] الخزاعي الذي كان قوامه ٤٠,٠٠٠ مقاتل ، عليهم ثمانية وعشرون قائداً أحدهم الحكم بن ثابت السعدي ، وكان له دور بارز في القضاء على ثورات البربر . أقام الحكم بن ثابت في مدينة القيروان ، واتخذ بها داراً ، ولما تولى الأغلب بن سالم التميمي خلفاً لمحمد بن الأشعث بأمر من الخليفة المنصور ، التحق الحكم بن ثابت بخدمة الأغلب في إحدى معاركه مع الخوارج[4] فسقط

(١) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٢٤ .
(٢) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات جـ ١ ص ١٤٥ .
(٣) ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ١ ص ١٠٥ .
(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٦٢ .

قتيلاً ، فرثاه الحكم بن ثابت ، وكان الحكم بن ثابت من الشعراء البلغاء الذين روى عنهم أهل إفريقية كثيراً .

وأيضاً من رواة الأدب المعمر بن سنان التميمي : اشتهر بيتيم الرباب[١] ، دخل إفريقية في عهد يزيد بن حاتم المهلبي في عام ١٥٤ هـ — ٧٧٠ م ، وكان معمر أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها ، وعنه أخذ أهل إفريقية حرب غطفان[٢] وغيرها من وقائع العرب .

استوطن المعمر بن سنان مدينة القيروان وهو ثقة عند أمراء بني المهلب ، وكان ثقة ويستشيرونه في المهمات ، توفي المعمر بن سنان في حدود سنة ١٧٧ هـ[٣] أي في عهد ولاية الفضل بن روح بن حاتم المهلبي .

أما النحويون :

فمن النحويين الذين وفدوا إلى إفريقية في عصر سحنون ، يونس النحوي وقتيبة النحوي .

فأما يونس النحوي فهو يونس بن حبيب الضبي[٤] وكنيته أبو عبد الرحمن ، من أبناء البصرة وكبار علماء النحو واللغة ، وقد تتلمذ على يد ابن عمرو بن العلاء . قال عنه السيرافي : « سمع كثيراً من العرب كما سمع منه الكسائي والفراء ومن في طبقتهما ، وروى عنه سيبويه وأكثر بالنقل عنه »[٥] وكانت له حلقة بالبصرة ينتابها أهل العلم وطلاب الأدب وفصحاء الأعراب والبادية .

كان اتصال يونس النحوي بإفريقية عن طريق آل المهلب في البصرة ، فلما تقلد يزيد بن حاتم إمارة إفريقية وفد عليه ومكث في القيروان حيث كان

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات جـ ١ ص ١٣٧ .
(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ١ ص ٢٤٢ .
(٣) حسن حسني عبد الوهاب : المرجع السابق ذكره ص ١٣٧ .
(٤) السيرافي : أخبار النحويين البصريين ص ٢٣ تحقيق الأستاذ كرانكو .
(٥) حسن حسني عبد الوهاب : المرجع السابق ذكره ص ١٤٦-١٤٧ .

يقيم حلقات النحو في مسجد عقبة بن نافع[١] الفهري وحوله عدد من الطلاب لم نستطع أن نحصل على أسمائهم[٢] . عاد يونس إلى مسقط رأسه البصرة حيث مات ما بين عام ١٨٢ هـ - ١٨٥ هـ (٧٩٧م - ٨٠١م) .

أما قتيبة الجعفي النحوي هو من أعلام نحاة الكوفة ومن كبار أصحاب الكسائي[٣] ، فكان عالماً بالحديث واللغة والشعر والنسب وأيام الناس ، عاصر أبا زكريا الفراء واتصل بالمهدي[٤] الخليفة العباسي في بغداد وله حكايات مروية مع كتاب الدواوين بها .

دخل قتيبة الجعفي إفريقية في سنة تقلد الأمير يزيد بن حاتم الذي ضمه إلى خواصه وثقته ، فتدفق عليه عدد من أهل إفريقية ليتعلموا منه . اشتهر قتيبة بالشعر وسرد وقائع العرب ، وكانت هناك منافسة شديدة بينه وبين عبد الله بن غانم الفقيه[٥] ، عاد قتيبة إلى المشرق بعد قضائه مدة طويلة في ضيافة الأمير يزيد بن حاتم المهلبي ، توفى وهو في سن كبيرة .

نلاحظ ظاهرة في غاية الدقة وهي تأثر مدرستي البصرة والكوفة إحداهما بالأخرى ، لم يظهر رجل من أهل القيروان نحوياً إلا في أواخر القرن الثالث الهجري ، فهذا نتيجة الاعتماد الكلي على الوافدين من المشرق الإسلامي إلى إفريقية في أول الأمر وخاصة القادمين من البصرة والكوفة . ومع أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين بدأ ظهور نجم مدرسة القيروان النحوية في بلاد إفريقية والمغرب ، فمن أشهر النحويين الأفارقة أو القرويين : اللؤلؤي[٦] وحمدون النعجة والسبخي فلم يعاصروا سحنون ولا ابنه محمد بن سحنون ، والذين عاصرهم سحنون هم أهل اللغة والنحويون القادمون من خارج إفريقية ، وتتلمذ على أيديهم سحنون وخاصة قتيبة الجعفي .

(١) الزبيدي : طبقات النحاة ص ٢٦ .
(٢) الأنباري : طبقات النحاة ص ٢٩ .
(٣) السيوطي : بغية الدعاة جـ ١ ص ٤٢٦ .
(٤) ابن الجزري : طبقات القراء جـ ٢ ص ٤٠٦ .
(٥) السيوطي : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٨١ .
(٦) ياقوت الحموي : معجم الأدباء جـ ١ ص ٣٧٢ .

أما رواة الشعر :

فقد عاصر سحنون عدداً لا بأس به من شعراء ساهموا في النهضة الأدبية بإفريقية ، نذكر منهم ابن المولى : هو محمد بن عبد الله بن مسلم مولى بني عمرو بن عوف[١] من الأنصار ، عاصر الدولة الأموية والدولة العباسية ، كانت له علاقة[٢] بيزيد بن حاتم المهلبي منذ أن كان والياً على مصر ومدحه ، فأخذه يزيد معه في إفريقية عندما أسند إليه هارون الرشيد ولاية إفريقية ، وكذلك الحسن بن منصور المذحجي ، كنيته أبو علي وهو من بيت عريق[٣] من بيت قيادة وإمارة ، وكان جده عامر بن إسماعيل قتل مروان الجعدي آخر[٤] خلفاء بني أمية ، مما جعل العباسيين يقربون هذه الأسرة إليهم . قال ابن الأبار[٥] عن هذا الشاعر : « وأقل ما تصرف فيه الشعر ، وكان بصيراً باللغة نافذاً في النحو ، عالماً بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها » . ظل الحسن بن منصور المذحجي مقيماً بالقيروان حتى مات في أيام زيادة الله بن الأغلب ، وقد تخرج على يده عدد كبير من شباب إفريقية .

ومنهم ربيعة بن ثابت الرقي الأسدي وكنيته أبو أسامة ، وهو من أدباء الدولة العباسية واتصل بيزيد بن حاتم ومدحه فمنحه مالاً كثيراً . وظل ربيعة مقيماً بالقيروان في ضيافة هذا الأمير المهلبي ثم عاد إلى العراق ، ومات هناك .

ومنهم ابن الطرماح : أمان بن الصمصامة بن الطرماح بن حكيم الطائي ، وكنيته أبو مالك[٦] ، وجده هو الطرماح الشاعر الأموي المعروف المتوفي سنة ١٠٠ هـ ، ودخل الطرماح الحفيد إفريقية في أوائل المائة الثانية للهجرة وأقام بالقيروان وبها ولد ابنه أبو مالك أمان هذا .

---

(١) ابن خلكان : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٨٣ .
(٢) الآمدي : المؤتلف والمختلف ص ٤١١ .
(٣) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات جـ ١ ص ١٤٥ .
(٤) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات جـ ١ ص ١٤٠ .
(٥) ابن الأبار : الحلة السيراء جـ ١ .
(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٨١ .

وكان أبو مالك عالماً باللغة والشعر حافظاً للقريض ، شاعراً[١] مفوهاً .
ولما أسندت إمارة إفريقية إلى بني المهلب منذ سنة ١٥٥ هـ ، تولى يزيد بن حاتم حكم الولاية فاشتهر يزيد بالكرم والنجدة ، استصحب معه من بلاد المشرق جماعة من الأدباء والكتاب والبلغاء ، وكان على رأسهم كاتب سره ومباشر أمره أبو علي الحسن بن سعيد البصري[٢] الذي كان صديقاً لأمان ، وظل يفضله ويؤثره إلى أن مات أبو علي الحسن بن سعيد سنة ١٧٨ هـ ، ثم تولى الأغالبة حكم إفريقية فاختفى هذا الشاعر لعداء[٣] قديم كان بين قبيلة الأزد وقبيلة الطرماح . ومع ذلك كان لأمان تلاميذ كثيرون لعبوا دوراً بارزاً في النهضة الشعرية في إفريقية والمغرب .

نلاحظ أن معظم الشعراء الذين نقرأ عنهم في ذلك العصر كانوا يحضرون من المشرق — وخاصة من العراق — ليعلموا أهل إفريقية والمغرب أصول الأدب وخاصة الشعر بأوزانه وبحوره .

أما الأخبار والآثار والرواية فنأخذ من أهلها على سبيل المثال عياض بن عوانة الكلبي وأبو الوليد عبد الملك بن قطن وأبو عبد الملك الملشوني وابنه إسحاق .

فعياض بن عوانة بن الحكم الكلبي وهو من بيت عربي مشهور[٤] في الكوفة ، فجده الحكم بن عوانة كان له قدر جليل ، تقلد ولايات كثيرة وكان عالماً بأيام العرب وأنسابها ثم كان أبوه أيضاً عالماً بالأخبار والآثار ، ثقة[٥] .

قال عبد الله بن جعفر عنه : « عوانة بن الحكم من علماء الكوفة بالأخبار خاصة والفتوح ، مع علم بالشعر والفصاحة ، وله أخبار طريفة

(١) حسن حسني عبد الوهاب : المرجع السابق جـ ١ ص ١٤١ .
(٢) السيرافي : أخبار النحاة البصريين ص ٨٠ .
(٣) حسن حسني عبد الوهاب : المرجع السابق جـ ١ ص ١٦٢ .
(٤) ابن النديم : الفهرست ص ١٣٤ .
(٥) ياقوت : معجم الأدباء جـ ٥ ص ٩٣-٩٥ .

وعامة أخبار المدائني عنه » كذلك روى عبد الله بن المعتز : « إن عوانة بن الحكم كان عثمانياً ، وكان يضع أخباراً لبني أمية »[١] مات عوانة في سنة ١٤٧ هـ وقيل سنة ١٥٨ في السنة التي مات فيها الخليفة المنصور .

أما ابنه عياض فقد ولد في الكوفة[٢] ونشأ بها ، وقرأ عن كبار علمائها واشتهر بالنحو ، ذهب عياض إلى إفريقية لتعليم أبناء البربر في عهد المهالبة ، واستقر بالقيروان في مدة إمارة يزيد بن حاتم سنة ١٥٥ ، فأخذ عنه أهل إفريقية النحو واللغة العربية والأدب .

وكان عياض بن عوانة يتميز بإلقاء الشعر ويجود فيه ، فقال عنه الزبيدي : « كان أمراء المهالبة يكرمونه كثيراً ، ويوقرونه . كيف لا ؟ وقد درس عليه غالب وأبنائهم »[٣] .

ويعتبر عياض بن عوانة من طليعة رواة العرب النازحين إلى إفريقية العاملين على تعميم الثقافة الإسلامية ، واختلف الإخباريون في تاريخ وفاة عياض ، ولكن في أغلب الظن[٤] أنه مات في حدود عام ١٧٥ هـ أي قبل انقراض وزوال إمارة المهالبة من ولاية إفريقية .

أما أبو الوليد عبد الملك بن قطن اللغوي فكان شيخ أهل اللغة والرواية ورئيسهم وعميدهم[٥] والمقدم في زمانه وبلده ، وكان من أحفظ العلماء وأكثرهم رواية لأنساب العرب ووقائعها وأيامها .

وكان أبو الوليد عبد الملك بن قطن قليل النظر[٦] في تدبير معيشته ، لا يمسك ديناراً ولا درهماً على كثير ما كان يوصل به ويحيي ويعطي .

---

(١) الزبيدي : طبقات النحويين ص ١٥٢ .
(٢) السيوطي : بغية الوعاة جـ ١ ص ٣٦٨ .
(٣) ياقوت الحموي : المصدر السابق ذكره جـ ٦ ص ٩٢ .
(٤) حسن حسني عبد الوهاب : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٦٠ .
(٥) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ص ٢٤٦ .
(٦) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٣١٠ .

أما أبو عبد الملك الملشوني[1] فصاحب أخبار ومغاز ، وله كتاب كبير في أخبار الأنبياء صلوات الله عليهم ، وفي الندى ، وكان أمراء بني الأغلب يرسلون إلى أبي إسحاق فيكون عندهم في شهر رمضان ، فيحدثهم بتلك العجائب حتى يقطع بهم طول النهار ، وربما جالس سحنون بن سعيد . ولإسحاق عدة حكايات مع الأمير الأغلبي وسحنون .

ومن معاصري سحنون من الفقهاء في المغرب والأندلس شجرة بن عيسى وأبو سنان زيد بن سنان وعبد الملك بن حبيب ويحيى بن يحيى الليثي .

فأما شجرة بن عيسى المعافري وكنيته أبو شجرة[2] ويقال أبو زيد ، ويرجع أصله من بلاد المغرب ، فقد تفقه على يد علي بن زياد وابن أشرس وأبي كريمة ، مكث في تونس وتقلد قضاءها في أيام سحنون ، وقد قال عنه سحنون : ما رأيت من قضاء البلدان إلا شجرة وشرحبيل قاضي طرابلس.

وأخذ عنه جماعة من أصحاب سحنون ، وقد زعم بعض الناس أنه سمع من الإمام مالك ، ولكن هذا غير صحيح .

قال أبو العرب عنه[3] : « كان شجرة من خير الفضلاء وأعلمهم . كان ثقة عدلاً مأموناً ، وكان يلبس الخشنة ، ويخضب لحيته ، ويركب الفرس العاري ، ويجيد الركوب ، وكان كثير المعروف والفضائل ، وله كتاب في مسائله لسحنون » .

ولد سنة ١٦٩ هـ ومات سنة ٢٣٢ هـ ، وابنه ولي قضاء تونس[4] وكان صالحاً ثقة ، روى عنه الفقيه يحيى بن عمر .

أما أبو سنان زيد بن سنان الأسدي فكان ثقة ، سمع من عبد الرحمن بن القاسم وسفيان بن عيينة وبهلول بن راشد ، ولقي عبد الله بن عبد الحكم أثناء

(١) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٣١١ .
(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٢٧-١٢٨ .
(٣) أبو العرب : المصدر السابق ص ١٣٤ .
(٤) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٢٨ .

زيارته لمصر ، وقابل أبا معمر صاحب أنس بن مالك ولم يسمع منه ، ولم يأخذ من سفيان غير أربعة أحاديث[١] .

كان أبو سنان زيد يفتي بالقيروان مع سحنون في أيام قضائه ، وكان خياطاً ويحمل خبزه إلى الفرن على يده ، ولا يترك طلبته يحملونه تواضعاً .

قال المالكي عنه : « كان رجلاً صالحاً نبيهاً ، مأموناً ، فقيهاً »[٢] بينما قال بعض الفقهاء عنه رواية جاء فيها : رأيت البهلول بن راشد في النوم فقال : جزى الله عني أبا سنان خيراً . فأخبرت بذلك أبا سنان فقال : رحم الله معلمي وجزاه خيراً . نستنتج من هذه الرواية مدى تأثر أبي سنان بشخصية البهلول بن راشد .

وقد روى عنه الفقيه سليمان بن سالم أحد أقواله الشهيرة[٣] : إذا كان طالب العلم لا يتعلم أو قبل أن يتعلم مسألة في الدين يتعلم الوقيعة في الناس متى يفلح ؟ وكان لا يتكلم أحد في مجلسه بعينه في أحد ، فإذا تكلم بذلك نهاه وأسكته[٤] .

مات سنة ٢٤٤ هـ وكان مولده سنة ١٥٥ هـ ودفن في القيروان وقيل دفن في سوسة[٥] .

من الذين عاصروا سحنون في الأندلس عبد الملك بن حبيب ويحيى بن يحيى الليثي ، وهم أصحاب المدرسة المالكية في الأندلس ولا يقلون أهمية عن سحنون بل يتفوقون عليه .

فعبد الملك هو ابن حبيب بن سليمان بن هارون بن جاهمه[٦] بن عباس

---

(١) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٣ ص ١٣ .
(٢) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٢٣٩ .
(٣) المالكي المصدر السابق جـ ١ ص ٣٠٠ .
(٤) المالكي : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٠٠ .
(٥) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٣ ص ٢٣٤ .
(٦) ابن حيان : المقتبس ص ٢٢١ .

ابن مرداس السلمي ، وقيل هو عبد الملك بن حبيب بن ربيع[١] بن سليمان وكنيته أبو مروان ، كان بالبيرة ثم سكن قرطبة . وقد قيل عنه إنه من موالي سليم[٢] ، اشتهر أبوه بالعصار[٣] لأنه كان يقوم بعصر الأدهان ويستخرجها .

سمع وتفقه من عبد الملك بن الماجشون[٤] ومطرف بن عبد الله وإبراهيم ابن المنذر وعبد الله بن نافع الزبدي وعبد الله بن عبد الحكم وابن أبي أويس وعبد الله بن المبارك وأصبغ بن الفرج وأسد بن موسى .

عاد إلى الأندلس فأقام في البيرة ثم انتقل إلى قرطبة ودخل في خدمة الأمير عبد الرحمن بن الحكم[٥] وجعله من خواصه ومن أهل الفتيا[٦] ، وكان بينه وبين الفقيه يحيى بن يحيى الليثي منافسة خطيرة ، وكان كل واحد منهما يضمر السوء للآخر .

سمع منه سعيد بن نمير وإبراهيم بن شعيب وأحمد بن راشد وإبراهيم بن خالد ومحمد بن غطيس ومطرف بن قيس وبقى بن مخلد وابن وضاح . يقال إنه أدرك مالكاً في آخر عمره[٧] وهذا مشكوك فيه .

كان عبد الملك بن حبيب حافظاً[٨] للفقه عن مالك ، نبيهاً فيه ، غير أنه لم يكن له علم بالحديث ولا معرفة بصحيحه من سقيمه . وسئل[٩] ابن الماجشون من أعلم : القروي التنوخي أم الأندلسي السلمي ؟ فقال : السلمي مقدمه علينا أعلم من التنوخي منصرفه عنا .

---

(١) ابن سعيد المغربي : المغرب في حلي المغرب جـ ٢ ص ٩٦ .
(٢) أبو القوطية القرطبي : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٧ .
(٣) د. لطفي عبد البديع : الإسلام في إسبانيا ص ٤٠ .
(٤) ابن العماد : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٩٠ .
(٥) يحيى بن عمر : النظر والأحكام ص ١٠٦-١٠٧ .
(٦) المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب جـ ٢ ص ٢١٥ .
(٧) أبو البركات : المصدر السابق جـ ٤ ص ٨٤ .
(٨) أبو الفتح بن خاقان : مطمح الأنفس ومسرح التأنس ص ٣٧ .
(٩) د. حسين مؤنس : شيوخ العصر في الأندلس ص ١١ .

كان عبد الملك بن حبيب جامعاً للعلم[١] كثير الكتب ، طويل اللسان ، فقيه البدن ، نحوياً ، عروضياً شاعراً ، حافظاً للأخبار والأنساب .

وقال عنه ابن الحارث[٢] : هو من أنفسهم ، فقيه مشهور متصرف في فنون من الأدب وسائر المعاني ، كثير الحديث والمشايخ .

ألف عبد الملك بن حبيب كتباً كثيرة تقدر بألف كتاب[٣] في الفقه والأدب والتواريخ منها الواضحة[٤] في السنن والفقه لم يؤلف مثلها ، والجوامع وكتاب فضل الصحابة رضى الله عنهم وكتاب غريب الحديث وكتاب تفسير الموطأ وكتاب حروب الإسلام وكتاب المسجدين وكتاب سيرة الإمام في الملحدين وكتاب طبقات الفقهاء والتابعين وكتاب مصابيح الهدى ، وكتاب إعراب القرآن[٥]وكتاب الحسبة في الأمراض وكتاب الفرائض وكتاب المغازي ، والناسخ والمنسوخ ، والورع في العلم ... وغيره . وكان فقهاء عصره يحسدونه لتقدمه بعلوم لم يكونوا يعلمونها ولا يشرعون فيها ، وما قالوا فيه خيراً ولا شراً[٦] .

مات عبد الملك بن حبيب في ذي الحجة سنة ٢٣٨ هـ[٧] وقيل سنة ٢٣٩ هـ وقد بلغ من العمر ٥٦ عاماً وقيل ٦٢ عاماً .

أما الليثي فهو يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس[٨] وقيل سلاسن ، وكنيته أبو عيسى ، من أهل قرطبة ، أصله من البربر من قبيلة يقال لها مصمودة[٩] ويتولى بني ليث[١٠] فنسب إليهم .

---

(١) ابن خاقان : مطمح الأنفس ومسرح التأنس ص ٣٧ .
(٢) الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ٢ ص ١١٧–١١٨ .
(٣) المقري : نفح الطيب من غصن الرطيب جـ ٢ ص ٢١٤ .
(٤) الذهبي : ميزان الاعتدال جـ ٢ ص ٦٥٣ .
(٥) ابن خير : الفهرسة جـ ١ ص ٢٦٥ .
(٦) الذهبي : دول الإسلام جـ ١ ص ١٤٥ .
(٧) ابن الأبار : التكملة من كتاب الصلة جـ ٢ ص ٧٨٩ .
(٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٥ ص ١٩٤ .
(٩) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٢٣٧ .
(١٠) الذهبي : المصدر السابق جـ ١ ص ١٤٥ .

سمع في الأندلس من زياد بن عبد الرحمن موطأ مالك ، وسمع أيضاً من يحيى بن مضر ، ثم رحل إلى المشرق وهو في سن ٢٨ عاماً فسمع مالكاً وموطأه ما عدا كتاب الاعتكاف[١] ، وسمع سفيان بن عيينة والليث بن سعد وعبد الله ابن وهب وعبد الرحمن بن القاسم وأنس بن عياض ، أطلق عليه مالك صفة عاقل الأندلس[٢] لأنه لم يخرج لمشاهدة الفيل[٣] بل جاء ليشاهد العلم والهدى فأعجب به مالك وأطلق عليه الصفة السابقة .

وقد انتهت إليه رياسة الفقه المالكي في الأندلس وبه انتشر مذهب مالك هناك ، وتفقه على يده جماعة كبيرة منهم ابناه عبيد الله وإسحاق وأبو عبد الله محمد بن وضاح وزياد بن محمد بن زياد شبطون وإبراهيم بن قاسم بن هلال وعمر بن موسى الكناني وعبد المجيد بن عفان ، وأصبغ بن خليل وإبراهيم بن شعيب ... وغيرهم .

وحول فضائل يحيى بن يحيى الليثي قال تلميذه أحمد بن خالد[٤] : لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخل الإسلام الحظوة ، وعظيم القدر وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى ، وكان الأمير عبد الرحمن بن الحكم يبجله بتبجيله الأدب ، ولا يرجع عن قوله ، ويستشيره في جميع أموره وفيمن يوليه ويعزله ، ولهذا كثر[٥] عدد قضاة الأندلس في عهده .

وقال عنه ابن عبد البر[٦] : كان يحيى إمام بلده المقتدى به المنظور إليه ، المعول عليه ، كان ثقة عاقلاً ، حسن الهدى والسمت يشبه سمته بسمت مالك ، ولم يكن له تبصر بالحديث . والله الذي لا إله إلا هو ما رأيت أوقر من يحيى بن يحيى قط ، ما رأيته يبصق ولا يسعل في مجلسه ولا يتحرك عن حاله ،

---

(١) القاضي عياض : المصدر السابق .
(٢) ابن العماد : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٨٢ .
(٣) المعري : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٢١٧ .
(٤) ابن عبد البر : المصدر السابق ذكره ص ٦٠ .
(٥) ابن خلكان : المصدر السابق ذكره جـ ٥ ص ١٩٤–١٩٥ .
(٦) ابن عبد البر : المصدر السابق ذكره ص ٥٨ .

وكان أخذ بزي مالك وسمته ، وكان يحيى يلبس الوشي الرفيع[1] يريد القطني في أيام الأعياد والدخول على الأمراء .

وكان يحيى بن يحيى ممن اتهم بالإجلاب بالهيج بقرطبة على الأمير الحكم بن هشام ، ففر وأخاه متنكرين على باب اليهود بقرطبة ، ثم عاد إليها بعد أن وصله كتاب الأمان من الأمير .

مات يحيى بن يحيى الليثي سنة ٢٣٤ هـ[2] وقيل سنة ٢٣٣ هـ وقد بلغ من العمر ٨٢ عاماً[3] .

* * *

(١) د. حسين مؤنس : شيوخ العصر في الأندلس ص ١٠ .

(٢) الذهبي : دول الإسلام جـ ١ ص ١٤٣ .

(٣) المقري : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٢٠٨ .

وقد ذكر الفقيه الحافظ أبو محمد علي بن أحمد : مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان : مذهب أبي حنيفة ، فإنه لما ولى قضاء القضاء أبو يوسف ، كانت القضاة من قبله ، فكان لا يولي قضاء البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال إفريقية إلا أصحابه والمنتمين إلى مذهبه . ومذهب مالك بن أنس عندنا ، فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان ، مقبول القول في القضاء ، فكان لا يلي قاض في أقطارنا إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس سراع إلى الدنيا والرياسة فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به ، على أن يحيى بن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه ، وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم وداعياً إلى قبول رأيه لديهم ، وكذلك جرى الأمر في إفريقية لما ولى القضاء بها سحنون بن سعيد ، ثم نشأ الناس على ما انتشر .

انظر ترجمته في : جذوة المقتبس ص ٣٧٣ ، ٣٨٤ .

الباب الثالث

ثقافة سحنون وآثاره

الفصل الأول : مؤلفـــاته .

الفصل الثاني : تلاميـــذه .

الفصل الثالث : سحنون في التاريخ : تقديم عام .

الفصل الأول
مؤلفـــات سحنـــون

مؤلفات سحنون

برغم أن سحنون عاش مدة طويلة بلغت ثمانين[1] عاماً ، فقد كان قليل الاشتغال بالتأليف مكتفياً بالمادة التي أوردها في المدونة الكبرى . فالمدونة الكبرى من المراجع الرئيسية في فقه مالك بن أنس مثلها في ذلك مثل ما رواه عبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن وهب وأشهب ... وغيرهم من أئمة المذهب المالكي .

وقد سبقت المدونة في الظهور الأسدية ، وكانت تتكون من ست وثلاثين ألف مسألة[2] وقيل ستين ألف مسألة[3] أي ٦٠ ألف [4] كتاب ، وقد ألفها أسد بن الفرات بعد رجوعه من العراق[5] والتفقه على أيدي تلاميذ أبي حنيفة أمثال أبي يوسف[6] ومحمد بن أبي الحسن الشيباني وغيرهما .

وقد كثرت الروايات والأقاويل حول الأسدية والمدونة الكبرى ورحلة أسد وسحنون لمصر ومقابلة الفقيه المالكي عبد الرحمن بن القاسم . وقد تحدث الفقيه سليمان بن سالم عن رحلة أسد بن الفرات والأسدية فقال : « لما وصل أسد إلى مصر بعد وفاة مالك رحمه الله تعالى ، اجتمع مع عبد الله بن وهب فسأله عن مسألة ، فأجابه ابن وهب بالرواية ؟ فأراد أن يدخل عليه غير الرواية ، فقال له ابن وهب : وحسبك إذ أدينا إليك الرواية »[7] وأضاف كلامه « ثم أتى أسد إلى أشهب ، فسأله عن مسألة فأجابه ، فقال له أسد : من يقول هذا مالك أو أبو حنيفة ؟ فقال أشهب : هذا من قولي عافاك الله . فقال

---

(١) المطرزي : المغرب في ترتيب المعرب ص ٢٤٦ .
(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ١ ص ٣٣٦ .
(٣) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين جـ ٥ ص ٢٢٤ .
(٤) د. حسين أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقية جـ ١ ص ١٥٥-١٥٦ .
(٥) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ١ ص ٣٣٧ .
(٦) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٧٣ .
(٧) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٤٧٠ .

له : إنما سألتك عن قول مالك وأبي حنيفة فتقول : هذا قولي ؟ فإن شئت فاقبل وإن شئت فاترك . ففرق بينهما فأتى إلى عبد الرحمن بن القاسم »[١] .

وكان عبد الرحمن بن القاسم يختم كل يوم وليلة ثلاث[٢] ختمات ، وقد أضنى[٣] نفسه من العبادة ، فسأله أسد عن مسألة فأجابه ، ثم دخل أسد على ابن القاسم فأجابه حتى انقطع[٤] أسد في السؤال ، فقال له ابن القاسم : « يا مغربي زد ، وقل لي من أين قلت حتى أبين لك قول مالك »[٥] . فقام أسد على قدميه[٦] في المسجد ، فقال « معاشر الناس ، إن كان مالك بن أنس قد مات فهذا مالك بن أنس »[٧] .

كان أسد بن الفرات يغدو إلى ابن القاسم كل يوم فيسأله ، ويجيبه ابن القاسم حتى دوَّن ستين كتاباً[٨] سماها الأسدية ، وقيل إن ابن القاسم ترك لأسد في سؤاله ختمه[٩] .

وعندما عزم أسد بن الفرات على الرحيل إلى إفريقية ثار عليه[١٠] أهل العلم بمصر ، فسألوه في كتبه أن ينسخوها فأبى عليهم ، فقدموه إلى القاضي بمصر فقال لهم القاضي : « وأي سبيل لكم عليه ؟ رجل سأل رجلاً فأجابه وهو بين أظهركم فسلوه كما سأله »[١١] ثم رغبوا إلى القاضي في سؤاله أن يقضي حاجتهم ،

---

(١) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١٧٥ .
(٢) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٢ .
(٣) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٧٨ .
(٤) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٥ .
(٥) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٤٧٠ .
(٦) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٧٩ .
(٧) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٢ .
(٨) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١٧٩ .
(٩) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٢ ص ٢٩ .
(١٠) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٣ .
(١١) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٧٩ .

فسأله القاضي فأجابه إلى ذلك ، فنسخوها[1] حتى فرغوا منها . وهذا يدل على اهتمام مصر بالمذهب المالكي .

وعند مغادرة أسد بن الفرات مصر وجه معه ابن القاسم بضاعة[2] ، وقال له : « إذا قدمت إفريقية فبعها واشتر بثمنها رقوقاً ، وانسخ الكتب ووجه بها إليّ »[3] . فلما قدم أسد إفريقية أظهر الكتب وأسمعها الناس وانتشرت بإفريقية ، وكان سحنون[4] ، ومحمد بن رشيد ينسخانها ، فلما علم أسد بذلك شح[5] على الكتب ولم يعطها لأحد .

قال الفقيه سليمان بن سالم نقلاً عن لسان محمد بن سحنون : « فبقي على سحنون من الأسدية كتاب القسم ، فأتى رجل من أهل الجزيرة إلى أسد فسأله في كتاب القسم ، فأبى أنْ يعطيه إياه حتى حلفه أنه لا يعطيه لسحنون »[6] . ثم تمكن هذا الرجل بالدهاء والحيلة من الحصول على هذا الكتاب وأعطاه[7] لسحنون لتكتمل عنده الأسدية .

وكانت الأسدية غير مرتبة[8] ترتيباً دقيقاً ، سار سحنون على نمط أسد بن الفرات في تأليفه للأسدية ، فسحنون جمع كل ما قيل من المسائل من مختلف آراء وفقه مالك ، وكانت كل مسألة تتعدد فيها الأقاويل والآراء يرجع إليها إلى مصدر ومرجع الفقه المالكي عبد الرحمن بن القاسم حيث اعتبره سحنون المصدر الأول للمذهب المالكي لكثرة سماعه من الإمام مالك ، هذا عن الأسدية ، أما عن « المدونة » فقد تعددت الأقاويل حول رحلة سحنون وسماعه الأسدية من الفقيه المصري المالكي عبد الرحمن بن القاسم ، فقال

---

(١) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٤٧ .
(٢) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٤ .
(٣) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٤٧٠ .
(٤) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٤ .
(٥) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٧٩ .
(٦) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١٧٩–١٨٠ .
(٧) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٤٧١ .
(٨) عبد العزيز المجذوب : الصراع المذهبي بإفريقية ص ٤٢ .

الخشني : « رحل سحنون إلى ابن القاسم وقد تفقه في علم مالك ، فكاشف ابن القاسم عن هذه الكتب مكاشفة فقيه يفهم ، فهذبها مع سحنون »[١] وقال القاضي عياض : « وقد حكى أن سحنون لما ورد على ابن القاسم سأله عن أسد فأخبره بما انتشر من علمه في الآفاق ، فسر بذلك . ثم سأله وأحله ابن القاسم من نفسه بمحل ، وقال له سحنون : أريد أن أسمع منك كتب أسد فاستخار الله وسمعها عليه ، وأسقط منها ما كان يشك فيه من قول مالك ، وأجابه فيه على رأيه ، وكتب إلى أسد أن عارض كتبك على كتب سحنون فإني رجعت عن أشياء مما رويتها عني . فغضب أسد وقال لابن القاسم : أنا صيرتك ابن القاسم ، ارجع عما اتفقنا عليه إلى ما رجعت أنت الآن عنه »[٢] . وقيل أيضاً إن أسداً منع[٣] الأسدية عن سحنون ، ولكن سحنون تمكن من الحصول عليها بالتلطف[٤] والحيلة والدهاء ، ثم ارتحل سحنون بالأسدية إلى ابن القاسم يعرضها عليه ، فقال له ابن القاسم : فيها شيء[٥] لابد من تفسيره . وأجاب عما كان يشك فيه ، فاستدرك فيها أشياء كثيرة لأنه كان قد أملاها على أسد من حفظه .

عارض أسد بن الفرات بشدة قبول الإصلاحات التي قام بها ابن القاسم على تأليفه الأسدية وخاصة عندما أعادها سحنون له ، فقال : « اعرض كتبي على كتبه وأنا ربيته . المقصود به سحنون »[٦] ونصحه بعض تلاميذه بقبول ما أورده ابن القاسم من إصلاحات وتعديلات في الرأي ولكنه رفض ، ثم قال له بعض تلاميذه : « لا تضع قدرك تصلح كتبك من كتبه ، وأنت سمعتها قبله ؟ فترك ذلك »[٧] . وقد قيل إن ابن القاسم كان يرفض الأسدية ، فقال

(١) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٤٧١ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٤٧١ .
(٣) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٨١ .
(٤) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٥ .
(٥) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٨١ .
(٦) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٤٧٢ .
(٧) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٧ .

عنها : « اللهم لا تبارك في الأسدية فهي مرفوضة إلي »[١] . وقال الشيرازي : « واقتصر الناس على التفقه في كتب سحنون ونظر سحنون فيها نظراً آخر فهذبها وبوّبها ودوّنها ، وألحق فيها من خلاف كبار أصحاب مالك ما اختار ذكره وذيّل أبوابها بالحديث والآثار إلا كتباً منها معرفة بقيت على أصل اختلاطها في السماع ، فهذه هي كتب سحنون المدونة والمختلطة »[٢] .

وقال سحنون عن مدونته : « عليكم بالمدونة فإنها كلام ورواية له »[٣] وكان يقول أيضاً : « إنما المدونة من العلم بمنزلة أم القرآن من القرآن تجزي في الصلاة عن غيرها ، ولا تجزي غيرها عنها ، أفرغ الرجال فيها عقولهم وشرحوها وبينوها ، فما اعتكف أحد على المدونة ودرسها إلى عرف ذلك في ورعه وزهده وما عداها أحد إلى غيرها إلا عرف ذلك فيه ، ولو عاش عبد الرحمن بن القاسم أبداً ما رأيتموني أبداً »[٤] .

وكانت هناك ميزتان جعلت الناس يقبلون على المدونة دون النظر إلى الأسدية ، وهما :

أولاً : أن أسد بن الفرات سمع الأسدية من عبد الرحمن بن القاسم بعد أن ثقل عليه بالأسئلة . ومن المعروف أن أسد بن الفرات كان كثير الأسئلة في مجالس مالك[٥] بن أنس مما ضاق منه مالك ، ونصحه بالذهاب إلى العراق[٦] لسماع أبي حنيفة وتلاميذه ، فأخذ أسد برأي مالك ثم عاد إلى عقر داره (إفريقية) مما جعل أهل إفريقية والمغرب يشككون في الأسدية لأن أسد جمع بين آراء المذهب المالكي والحنفي .

(١) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٤٧٢ .
(٢) الشيرازي : طبقات الفقهاء ص ١٢٧ .
(٣) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ١٧٤ .
(٤) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٤٧٢ .
(٥) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٧٤ .
(٦) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ٧ .

ثانياً : أن أسد بن الفرات لم يتقبل الكتب التي قام بإصلاحها[١] عبد الرحمن بن القاسم مع سحنون ونظر إليها نظرة كبرياء ، واعتبر هذا أهبط من قدره ، مما جعل الناس يعتكفون على دراسة المدونة ، بل إن أسداً[٢] ضرب شيخاً من شيوخ إفريقية معروفاً بالعلم ومعرفة الحديث عندما شهد عليه في وقت ولايته القضاء أنه انتقض ابن القاسم ، فضربه على ذلك ضرباً عظيماً .

تميزت المدونة الكبرى بسهولة الأسلوب ، وحسن تنسيق الألفاظ ورصانة العبارات حيث رتبت ترتيباً ، وصنفت إلى أبواب وفصول ، فكان سحنون بمثابة أديب وفقيه وعالم ، ثقة ، عارف بأحكام أمور الدين ، عادل في فتاويه .

فضل الكثير من أهل إفريقية والمغرب والأندلس دراسة المدونة عن المؤلفات المالكية الأخرى مثل الواضحة (لعبد الملك بن حبيب)[٣] والعتبية (لابن عبدوس)[٤] ، بل كانوا ينظرون إليها كنظرة الكتاب الأساسي للمذهب المالكي مثلها مثل الموطأ . وظلت المدونة مدة في المساجد والمجالس والحلقات العلمية في إفريقية والمغرب والأندلس حتى جاءت الدولة الفاطمية التي عملت بكل ما لديها[٥] من قوة للتصدي لأصحاب المدونة ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً .

ظهرت للمدونة الكبرى عدة مختصرات منها اختصار لمحمد بن عبد الحكم ، وآخر لأبي زيد بن أبي الغمر ، وآخر للبرقي وهو الذي صححها[٦] على ابن القاسم ، وعليها كان مدار أهل مصر .

* * *

(١) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٧٣ .
(٢) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٨١ .
(٣) ابن خير : الفهرسة ص ٢٤٨ .
(٤) ابن خير : المصدر السابق ذكره ص ٢٤٢ .
(٥) القاضي النعمان : تاريخ افتتاح الدعوة ص ٢٦ .
(٦) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٥٩٢ .

الفصل الثاني

كبار تلاميذ سحنون

كبار تلاميذ سحنون

نبغ على يد الفقيه سحنون بن سعيد عدد كبير من العلماء والفقهاء والقضاة الذين واصلوا رسالته في نشر العلم في إفريقية وجعلها قاعدة من أكبر قواعد الفقه الإسلامي والدراسات العربية ، ومن إفريقية امتد أثر مدرسة إفريقية وخاصة في عهد سحنون إلى بقية نواحي المغرب والأندلس ليبثوا ما تعلموه من فقه ودين وعلم وتقوى وفضيلة .

واختلف المؤرخون في عدد التلاميذ ما بين أربعمائة(١) وسبعمائة(٢) طالب ، ولكن الذي يهمنا في هذه النقطة هو ذكر أشهر طلابه وأثرهم في المجتمع الإسلامي ، وما كانوا يتقلدونه من مناصب هامة ووظائف سياسية وإدارية ودينية ودورهم الحضاري في العلوم الإسلامية وغيرها من العلوم ، فكان لهم دور حضاري عظيم .

وقبل التحدث عن تلاميذ سحنون يجب أن نشير إلى أن سحنون قد انتهت إليه رياسة(٣) الفقه والعلم في إفريقية والمغرب ، وحصل أصحابه على ما لم يحصل عليه أحد في إفريقية من أصحاب مالك ، وعنه انتشر علم مالك في المغرب والأندلس .

أصبحت حلقة دروس سحنون تجذب عدداً كبيراً من طلاب الأندلس(٤) والمشرق ، وأخرجت عدداً ضخماً من الفقهاء فاستوطنوا إفريقية للدراسة وتركوا بلادهم مدة طويلة ، ومنهم من استقر فيها نهائياً ، ولدينا أمثلة متنوعة على ذلك كله ، وسوف نوضحها فيما يلي عند كلامنا عن تلاميذ سحنون في الأندلس ، وتحدثنا النصوص أن بعض أولئك الطلاب كانوا يجادلون سحنون

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : الإمام المازري ص ٢٥ .
(٢) بطرس البستاني : دائرة المعارف الإسلامية جـ ٩ ص ٥٣٣ .
(٣) محمود إسماعيل عبد الرازق : الأغالبة ص ١٧٨ .
(٤) د. لطفي عبد البديع : الإسلام في أسبانيا ص ٤٠ .

في مجلسه أو في بعض مجالس العلم في إفريقية ، مما يدل على أن حلقة دروس هذا الرجل كان لها أثر في توسع نطاق العلم في المغرب والأندلس ، ويعتبر هذا مظهراً من مظاهر التنافس ، بل عاب عليه بعض الطلاب رأيه في بعض المسائل وجادله وقارعه الحجة بالحجة ، وكل ذلك يدل على أن سحنون حظي بمكانة مرموقة عند أهل المغرب والأندلس .

وهناك حقيقة يجب تفسيرها جديرة بالذكر ، وهي أن بعض الأندلسيين الذين وفدوا على إفريقية لم يظلوا طلاباً فقط يتلقون الدروس ، بل منهم من تولى مهام التدريس ، فقال المقريء عن أحدهم : « ومنهم أبو عبد الله محمد ابن عبد الملك بن فرج القرطبي الذي حدث بالمغرب ، وصنف السنن »[1] . كذلك انتقل بعض فقهاء أهل القيروان وعلمائها إلى الأندلس ، وقاموا بالتدريس في مساجدها ، وذكر ابن الفرضي : « ومن هؤلاء الفقهاء أحمد بن سليمان الذي أقام بجانة يدرس الفقه حتى توفى سنة ٢٩٦ هـ »[2] . وأيضاً عبد الله بن محمد القيرواني الذي طاف كثيراً من كور الأندلس حتى استقر بأشبيلية نهائياً[3] .

وكان من عادة سحنون أن يجلس في المسجد[4] وحوله الطلاب من مختلف بقاع العالم الإسلامي يطرحون المسائل في شتى مجالات الفقه ويسجلون ما يرونه من آراء ويجادلونه في كل صغيرة وكبيرة في فقه مالك، مما أدى إلى حدوث نهضة فقهية وفكرية في إفريقية الأغلبية . ومن أشهر تلاميذ سحنون في بلاد المغرب والأندلس والذين أخذوا عنه الزهد والعبادة والورع وعمل الخير ،

---

(١) المقريء : نفح الطيب جـ ٢ ص ٦ .
(٢) ابن الفرضي : تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ص ١١٣ .
(٣) الأزدي : جذوة المقتبس ص ٢٥١ .
(٤) السفطي : في آداب الحسبة ص ٢ .

وساروا على نمط حياة أستاذهم في خدمة العلم والفقه في بلادهم وعلى رأسهم :

أحمد بن محمد الأشعري بن حمديس القطان : قيل إنه ينتمي نسبه إلى سلالة أبي موسى[١] الأشعري وهو من كبار أصحاب سحنون ، رحل إلى المشرق[٢] فلقى أبا مصعب وأصحاب ابن القاسم وابن وهب وأشهب .

وكان أحمد بن محمد الأشعري عالماً في الفضل مثلاً في الخير مع شدة التماسك[٣] في مذهب أهل السنة ، وكان أيضاً ورعاً ثقة مأموناً يضرب به المثل في العبادة ، مجانباً لأهل الأهواء والسلاطين وكان يقول : « لما اعتل حمديس أحضرنا له طبيباً فتبسم وقال : ما أقبح المخالفة بعد الموافقة ، من أراد الله عز وجل به حالاً وأراد هو غيره ، أليس قد خالف »[٤] ثم قال :

بيـــد الله دوائـــي والله يعـــلم دائـــي
إنمـــا أظلـم نفســي باتبـــاعـي لهـــوائي
كلمـــا داويت دائـي غلب الداء دوائـي

وقيل إن رجلاً كتب إلى حمديس قال : « كتب إلي رجل من أهل المشرق إن كان عندكم الخبز من حلال فأعلموني حتى أقدم عليكم ، فأنا منذ سنة ما وجدت له جواباً »[٥] ومن المعروف أن أحمد بن محمد كان لا يسلك المشي على القناطر[٦] التي بناها أصحاب السلطان ، توفي في عام ٢٨٩ هـ ، بينما ولد في رجب سنة ٢٠٣ هـ .

ومنهم أبو يوسف جبلة بن حمود بن عبد الرحمن : من أبناء القادمين[٧] إلى

---

(١) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٥٤ .
(٢) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٢٠٢ .
(٣) ابن فرحون : المصدر السابق ذكره ص ٣١ .
(٤) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٩٥ .
(٥) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٩٤ .
(٦) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٢٠٧ .
(٧) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٤٧ .

إفريقية مع حسان بن النعمان ، أسلم جده على يد عثمان بن عفان رضى الله عنه . سمع من سحنون وعون وأبي إسحاق البرقي وداود بن يحيى[١] ، وأخذ عن سحنون المدونة والموطأ .

وكان جبلة بن حمود فقيهاً زاهداً ، واحد زمانه في الزهد والورع وفاق أصحاب سحنون في الزهد والعبادة .

وقال عنه سحنون : « إن عاش هذا الشاب فسيكون له نبأ ، وهو أزهد أهل زمانه »[٢] . كذلك أضاف سحنون عبارة أخرى عنه : « لو تفاخر علينا بنو إسرائيل بعبادهم ، فاخرناهم بجبلة »[٣] .

أما الخشني فقال في جبلة بن حمود : « كان من أهل الخير البين والعبادة الظاهرة والورع والزهد ، وكان الغالب عليه النسك والزهد ، وكان أبوه من أهل الدنيا والأموال وممن يصحب السلطان ، فنابذه في حياته »[٤] . كذلك قال القاضي موسى بن عبد الرحمن القطان : « من دخل دار عمر بن الخطاب رضى الله عنه فليدخل دار جبلة بن حمود لزهده وتقلله »[٥] . وكان جبلة لا يحب أن يظهر أعماله بين الناس ، بل كانت أعماله كلها خفية ، حتى الزهد فإنه كان لا يظهر عليه . وكان جبلة لا يذكر قط الدنيا بمدح ولا ذم ، وقال عنه أبو موسى : ما رأيت أزهد من جبلة (من أفضل رجال سحنون) وقد علاهم في الزهد[٦] .

والشيء الذي يؤخذ على جبلة أنه شهد على أبيه بأنه قتل[٧] رجلاً عمداً

---

(١) هو داود بن يحيى بن يمان العجلي الكوفي من الحفاظ المبرزين الأثبات ، حدث عنه رفيقه معاوية بن عمرو الأزدي ، مات سنة ٢٠٣ هـ .

ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٢ ص ٦ ، الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٣٦٣ ، السيوطي : طبقات الحفاظ ص ١٧٧ .

(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٤٧–٢٤٨ .

(٣) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٢٧١ .

(٤) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ١٩٥ .

(٥) الشيرازي : طبقات الفقهاء ص ١٣٤ .

(٦) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٧١ .

(٧) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ١٤٤ .

عند بعض القضاة ، وكان جبلة بن حمود ينكر على من يخرج من القيروان إلى سوسة ونحوها من الثغور ويقول : « جهاد هؤلاء أفضل من جهاد الشرك »(١) . وكان يكره الشيعة وعمل بكل ما يملك من قوة على مجاهدة عبيد الله وشيعته .

توفي جبلة بن حمود عام ٢٩٩ هـ ، وولد سنة ٢١٠ هـ وله عن سحنون روايات يرويها وحكايات يحكيها ، وله كتب سماها المجموعة(٢) .

ومنهم عبد الله بن غافق التونسي يكنى بأبي عبد الرحمن ، سمع من زيد بن بشير وابن عبد الحكم ، وكان موصوفاً بالورع والعلم والكرم . كان فقيهاً ذا هيبة ونسك(٣) ، معدوداً في أصحاب سحنون ، ثقة ، مأموناً ، وكانت له طاعة بتونس لا يتقدمه أحد منهم في وقته ولا يخالف أمره ، وعرض عليه إبراهيم بن أحمد قضاء القيروان فرفض ، وقال عنه الخشني : « كان من الحفاظ المعدودين ومن وجوه هذه الطبقة ، فقيهاً ، نبيلاً عاقلاً من أهل المروءة »(٤) . وكان أهل بلده يعتمدون عليه في الفتوى ، وكان يقال : في إفريقية ثلاثة(٥) رجال من أهل العلم لم يكن أحد في الناس أطوع منهم : محمد بن عبدوس بالقيروان وأحمد بن مخلد بقسنطينة وابن غافق بتونس .

ويحكي القاضي عياض عن ابن غافق التونسي عن عدو له فقال : « وكان له عدو من أهل بلده ، فقدم عدوه إلى القيروان يبدأ بثلبه ونقضه لا يقعده في مجالس أهل العلم ، فبلغ ذلك ابن غافق ، فبدأ بإرسال التحف والهدايا إلى من خلف ذلك الرجل في داره بتونس من أهله وولده فأغرقهم بها ، وكتبوا إليه إلى القيروان يعلمونه أن ابن غافق أغرقنا بالنعم ، فاستحيا ذلك الرجل الذي

---

(١) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٢٧٣ .
(٢) محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ذكره ص ٧٣ .
(٣) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٣ ص ٢٧٢ .
(٤) الخشني : طبقات علماء إفريقية ص ٢٠١ .
(٥) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ٢٠٢ .

يثلبه ، وقلب لسانه بحمده وشكره ، وجعل يعتذر إلى كل من حفظ عنه فيه مقالاً سيئاً »[١] .

ولما حج ابن غافق أهدى إليه رجل هدية في سفره[٢] فكافأه عليها في حينه ، ثم أهدى إليه ثانية فكافأه ، فجعل الآخر يكثر في تهاديه وابن غافق يرد من مكافأته . فلما أكثر عليه لقيه فقال له ابن غافق : إن كان يسرك أن أرجع إلى بلدي وعلي دين ، فتماد في فعلك . فكف الرجل عنه .

وذكر أنه ناظر ابن الكوفي[٣] يوماً فلما ضيق ابن غافق عليه بالحجة قال له ابن الكوفي : إن مشورتك كبيرة — يعني رأسك — وكان طويل الرأس . توفى ابن غافق عام ٢٧٥ هـ وقيل ٢٧٧ هـ بتونس .

تخرج في مدرسة سحنون عدد كبير من تلاميذه ، وتقلدوا مناصب قضائية وفقهية كبرى ، ولعبوا دوراً هاماً في التطور العلمي والفكري في بلاد المغرب والأندلس نذكر منهم : حزم بن غالب الرعيني : طليطلي الأصل[٤] سمع من عيسى بن دينار ويحيى بن يحيى الليثي ثم رحل إلى المشرق فلقي سحنون بن سعيد ، وكان مفتي بلده وصاحب الخطبة والصلاة[٥] والقضاء . ومنهم حبيب ابن نصر التميمي من أصحاب سحنون ، يكنى بأبي نصر[٦] وهو من أبناء الجند القادمين إلى إفريقية ، كان فقيهاً ، ثقة ، حسن الكتاب والتقييد ، وكان نبيلاً في نفسه ، له عدة مصنفات وكتب ، وقد أدخل[٧] ابن سحنون سؤالاته في كتابه (آداب المعلمين) ، نذكر من مصنفات كتاب في مسائل سحنون[٨] .

(١) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٧٢ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٥٢ .
(٣) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٧٣ .
(٤) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٦٢ .
(٥) ابن الفرضي : تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس جـ ١ ص ١٣٧ .
(٦) ابن فرحون : المصدر السابق ذكره ص ١٠٦ .
(٧) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٤٩ .
(٨) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ١٩٢ .

ولاه سحنون صاحب مظالم إفريقية ومن المعروف أن سحنون أول[١] من اتخذ صاحب المظالم . وسأل حبيب بن نصر يوماً عن كيف ولاك سحنون المظالم ؟ فقال : والله ما كنت أهلاً ذلك قط مع غيره فكيف معه ، وذلك أني تأخرت يوماً فسأل عني فأخبره أصحابي أني غسلت ثوبي . فلما أتيته من غد وجلست إليه قال : قم يا حبيب فقد وليتك مظالم القيروان[٢] . ثم قال لي : اتق الله يا حبيب . وقيل : أسند إليه هذا المنصب سنة ٢٣٦ هـ وقيل ٢٣٧ هـ . ويقال بل لما ولاه سحنون المظالم أرسل معه نحو عشرة من أصحابه أكفوه (المؤونة) اليوم حتى يأنس[٣] وتركوه .

اختلف في سنة وفاة حبيب بن نصر فقيل سنة ٢٨٤ هـ وقيل ٢٨٥ هـ ، وقيل ٢٨٧ هـ ، وله من العمر ست وثمانون سنة[٤] ، وكان قد ولد سنة ٢٠١ هـ .

ومنهم حماس بن مروان بن سماك الهمداني وكنيته أبو القاسم القاضي . وهو معدود في أصحاب سحنون سمع منه صغيراً[٥] ومن ابن عبد الحكم بمصر[٦] وأيضاً من أصحاب محمد بن عبدوس[٧] ، فلما مات سحنون اتجه إلى ابنه محمد ، ولما مات محمد بن سحنون سنة ٢٥٦ هـ تفقه على يد محمد بن عبدوس فانتفع به ، وكان من بعد عالماً أستاذاً ، حافظاً بأسباب مالك وأصحابه ، يحكي في معانيه ابن عبدوس .

ومن ثناء العلماء على حماس بن مروان أنه لما قصد حلقة ابن عبد الحكم[٨] فجلس وابن عبد الحكم لا يعرفه — فتكلم حماس فصرف إليه

---

(١) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٩٨ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٤٦ .
(٣) ابن فرحون : المصدر السابق ذكره ص ١٠٦ .
(٤) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ١٥٢ .
(٥) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ٢٠٧ .
(٦) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ١٥٣ .
(٧) ابن فرحون : المصدر السابق ذكره ص ١٠٩ .
(٨) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ٢٠٧ .

ابن عبد الحكم وجهه ، ثم زاد في الكلام فسأله ابن عبد الحكم عن مسألتين في الجراح فأجابه ، ثم سأله عن الفرق فأجاب وجوّد . فقال له ابن عبد الحكم : ينبغي أن تكون حماس بن مروان ؟ قال : نعم ، فعاتبه إذ لم يقصد إليه ، ثم قربه وأكرمه .

قال بعض مشايخ إفريقية : اجتمعت في حماس خصال[١] أربع قل أن تجتمع في رجال سحنون : الفقه الكثير ، والورع الجيد ، والعبادة ، والزهد .

ولي القضاء حماس بن مروان سنة ٢٩٠ هـ[٢] ، ثم استعفى منها سنة ٢٩٤ هـ وذلك عندما تغيرت الأحوال في القيروان . ومن المعروف أن زيادة الله بن الأغلب عزل الصديني عن قضاء القيروان ، وكان الصديني حينئذ معتزلياً ، فأراد زيادة الله أن يستحمد إلى العامة بولاية حماس وكتب إليهم : « إني قد عزلت عنكم الجافي الجلف المبتدع ، ووليت حماس بن مروان لرأفته ورحمته وطهارته وعلمه بالكتاب والسنة »[٣] ففرحت ورضيت الخاصة والعامة .

وكان حماس بن مروان من أفضل القضاة[٤] في القيروان وأعدلهم ، وكان في علم القضاء حسن الفطرة والنظر ، لفضل فهمه في الفتيا من أهل الدين والفضل ، وكانت أيام قضائه أيام حق ظاهر وسنة وعدل قائم ، وكان يجلس معه في مجلسه أربعة من الفقهاء هم موسى بن القطان وأبو عبد الله الضراب وعبد الرحمن ، وسألهم أن ينظروا ما يدور في مجلسه ، وكان لا يحكم بين خصمين حتى يناظر في قضيتهما . وكان حماس بن مروان لا يهاب سلطاناً ولا غيره في حق ، فقيل إن عامل القيروان قتل[٥] إنساناً بغير حق ، فكتب إليه

---

(١) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٣٢١ .
(٢) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ٢٣٨ .
(٣) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٣٢٧ .
(٤) ابن فرحون : المصدر السابق ذكره ص ١٠٩ .
(٥) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ٢٠٧ .

حماس يعظه في سفك الدماء فأنف وقال : ما لحماس وهذا ؟ أنا سلطان أنظر في الدماء وشبهها . ثم قصد حماس تونس لمقابلة الأمير زيادة الله بن الأغلب واجتمع معه ، فعزل أمير القيروان وصرف حماساً مكرماً . والذي يرجع في استعفاء حماس بن مروان أنه لا يتقاضى أجراً[١] فهو يتعب بلا فائدة دنيوية ، إلى جانب أن الأمير لم يقبل النصيحة ، ولما عزل حماس خرب الله إمارة الأغالبة على يد عبد الله الشيعي ، فخرج حماس هارباً إلى المشرق[٢] ومعه ابن الصبايغ ، توفي سنة ٣٠٤ هـ وقيل ٣٠٣ هـ . ومنهم محمد بن سليمان بن سالم ابن الفطان وكنيته أبو الربيع القاضي ويعرف بابن الكحالة[٣] من مولى غسان من أصحاب سحنون ، سمع منه ومن ابنه[٤] ومن عون بن يوسف وداود بن يحيى وزيد بن بشير . وكان محمد بن سليمان ثقة كثير الكتب والشيوخ ، حسن الأخلاق ، باراً بطابة العلم أديباً كريماً ، وغلب عليه الرواية[٥] والتقييد وله تأليف في الفقه . تعرف كتبه بالكتب السليمانية[٦] نسبة إليه ، ولاه عبد الله بن طالب قضاء باجة وولاه عيسى بن مسكين مصالح القيروان وأذن له راتباً[٧] مائة دينار ، ثم ولاه ابن مسكين قضاء صقلية فخرج إليها وكان له الفضل في نشر مذهب مالك في صقلية ، مات سنة ٢٨٩ هـ بصقلية ولم يترك مالاً بعد موته .

ومنهم أبو العباس عبد الله بن طالب بن سفيان بن سالم بن عقال بن صبابة الحتوي[٨] ، وقيل اسمه عبد الله بن طالب بن سفيان بن سالم بن عقال بن

(١) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٣٣٨ .
(٢) ابن فرحون : المصدر السابق ذكره ص ١٠٩ .
(٣) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ١٤٨ .
(٤) ابن فرحون : المصدر السابق ذكره ص ١١٩–١٢٠ .
(٥) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٥٩ .
(٦) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٣٤ .
(٧) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ٢٠٠ .
(٨) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٧٥ .

خفاجة[١] التميمي من بني عم الأغلب أمراء القيروان .

تفقه بسحنون ، وحج فلقي في المشرق محمد بن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى[٢] .

كان أبو العباس عبد الله بن أحمد فطناً ، جيد النظر ، يتكلم في الفقه فيحسن ، حريصاً على المناظرة ، يجمع في مجلسه المختلفين من الفقهاء ويغري بينهم لقصد الفائدة ، فإذا تكلم أجاد وأبان حتى يود السامع ألا يسكت ، ولم يكن شيء أحب إلى ابن طالب من المذاكرة إلا يحيى بن عمر .

قال عنه أبو العرب : « كان عدلاً في قضائه ، صارماً في جميع أمره ، فقيهاً ، ثقة ، عالماً بما اختلف فيه ، وفي الذب عن مذهب مالك ، ورعاً في حكمه ، قليل الهيبة في الحق للسلطان ، وما سمعت العلم قط أطيب ولا أحلى منه من ابن طالب »[٣] .

وكان عبد الله بن أحمد كثير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، رقيق القلب ، كثير الدموع ، ولابن طالب من التأليف كتاب الرد على من خالف مالكاً وثلاثة أجزاء في أماليه .

كان عبد الله بن أحمد بن طالب جميل[٤] الصورة ، باهي الخلق فاخر اللباس أخوص العينين ، وكان الأمير إبراهيم بن أحمد قد فوض[٥] إليه أمر النظر في الولاة والجباة والحدود والقصاص والعزل والولاية ، وأمره بقطع المنكر والملاهي من القيروان ، فجعل على أكتاف اليهود والنصارى رقاعاً بيضاء في كل رقعة منها قرد وخنزير ، وجعل على أبواب دورهم ألواحاً مسمرة في الأبواب مصورة فيها قردة ، وضيق على أهل القيروان في ملاهيهم وملاعبهم .

---

(١) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٩٤ .
(٢) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ١٣٦ .
(٣) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٦٠ .
(٤) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٩٤ .
(٥) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٨١ .

وكان من المعروف أن ابن طالب قد تولى قضاء القيروان مرتين ، أحدهما لما عزل سليمان بن عمران[١] ولاه إبراهيم بن الأغلب فعظم قدره . ثم رأى إبراهيم بن الأغلب[٢] ميل نفوس الناس إلى ابن طالب ومحبتهم له لعدله وسماحته وعقله وحسن سيرته وعلمه واستبشارهم بأيامه لرخص السعر وارتفاع الوبا ، فعزله إبراهيم ورد سليمان بن عمران .

ومن سخاء ابن طالب أنه كان يتداين[٣] بالمال ويتصدق به ، وإذا لم يحضر شيء من المال يتصدق بلجام فرسه وبمصحفه وبنعله من رجله وخاتم يديه وحلي بناته وعياله ، وكان إذا رأى بعض الفقراء في الشتاء ليس عليه دثار نزع فروه وبعض ثيابه وكساه .

وحكي أنه شكا إلى ابن طالب الشريف بن الحسين أنه زوج ابنته وتعذر عليه تجهيزها ، فدخل ابن طالب إلى زوجته وقال لها : « إن ابن الحسين يدخل ابنته وليس عنده شيء فأعطيني حلي ابنتك وكسوتها ندفعها إليه ، وإنا نعوضك ونعوضها »[٤] وشكا إليه رجل أنه يريد أن يجهز ولده فأعطاه ثلاثين ديناراً .

وروى عنه السخاء أيضاً ، فقد قيل إنه لما ولي القضاء كان عنده ثمانون ألفاً[٥] فلم يمت حتى تصدق بها كلها ، أيضاً أن رجلاً أكرمه في طريقه ولم يعرفه فقال : « سل في القيروان عن دار ابن طالب » فلما وصل الرجل دفع إليه خمسة آلاف درهم وعشر خلع[٦] .

كان ابن طالب قد امتحن مرتين أو مر بمحنتين[٧] : المحنة الأولى كانت في

---

(١) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ٢٣٦-٢٣٥ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٩٦ .
(٣) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٦٤ .
(٤) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٧٥-٣٨٠ .
(٥) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٧٠ .
(٦) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٠٢ .
(٧) المالكي : رياض النفوس جـ ١ ص ٣٨٤ .

ولاية سليمان بن عمران فسجن تسعة أشهر ، وكانت المحنة الثانية بعد ولاية سليمان أي في عهد ولاية ابن عبدون[١] ، وذلك أنه نظر إلى ما فعل إبراهيم بن الأغلب من الفسوق والاستطالة على المسلمين وإباحته السودان نساء (إبيانه) حين امتنع أهلها من بيعها له ، وقد جاءت امرأة[٢] بابنتها في ثوب فألقته بين يديه ، فترجع وقال : ما أراه يؤمن بالله ، فوصلت هذه العبارة إلى الأمير إبراهيم بن أحمد فأخذه بالقوة وسجنه حتى مات في السجن . وقيل إن الأمير بعث له رجالاً ضربوه بركبهم في بطنه حتى مات ، وقيل إنه سقاه سماً فمات به ، مات في سنة ٢٧٥ هـ[٣] وهو بالغ من العمر ثمانية وخمسين عاماً .

ومنهم أيضاً أحمد بن لبدة ويكنى بأبي جعفر وهو ابن عم سحنون[٤] عن طريق الرضاعة[٥] ، وكان ثقة أخذ عنه الناس ، وكان وجيهاً ذا فضل ، ولم يكن له ظهور في الفقه في إفريقية إلا أنه قام له جاه[٦] في البلد بعد موت سحنون ، ولكنه لم يشتهر بين الناس بعلم كبير . ومما يدلنا على ذلك أن بعض الناس في القيروان كانوا يطلقون عليه لقب عالم الأمير[٧] وهم يفطنون إلى أنه لا علم عنده ، وإنما الأمير جعله عالماً ، وهذا يرجع إلى أن أحد أمراء الأغالبة استعان به لفض الناس من مسجد القيروان بعد إعلانهم العصيان والتمرد عليه ، ولكن ابن لبدة كان يتصف بقوة الشخصية وغزارة العلم .

لم يكن تلاميذ سحنون بن سعيد من العرب والبربر المستعربين فقط ، بل كان منهم رجال كثيرون من أصول أخرى ، فكان منهم أصول أعجمية وفارسية ورومانية ويهودية نبغوا وبرعوا في دراسة علم الفقه ، نذكر منهم :

---

(١) القاضي عياض : ترتيب المدارك جـ ٣ ص ٢٠٧ .
(٢) الدباغ : معالم الإيمان جـ ٢ ص ١٧٣ .
(٣) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ١٧٦ .
(٤) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٣١ .
(٥) مجهول : المصدر السابق ذكره جـ ٤ ص ٦٨ .
(٦) الخشني : قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ص ٢٠٦ .
(٧) ابن فرحون : المصدر السابق ذكره ص ٣١ .

محمد بن إبراهيم بن عبدوس بن بشير المعروف بابن عبدوس : أصله من العجم من موالي قريش ، وهو من كبار أصحاب سحنون وأئمة وقته ، وهو رابع[١] المحمدين الذين اجتمعوا في عصر واحد من أئمة مذهب مالك لم يجتمع في زمان مثلهم ، هم : اثنان مصريان هما محمد بن عبد الحكم ومحمد بن المواز ، واثنان قيرويان هما محمد بن سحنون ومحمد بن عبدوس .

يعتبر محمد بن عبدوس من تلاميذ سحنون البارزين في المجتمع الأغلبي خاصة والعالم الإسلامي عامة ، تفقه على يد موسى بن معاوية الصمادحي[٢] وعبد العزيز المدني وسحنون .

وكان محمد بن عبدوس ثقة ، إماماً في الفقه ، صالحاً زاهداً ، ظاهر الخشوع ، ذا ورع وتواضع ، ذا هيبة ، وقد شبهه[٣] بعض الناس بسحنون في فقهه وزهده وسيرته وهيبته وملبسه ومطعمه ، وكان صحيح الكتاب ، حسن التقييد ، عالماً بما اختلف فيه أهل المدينة وما اجتمعوا عليه . وقال عنه حماس ابن مروان القاضي : « ما رأيت مثل ابن عبدوس في الفقه والعبادة »[٤] . كذلك قال القاضي عبد الله بن طالب : « اللهم أبقني ما أبقيت محمد بن عبدوس ، أقتدي به في ديني »[٥] . أما ابن شبلون فقال : « ما أظن كان في التابعين مثل ابن عبدوس »[٦] . وأضاف الخشني في الكلام عن صفات محمد ابن عبدوس فقال فيه : « كان حافظاً لمذهب مالك والرواة من أصحابه، إماماً مبرزاً فقيهاً في ذاته خاصة ، غزير الاستنباط ، جيد القريحة ، ناسكاً عابداً ، متواضعاً ، مستجاب الدعوة »[٧] وقال حبيب صاحب مظالم سحنون :

---

(١) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١١٩ .
(٢) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ١٣٣ .
(٣) الذهبي : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٠٣ .
(٤) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٢٠ .
(٥) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٣٨ .
(٦) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٢٠ .
(٧) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ١٨٢ .

« كنت أسأل سحنون فإن لم أقدر على سؤاله سألت محمد بن عبدوس »[1] .

ألف محمد بن عبدوس عدة كتب ومصنفات منها كتاب أسماه المجموعة[2] على مذهب مالك وأصحابه ، وأعجلته المنية قبل الانتهاء منه . وله أيضاً كتاب التفاسير ، وله عدة كتب أخرى فسر فيها أصولاً من العلم كتفسير كتاب المرابحة[3] وتفسير المواضعة ، وتفسير كتاب الشفعة وكتاب الدور ، وله أيضاً أربعة أجزاء في شرح مسائل من المدونة[4] ، وكتاب الورع ، وكتاب فضائل أصحاب مالك ، وكتاب مجالس مالك أربعة أجزاء .

وكان محمد بن عبدوس يجلس في ركن المسجد فلا يعرفه السائل من شدة تواضعه وزهده ، وكان يركب بين السلال إذا سار إلى منزله ، قيل إنه دعا على ابن الأغلب المعروف بأبي الغرانيق[5] فعرفت استجابته .

أقام محمد بن عبدوس سبع سنوات[6] في داره يدرس ولا يخرج إلا يوم الجمعة ، وصلى الصبح بوضوء العتمة ثلاثين سنة ، خمس عشرة في العبادة . توفي محمد بن عبدوس سنة ٢٦٠ هـ[7] وقيل سنة ٢٨٠ هـ ، وصلى عليه أخو أبي إسحاق[8] ودفن بباب نافع .

ومنهم عيسى بن مسكين بن منصور بن جريج يكنى بأبي موسى وهو من العجم[9] ، ينسب إلى قريش من أهل الساحل ، ويفهم من اسمه أن جده كان نصرانياً اسمه جريج وهو تصغير جورجير . والذي دخل الإسلام هو منصور بن

---

(١) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٦٠ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٢١ .
(٣) الشيرازي : المصدر السابق ذكره ص ١٣٤ .
(٤) حسن حسني عبد الوهاب : الإمام المازري ص ٢٧ .
(٥) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٢٠ .
(٦) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ١٨٣ .
(٧) مجهول : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٨٩ .
(٨) الصفدي : الوافي بالوفيات جـ ١ ص ٣٤٢ .
(٩) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ١٤٢ .

جريج بدليل أنه أخذ اسماً إسلامياً ونشأ ابنه منصور مسلماً ، وهذا مثال من أفارقة أهل الساحل الذين غلبت عليهم الحضارة الرومانية المسيحية ثم دخلوا الإسلام بعد ذلك .

سمع عيسى بن مسكين من سحنون وابنه محمد جميع كتبهم ، قام برحلة إلى المشرق ، فلقي بمصر الحارث بن مسكين[1] ومحمد بن المواز ويونس بن الأعلى ، وفي الشام من أبي جعفر الأيلي . وقيل إن عيسى قابل أكثر من ألف شيخ من أهل الحديث . وكان عيسى بن مسكين قاضي القيروان من أهل الفضل[2] البارع والورع الصحيح والصمت الطويل ، وكان من أهل الفقه والآثار مهيباً ، وقوراً ، ثقة ، مأموناً صالحاً ، ذا سمت وخشوع ، كثير الكتب ، وكان يشبه سحنون في هيبته ، رقيق القلب غزير الدمعة ، كثير الاشتقاق ، متقناً لكل العلوم والحديث والفقه وأسماء الرجال وكناهم وقوتهم وضعفهم ، فصيحاً يجيد الشعر ، وكان اعتماده كلياً على سحنون وبه كان يقتدي في كل أموره ، من شمائله وزهده ومخاشنته ومباينته لأهل البدع ، حسن المودة بيّن المروءة ، وقال البصري فيه[3] : « كان مع ذلك عالماً باللغة قائلاً للشعر » ويقال إنه كان مستجاب الدعوة . قال أبو العرب[4] : لقد جلست إلى كثير من أهل العلم فما رأيت أحداً مثله ، وما أشبهه إلا بمن كان قبله من التابعين . ومحمد بن سحنون يفضله ويجله إلى نفسه عن بقية الفقهاء ، فإذا حضر عيسى مجلسه أمره بأن يؤذن ويقيم ويصلي . وكان محمد بن سحنون يقول فيه : يا أهل الساحل هذا[5] فضلكم وخيركم وإمامكم . وإذا حدث وتفاخر أهل المدينة وأهل العراق برجالهم ، فيقال لأهل العراق : هل عندكم مثل عيسى بن مسكين ، فيردون : ذلك أفضلكم وأفضلنا .

---

(١) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢١٤ .

(٢) ابن فرحون : المصدر السابق ذكره ص ١٥٩ .

(٣) الخشني : المصدر السابق ذكره ١٩٤ .

(٤) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ١٢٤ .

(٥) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢١٤ .

عرض عليه الأمير إبراهيم بن الأغلب ولاية القضاء بعد أن عرض أولاً على الفقيه يحيى[١] بن عمر ، فقال له يحيى : عيسى بن مسكين . فأرسل إليه عاجلاً إلى كورة الساحل ، فنفر عيسى في بداية الأمر قائلاً : إني رجل طويل الصمت قليل الكلام ، غير نشيط في أموري . فرد عليه الأمير الأغلبي : عندي مولى[٢] من مواليَّ على دراية كبيرة من الأحكام وشيىء من القضايا ، فأنا أضمه إليك يكون لك كاتباً فيصدر عنك في القول في جميع ما يرد عليك من الأمور ، فما رضيت من قوله أمضيت ، وما سخطت رددت وقيل : قبل عيسى منصب قاضي إفريقية يعاونه كاتبه حسن البناء[٣] ، ولم يأخذ عيسى أجراً عن هذه الوظيفة مقلداً أستاذه سحنون بن سعيد التنوخي . توفي عام ٢٧٥ هـ[٤] ، وقيل عام ٢٩٥ هـ . وقد حزنت كل إفريقية على موت هذا الرجل . وقال رجل عنه : تجدون العلم بعد عيسى ، ولا تجدون مثل ورعه[٥] وزهده وأدبه . ومنهم أحمد بن موسى بن مخلد من العجم ، يقال له عيشون ويكنى بأبي عاشر[٦] ، ويلاحظ من كنيته أنه يهودي الأصل ثم دخل الإسلام ، ونبغ في دراسة علوم الإسلام وهو شيخ صالح ، ثقة ، فقيه زاهد ، متعبد ، فاضل ، ورع ، ضابط صحيح الكتاب ، حسن التقييد ، عالم بكتبه ، معدود من أصحاب سحنون .

تفقه أحمد بن موسى على يد سحنون ، مات سنة ٢٩٥ هـ وصلى عليه عبد الله بن محمد بن سحنون (حفيد سحنون) .

ومنهم عثمان بن أيوب بن أبي الصلت : من أهل قرطبة يكنى بأبي سعيد ، وأصله يرجع إلى الفرس[٧] ، رحل إلى المشرق فسمع سحنون بن سعيد في

(١) ابن فرحون : المصدر السابق ذكره ص ١٧٩ .
(٢) الذهبي : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٠٢ .
(٣) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ١٩٤ .
(٤) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٢٨ .
(٥) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٢٨ .
(٦) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٢٨ .
(٧) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٤٥ .

القيروان ، وقيل أنه أول من أدخل[١] المدونة الكبرى بالأندلس ، وسمع بمصر من أصبغ من الفرج ، وكان شيخاً ورعاً فاضلاً يتصف بالعلم والورع ، وكان صديقاً ليحيى بن يحيى الليثي ، ويشتهر بالدقة[٢] والأدب والحلم وحسن الخلق ، توفي عام ٢٦٧ هـ وقيل عام ٢٤٦ هـ .

ومن تلاميذ سحنون بن سعيد الذين ذاعت شهرتهم في علم الحديث وكان لهم دور بارز في التطور الفكري والحضاري في بلاد المغرب والأندلس نذكرهم إبراهيم بن شعيب الباهلي وأحمد بن معتَب بن أبي الأزهر .

فإبراهيم بن شعيب الباهلي : وهو من أهل البيرة[٣] (إلى جوار غرناطة) ويكنى بأبي إسحاق ، سمع في الأندلس من عبد الملك بن حبيب ويحيى بن يحيى الليثي ، ثم ذهب إلى المغرب فسمع من سحنون[٤] بن سعيد ثم من ابنه محمد بن سحنون ، وعاد إلى البيرة لينشر ما تعلمه من سحنون . وكان فقيهاً حافظاً ومحدثاً[٥] ، توفي عام ٢٩٥ هـ في البيرة .

أما أحمد بن معتب بن أبي الأزهر بن عبد الوارث بن حسن الأزدي[٦] فكان نبيلاً معدوداً من أصحاب سحنون،وكانت له رحلة للمشرق[٧].سمع سماعات كثيرة ، وكان فقيهاً صالحاً ، وله صلاة طويلة وبكاء بالليل حتى يسمع جيرانه[٨] نحيبه ، وكان عالماً بالحديث ، فاضلاً ، صحيح اليقين ثقة ، وهو الذي مات من خشى ذكر الله تعالى[٩] ، وكان سحنون بن سعيد إذا

---

(١) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٣٧ .
(٢) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٤٥ .
(٣) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٧ .
(٤) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٥٦ .
(٥) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٧ .
(٦) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٧ .
(٧) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٢٧ .
(٨) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٧٧ .
(٩) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ١٣٨ .

اجتمع الناس للسماع يقول : انظروا هل جاء أحمد بن معتب ، فإن جاء قرأ القارىء وإلا أخر ذلك حتى يأتي . وكان أيضاً ابن معتب لطيف المكانة من الأمير إبراهيم بن أحمد الأغلبي،وكان يكتب إليه: ياأخي[1] في الإسلام وشقيقي في المحبة ، توفي عام ٢٧٧ هـ وصلى عليه الأمير إبراهيم بن أحمد[2] .

أيضاً من تلاميذ سحنون الذين تعلموا علم الفرض والحساب منه ونشروا هذا العلم بعد موت أستاذهم في أرجاء الدولة الإسلامية ، نذكر منهم أحمد بن محمد بن عجلان .

فأحمد بن محمد بن عجلان من أهل سرقسطة[3] ، كان فقيهاً سمع هو وأخوه من سحنون[4] ، وكان أحمد بن محمد عالماً فاضلاً ، وهو من المشهورين بالفضل والخير ، بصيراً بالفرض والحساب جيداً ، ووضع فيه كتاباً ، وولي قضاء سرقسطة .

أما علم القراءات فقد خرج من مدرسة سحنون عدد لا بأس به من التلاميذ الذين بثوا هذا العلم في بلاد المغرب والأندلس ، منهم عبد الله بن مسعود .

فعبد الله بن مسعود من أهل طليطلة[5] ، رحل إلى المشرق فسمع من سحنون بن سعيد وأصبغ بن الفرج ، وكان عالماً بالقراءات حسن الصوت بالقرآن .

أما المسائل والفتيا فكانت مدرسة سحنون بن سعيد عظيمة بعدد كبير من التلاميذ برعوا في المسائل والفتيا ، وكان لهم أثر طيب في بلاد المغرب والأندلس ، نذكر على سبيل المثال واحداً منهم هو سعيد بن عفان يكنى بأبي

---

(١) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ١٨٩ .
(٢) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٧٢ .
(٣) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٤ .
(٤) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٦٤ .
(٥) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٢٥٣ .

محمد وهو طليطلي الأصل ، قام برحلة إلى المشرق فلقي سحنون بن سعيد ، وهو من أهل العلم[١] في المسائل والفتيا ، وكان يتورك في أمره .

أما علم الفقه فقد تتلمذ وتخرج منه على يد سحنون بن سعيد عدد لا يحصى من التلاميذ ، كان هؤلاء التلاميذ قد رسخوا أسس المذهب المالكي في بلاد المغرب والأندلس ، وهذا نتيجة ما تلقوه من علم وفقه من أستاذهم سحنون وغيره من الفقهاء والشيوخ في القيروان وغيرها من بلاد المغرب ، وسوف نتناول الآن بالكلام عدداً من تلاميذ سحنون ممن اشتهروا بالفقه وما لهم من دور في تطور الفقه والمذهب المالكي ، وفي مقدمتهم ابنه الذي ورث عنه خلقه وكثيراً من علمه وطريقته في الحياة وهو محمد بن سحنون من رجال أهل القيروان المشهورين بالعلم والتقوى ، ولد عام ٢٠٢ هـ[٢] وقيل عام ٢٠٠ هـ ، سمع من أبيه ومن موسى بن معاوية الصمادحي وعبد الله بن أبي حسان ، ثم ذهب إلى المدينة لأداء فريضة الحج فلقي أبا المصعب الزهري وسلمة بن شيب النيسابوري وابن كاسب ، وكانت رحلته للمشرق عام ٢٣٥ هـ .

اعتنى سحنون بتربية ابنه محمد عناية خاصة[٤] ، وكان يرجو أن يبلغ به من العلم درجة تجعله حقيقاً بأن يخلف أباه . وبهذه المناسبة نذكر أن سحنون لم ينجب إلا محمداً وبنتاً تسمى خديجة[٥] كانت من أهل الفقه ، وسنتحدث عنها في آخر هذا الفصل .

كان سحنون يقول لمعلم ابنه : « لا تؤدبه إلا بالمدح ولطف الكلام ، ليس هو ممن يؤدب بالضرب والتعنيف على نحلتي ، وأخاف أن يكون عمره

---

(١) الذهبي : العبر في خبر من غبر جـ ٢ ص ٣١ .
(٢) الخشني : قضاة قرطبة ص ١٨٢ .
(٣) اليافعي : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٨٠ .
(٤) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات الحضارة العربية بإفريقية التونسية جـ ١ ص ٨٣ .
(٥) حسن حسني عبد الوهاب : شهيرات التونسيات ص ٢٣ .

قصيراً »[١] فكان صحيحاً ما توقعه سحنون حيث مات ابنه سنة ٢٥٦ هـ أي بعد وفاة أبيه بستة عشر عاماً وهو بالغ من العمر ٥٤ عاماً .

وكان سحنون يقول لأصدقائه عن ابنه محمد : « ما أشبهه بأشهب »[٢] . ويقصد بهذه العبارة الفقيه المصري المالكي أشهب بن عبد العزيز الذي أخذ عنه سحنون فقه مالك في مصر والذي تأثر به سحنون في حياته ، فسار على نمطه ومنهجه في الحياة الفكرية والفقهية كما ذكرنا في الفصل السابق . وكان الناس في القيروان يحضرون حلقاته الفقهية والعلمية في المسجد بعد وفاة أبيه سحنون .

والنصيحة التي أخذها من أبيه والتي عمل طوال حياته بها تقول : « يا محمد احذر أهل العراق فإن لهم ألسنة حداداً ، وإياك أن يغلط قلمك فتعتذر فلا يقبل عذرك »[٣] . وكان محمد بن سحنون وجيهاً[٤] في العامة ، مقدماً عند الملوك ، حسن العناية بها ، راضياً بالأثقال ، واسع الحيلة ، جيد النظر عند الحوادث والملمات ، وهو إمام الناس بعد أبيه في القيروان وقال فيه المالكي : « لم يكن في عصره أحد أجمع لفنون العلم منه »[٥] أما عيسى بن مسكين فقال في ابن أستاذه : « خير من رأيت محمد بن سحنون ، وكان جامعاً لخصال من الخير منها العلم والورع ومعرفة الأثر ، وكثرة الإيثار للتفقد للإخوان »[٦] . وأضاف عيسى بن مسكين قوله : « ما رأيت في العلم مثل سحنون ، وما رأيت بعد سحنون مثل ابنه »[٧] .

ألف محمد بن سحنون في شتى فنون العلم كتباً تصل إلى المائتين[٨] لم نعثر

---

(١) الشيرازي : المصدر السابق ذكره ص ١٣٣ .
(٢) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٢٤ .
(٣) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٠٤ .
(٤) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ١٧٨ .
(٥) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٣٤٥ .
(٦) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٢٣ .
(٧) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ١٣١ .
(٨) حسن حسني عبد الوهاب : الإمام المازري ص ٢٧ .

منها إلا على كتاب واحد وهو آداب المعلمين[1] ، ونذكر من كتبه كتاب المسند في الحديث وكتابه الكبير المعروف بالجامع فيه فنون العلم والفقه ، وكتابه في آداب المعلمين والذي قام بتحقيقه الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب وهو أشهر كتبه .

ومن كتبه التي تذكرها المصادر كتاب تفسير الموطأ وهو أربعة أجزاء ، وكتاب الرد على أهل البدع ، وكتاب الرد على الشافعي ، وكتاب الرد على أهل العراق وهو كتاب الجوابات ، وكتاب طبقات العلماء سبعة أجزاء ، وكتاب الأشربة ، وكتاب الإباحة ، وكتاب الورع ، وكتاب الإيمان والرد على أهل الشرك ، وكتاب غريب الحديث ، وكتاب التاريخ ستة أجزاء وغيرها مما لم نجده إلى الآن . وحقاً يعتبر محمد بن سحنون أول عربي[2] كتب في التربية في العصر الإسلامي .

وحول كثرة مؤلفات محمد بن سحنون قال الخشني فيه : « كان كثير الوضع للكتب ، غزير التأليف »[3] . ويحكى أن الفقيه محمد بن عبد الله بن عبد الحكم فقيه مصر المالكي تصفح كتاب محمد بن سحنون وكتاب محمد بن عبدوس ، فقال عن كتاب ابن عبدوس : « هذا الكتاب رجل أتى بعلم مالك على وجهه »[4] . أما عن كتاب ابن سحنون فقال : « هذا كتاب رجل يسبح في العلم سبحاً »[5] . وأضاف ابن فرحون عن ابن سحنون : « وكان كريماً في نفسه ، سمحاً بما في يده ، جواداً بماله وجاهه ، كان يصل من قصده بالعشرات من الدنانير ، وكان يكتب لمن يعني به إلى الكور ، فيعطي الأموال الجسيمة ، وهذا عنه مستفيض[6] عند أهل القيروان » .

---

(١) أحمد فؤاد الأهواني : التربية الإسلامية ص ٩٥ .
(٢) إبراهيم العبيدي التوزري : تاريخ التربية في تونس جـ ١ ص ١٧٤ .
(٣) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ١٧٨ .
(٤) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ١٧٨ .
(٥) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٠٥ .
(٦) ابن فرحون : المصدر السابق ذكره ص ٢٣٧ .

أرسل محمد بن سحنون كتابه الإمامة المكتوب بماء الذهب[١] إلى الخليفة العباسي فأثنى عليه بالدنانير ، وهذا مبالغ فيه لأن سحنون وابنه يعتمدان على أنفسهما في زراعة الأرض وبيع الزيتون ولا يأخذان أجراً على العلم والفقه .

ومما لا شك فيه أن بعض كتاب السير قد بالغوا في تقدير محمد بن سحنون وخاصة عندما قالوا عنه : « إمام عصره في مذهب أهل المدينة بالمغرب ، جامعاً لخلال قلما اجتمعت في غيره من الفقه البارع والعلم بالأثر والجدل والحديث والذب عن مذهب أهل الحجاز »[٢] لأن عصر محمد بن سحنون كان مليئاً بعدد كبير من الفقهاء لا يقلون عنه شيئاً بل يتفوقون عليه ، أمثال محمد بن عبدوس ويحيى بن عمر وأخيه محمد بن عمر وجبلة بن حمود وغيرهم ممن برعوا ونبغوا في الفقه المالكي .

وقد وصلت إلينا أقوال كثيرة لعدد من كبار فقهاء القيروان آنذاك أثنوا على محمد بن سحنون بعد مماته ، منهم قول حمديس القطان القاضي : « رأيت العلماء بمكة والمدينة ومصر ، فما رأيت منهم مثل سحنون ولا مثل ابنه بعده وخرج له عدة أصحاب ، وما خلف بعده مثله »[٣] .

ومن فضائل محمد بن سحنون أنه نجح في إدخال يهودي[٤] في الدين الإسلامي ، وتحكى في ذلك قصة طريفة لا نجد بأساً من ذكرها هنا ، وهي أنه كان هناك رجل من أصحاب محمد بن سحنون وأثناء رحيله لأداء فريضة الحج اجتمع مع رجل يهودي بمصر وناظره في أصول الدين فوجده قوياً ، ثم وصل هذا الرجل إلى القيروان ، وكان صاحب محمد بن سحنون قد أبلغه بما حدث بينه وبين الرجل اليهودي . ولما وصل محمد بن سحنون مصر أثناء أداء فريضة الحج التقى بالرجل اليهودي ، ونشبت بينهما مناظرة حتى حضرت صلاة

---

(١) مجهول : المصدر السابق ذكره جـ ٤ ص ٤١ .

(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٠٥ .

(٣) الذهبي : العبر في خبر من غبر جـ ٢ ص ٣١ .

(٤) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١١٣ .

الظهر ، فأقام محمد بن سحنون الصلاة وصلى وعاد إلى المناظرة حتى حضرت صلاة العصر ، فأقام الصلاة وصلى العصر ثم عاد إلى المناظرة فلم يزل إلى صلاة المغرب ، وقد اجتمع الناس إليهما من كل موضع وذاع هذا الخبر بمصر . وقال الناس بعضهم لبعض : امضوا نسمع المناظرة بين الفقيه المغربي واليهودي ، فلما كان عند صلاة المغرب انحصر اليهودي وانقطع عن الحجة ، وظهر عليه محمد ابن سحنون بالدلائل الواضحة والحجة البالغة ، فلما تبين لليهودي الحق والبرهان وأراد الله عز وجل هدايته ، قال عندئذ « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » وحقاً كان محمد بن سحنون من أقوى الناس حجة .

ثم حدثت المحنة بين قاضي إفريقية هو في ذلك الوقت سليمان بن عمران[١] وبين محمد بن سحنون ، ومن المعروف أن سليمان بن عمران كان كاتباً لسحنون عندما أسند إليه قضاء إفريقية عام ٢٣٤ هـ ثم منحه سحنون قضاء مدينة باجة[٢] المغربية ، ولما مات سحنون تقلد سليمان بن عمران منصب قاضي إفريقية وكان يضمر في نفسه الكراهية والحقد نحو محمد بن سحنون ، ربما خوفاً من شدة التنافس بينهما وما تردد من أن محمد بن سحنون سوف يتقلد منصب قاضي إفريقية ، وكاد يغدر الأمير الأغلبي على محمد بن سحنون لولا أن المنية أسرعت إلى ابن سحنون في عام ٢٥٦ هـ — ٨٦٩ م[٣] ، وصلى عليه الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب ودفن بباب نافع بالقرب من مدفن أبيه . وقد حزنت كل بلاد إفريقية على هذا الفقيه فذكر أن الناس أقاموا على قبره عدة أشهر حزناً عليه وأسفاً على فراقه[٤] .

وقال أبو محمد بن أبي زيد المشهور رضى الله عنه: لما مات محمد بن سحنون رحمة الله عليهما أقامت البيوع والأشربة والقباب مضروبة على قبره

(١) مجهول : المصدر السابق ذكره جـ ٤ ص ٨١ .
(٢) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ٢٣٦ .
(٣) أحمد عطية الله : القاموس الإسلامي جـ ٣ ص ٢٧٥ .
(٤) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٥٦ .

أربعة أشهر بالليل والنهار ، ولم يصرفهم عن ذلك إلا هجوم الشتاء عليهم . وقيل: لم تتفرق الناس عنه حتى خاف من ذلك إبراهيم بن أحمد الأغلب ، فاستنجد بابن لبدة وهو ابن عم سحنون عن طريق الرضاعة ليفرق الناس .

ومنهم أيضاً يحيى بن عون بن يوسف ويكنى بأبي زكريا ، تفقه على يد سحنون وأبي زكريا الحفري ، وكان أبوه يبيع[1] الكتان في حانوته ، وكان رجلاً صالحاً ثقة مأموناً وهو أسن من سحنون بعشر سنين . وكان يحيى بن عون مصاباً في إحدى عينيه[2] ، وكان رجلاً صالحاً من أهل العلم والفقه ، وإذا كان يوم شك جعل البراد بالماء بجواره في المسجد[3] ، له كتاب في الرد على أهل البدع ، ولد سنة ٢٠٦ هـ ومات سنة ٢٩٨ هـ .

ومنهم عبد الجبار بن خالد بن عمران السرتي ، يكنى بأبي حفص من أصحاب[4] سحنون ومن المعروفين بالعبادة ، وكان فقيهاً[5] فاضلاً ثقة ، طويل الصلاة ، وكثير الدعاء ، مجتهداً ، ومن عقلاء[6] شيوخ إفريقية ، ويقول سحنون عنه : « عبد الجبار تقي في بطن أمه »[7] ربما المراد بهذه العبارة أن أباه وأمه من المتقين والصالحين فأخذ عنهما هذه الصفات .

ومن الآراء التي أخذت عن عبد الجبار أنه قال : « من ترك رأيه واتبع السنن والآثار ، رجى له أن يلحق غدا بالأبرار ، ومن تبع رأيه وترك السنن والآثار خفت غداً أن يكون مأواه النار » . وأيضاً : « الصوم عن الكلام أفضل من الصوم عن الطعام » . « من زم لسانه كثر في الدنيا والآخرة أمانه »[8] .

---

(١) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ١٠٥ .
(٢) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٢٤٦ .
(٣) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٧٥ .
(٤) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٦٠ .
(٥) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ١٩٧ .
(٦) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ١٤٦ .
(٧) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٩٢ .
(٨) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٦١ .

ومن الشائع في إفريقية أن حمديس وعبد الجبار يضرب بهما المثل[1] في الفضل والدين ، إلا أن عبد الجبار أنبه من حمديس رحمهما الله ورضي عنهما . وكان عبد الجبار منابذاً لابن طالب القاضي ومعادياً بعد مصادقة متقدمة ، وكان سحنون إذا نظر في العلم لا يقرىء الناس حتى يحضر عبد الجبار[2] .

مات عبد الجبار بن خالد عام ٢٨١ هـ وهو بالغ من العمر ٨٧ عاماً ودفن بباب سلم ، صلى عليه حمديس القطان .

ومنهم أحمد بن علي بن حمد التميمي وكنيته أبو الفضل ، وهو من أهل الفضل والدين والفقه . وكان ورعاً متواضعاً ضابطاً[3] لكتبه ، عارفاً بما فيها .

سمع أحمد بن علي من سحنون بن سعيد وأسد بن الفرات وكان الغالب عليه سحنون ، وكان كثير الكتب واسع الرواية[4] تاركاً للشبهات ، توفي سنة ٢٥١ هـ وقيل سنة ٢٦١ هـ والرأي الأول هو الصواب .

ومنهم أحمد بن سليمان بن أبي الربيع من أهل البيرة ، هو أحد الفقهاء[5] السبعة الذين كانوا بها في وقت واحد ، من رواة سحنون بن سعيد ، روى عن يحيى بن يحيى الليثي[6] وسعيد بن أبي حسان والحارس بن مسكين ، وكان فقيهاً حافظاً ، مات سنة ٢٨٧ هـ[7] .

ومنهم سعيد بن النمر بن سليمان بن الحسين الغافقي[8] ، وقيل سعيد بن النمر بن سليمان بن الحسن الغافقي[9] ، من أهل البيرة يكنى بأبي عثمان ، سمع

---

(١) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ١٩٧ .
(٢) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٨٦ .
(٣) ابن فرحون : المصدر السابق ذكره ص ٣٢ .
(٤) ابن فرحون : المصدر السابق ذكره ص ٣٢ .
(٥) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٦ .
(٦) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٥٧ .
(٧) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٦ .
(٨) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٥٦ .
(٩) الحميدي : جذوة المقتبس ص ٢٣٤ .

في الأندلس من يحيى بن يحيى الليثي وسعيد بن أبي حسان وعبد الملك بن حبيب وعبد الملك بن وزنان[1] ، ثم رحل إلى إفريقية فسمع من سحنون ومن ابن عبد الحكم والحارث بن مسكين بمصر . وكان سعيد بن النمر[2] ذا فقه وورعاً ، وله مسائل جمعت عنه[3] ، مات سنة ٢٦٩ هـ[4] وقيل سنة ٢٧٣ هـ بالأندلس .

ومنهم أيضاً عمر بن موسى الكناني وكنيته أبو قيس وقيل أبو حفص[5] وهو من أهل البيرة سمع في الأندلس من يحيى بن يحيى الليثي وعبد الملك بن زونان ، وسعيد بن أبي حسان[6] ، وفي إفريقية من سحنون ، وفي مصر من الحارث بن مسكين وابن أبي إسحاق البوقي وهو أحد السبعة[7] الذين كانوا في وقت واحد بالبيرة من رواة سحنون . وكان الفقيه يحيى بن عمر يثني[8] عليه ويصفه بالعلم والجلالة . مات سنة ٢٥٧ هـ وقيل سنة ٢٥٤ هـ[9] .

ومنهم أيضاً عيسى بن الأشج من أهل أستجة وكان معروفاً بالعلم[10] والفقه من سحنون وغيره .

ومنهم كذلك محمد بن عبد الواحد من أهل طليطلة وكنيته أبو محمد ، رحل إلى المشرق فسمع من سحنون وكان صاحب فقه[11] ، مات سنة ٢٦٤ هـ .

---

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٩٢ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٥٦ .
(٣) الحميدي : المصدر السابق ذكره ص ٢٣٤ .
(٤) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٩٢ .
(٥) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٥٥ .
(٦) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٦٤ .
(٧) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٦٤ .
(٨) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٥٦ .
(٩) الحميدي : المصدر السابق ذكره ص ٣٠٣ .
(١٠) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٧٤ .
(١١) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٦٢-١٦٣ .

أيضاً من تلاميذ سحنون من أهل طليطلة حزم بن غالب الرعيني وأحمد ابن الوليد وعمر بن زيد بن عبد الرحمن :

فحزم بن غالب الرعيني طليطلي الأصل ، سمع من عيسى بن دينار الغافقي ويحيى بن يحيى الليثي ثم رحل إلى المشرق[١] فتفقه على يد سحنون ونظرائه ، وكان مفتي بلده[٢] وصاحب الصلاة والخطبة وأحكام القضاء ، وهو صاحب رواية وفتيا .

أما أحمد بن الوليد بن عبد الخالق بن عبد الجبار وهو من سلالة القائد المشهور قتيبة بن مسلم الباهلي[٣] ، صاحب الفتوحات الإسلامية في بلاد ما وراء النهر ، وهو طليطلي الأصل سمع من يحيى بن يحيى الليثي وعيسى بن دينار ، ثم قام برحلة إلى المشرق[٤] فتفقه على يد سحنون ، ثم عاد إلى بلده طليطلة فتقلد منصب قضاء طليطلة وجيان ، وبيته بيت جلالة ، فهو قاض بن قاض بن قاض[٥] .

كذلك عمر بن زيد بن عبد الرحمن طليطلي الأصل وكنيته أبو حفص سمع في المشرق من أصبغ بن الفرج[٦] وسحنون ، وهو صاحب رواية وفقه وهو مفتي موضعه[٧] . ومن تلاميذ سحنون المشهورين في مدينة سرقسطة نأخذ منهم يحيى بن عبد الرحمن المعروف بالأبيض[٨] وكنيته أبو زكريا ، وقال عنه ابن الفرضي[٩] : سمي بذلك لأنه كان أبيض الرأس واللحية والحاجبين

---

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٣٧ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٦٢ .
(٣) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٣٧ .
(٤) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٦٢ .
(٥) الحميدي : المصدر السابق ذكره ص ١٤٨ .
(٦) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٦٤ .
(٧) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٦٣ .
(٨) الحميدي : المصدر السابق ذكره ص ٣٧٧ .
(٩) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ١٧٩ .

وأشعار العينين ، وقيل إن أمه أخت[1] أبيه من الرضاعة وهذا غير معقول .

كانت له رحلة إلى المشرق ، فلقي سحنون وكان متصرفاً في ضروب العلم ، متقدماً في النحو واللغة وألف فيه كتاباً ، وكان حافظاً ثقة ، أخذ عنه الناس ، مات سنة ٢٦٣ هـ[2] .

ومن أجل وأفضل وأشهر تلاميذ سحنون الفقيه يحيى بن عمر بن يوسف الأندلسي بن عامر الكناني ، قيل هو مولى بني أمية[3] ، أندلسي الأصل وبالتحديد من أهل جيان[4] وعداده في الإفريقيين ، سكن القيروان ، واستوطن في آخر الأمر سوسة[5] وبها قبره ، وكنيته أبو زكريا ، رحل إلى المشرق فسمع بمصر[6] من ابن بكير وابن رمح والحارث بن مسكين والدمياطي وغيرهم ، وفي الحجاز من أبي مصعب الزهري ونصر بن مرزوق وزهير بن عباد وغيرهم ، أما في إفريقية فتفقه من أبي زكريا الحفري وسحنون[7] .

كان يحيى بن عمر فقيهاً حافظاً الرأي ، ثقة ضابطاً[8] لكتبه ، وكان متقدماً في الحفظ ، كان الناس يرحلون عنده ليسمعوا الموطأ والمدونة . وكان يجلس في جامع القيروان ويجلس القارىء على كرسي يسمع من بعد[9] من الناس لكثرة من يحضر إلى مجلسه . وقد قال عنه أبو العرب[10] : « كان إماماً في الفقه ، ثبتاً ، ثقة ، فقيه البدن ، كثير الكتب في الفقه والآثار ، ضابطاً لما

---

(١) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ١٦٤ .
(٢) الحميدي : المصدر السابق ذكره ص ٣٧٧ .
(٣) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٣٤ .
(٤) ابن فرحون : المصدر السابق ذكره ص ٣٥١ .
(٥) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٢٣٣ .
(٦) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٨١ .
(٧) الحميدي : المصدر السابق ذكره ص ٣٧٧ .
(٨) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ١٨١ .
(٩) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٣٥ .
(١٠) أبو العرب : المصدر السابق ذكره ص ١٣٥ .

روى ، عالماً بكتبه ، متقناً شديد التصحيح لها ، من أئمة أهل العلم وعداده في كبراء أصحاب سحنون ، وبه تفقه » .

وقال المالكي : « كان يحيى بن عمر من أهل الصيام والقيام وكان مجاب الدعوة ، وكانت له براهين وكان مقدماً في الحفظ »[١] . وقال أبو العباس الألباني : « ما رأيت مثل يحيى بن عمر في علمه وورعه وزهده ، وكثرة دعائه وبكائه . وكان حريصاً على أهل العلم ، يحرض طالبه ويشربه »[٢] . وقال ابن أبي دليم[٣] : كانت له منزلة شريفة عند الخاصة والعامة والسلطان ، وكان حافظاً وله أوضاع كثيرة منها كتاب الرد على الشافعي وكتاب اختصار المستخرجة[٤] المسمى بالمنتخبة ، ومن كتبه في أصول السنن كثيرة مثل كتاب الميزان[٥] وكتاب الرؤية ، وكتاب الرد على الشكوكية ، وكتاب الرد على المرجئية ، وكتاب أحكام السوق الذي قام بتحقيقه كل من الدكتور محمود علي مكي[٦] وحسن حسني عبد الوهاب[٧] .

ومن فضائل وأخبار يحيى بن عمر ، أنه كان فقيهاً ثقة صحيح الكتب مع صلاح بين ، وورعاً ، وكان من الحفظ بمكان ، حسن الاستنباط[٨] ، عالماً باختلاف الناس ، وما أشكل من النوازل ، شديداً في الحق ، صلباً في السنة . وقيل إنه قال : رأيت في منامي كأن سحنون معلم صبيان بيده درة ، فأعطانيها وقال لي : قم على الصبيان ، فأولتها خلافته في تعليم الناس[٩] . وقال

---

(١) المالكي : المصدر السابق ذكره جـ ١ ص ٣٩٦ .

(٢) الخشني : المصدر السابق ذكره ص ١٧٤ .

(٣) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٢٣٦ .

(٤) ابن فرحون : المصدر السابق ذكره ص ٣٥٢ .

(٥) محمود علي مكي : صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية .

(٦) يحيى بن عمر : النظر والأحكام في جميع أحوال السوق . تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ـــ تونس ١٩٧٥ .

(٧) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٢٣٥ .

(٨) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٣٧ .

(٩) القاضي عياض : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٣٧ .

الحسن بن نصر[١] : ما رأيت أهيب منه ، قيل له : فابن طالب ؟ قال : كانت له هيبة القضاء . وأضاف الكانشي[٢] كلامه عنه : ما رأيت مثل يحيى بن عمر ، وما رأيت أحفظ منه ، كأنما كانت الدواوين في صدره ، وأنفق يحيى في طلب العلم ستة آلاف دينـار .

مات يحيى بن عمر سنة ٢٨٩ هـ عن ٧٢ عاماً ، وكان مولده سنة ٢١٣ هـ ، وكان يحيى بن عمر قد تعرض لمحنة من جانب القاضي ابن عبدون[٣] فهرب إلى العراق ولكن سرعان ما عفى عنه ابن عبدون ، وعاد يحيى بن عمر إلى القيروان .

وفق سحنون بن سعيد إلى تخرج عدد كبير اشتهروا بإتقان رواية الحديث وهذا نتيجة ما تلقوه من سحنون ، نذكر من هؤلاء التلاميذ فضل بن سلمة .

وأصله من البيرة[٤] ، سمع بجانة المغربية وهو من أصحاب سحنون ، وكان فضل بن سلمة أوقف الناس على الروايات[٥] وأعرفهم باختلاف أصحاب مالك ، فكان حافظاً للفقه على مذهب مالك ، بعيد الصوت فيه[٦] ، وكان يرحل إليه للسماع منه والتفقه عنده ، وكان بصيراً بالمذاهب حافظاً لها وله عدة كتب ومصنفات منها مختصر للمدونة ومختصر الواضحة[٧] ، وكتاب تنبيهات في الفقه ، مات سنة ٣١٧ هـ[٨] وقيل سنة ٣١٩ هـ .

ثم نختم هذا الفصل بالتحدث عن خديجة بنت الإمام سحنون وأسماء بنت أسد بن الفرات فقيهتي القيروان .

---

(١) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٢٣٤ .
(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٣ ص ٢٣٧ .
(٣) ابن فرحون : المصدر السابق ذكره ص ٣٥٣ .
(٤) ابن فرحون : المصدر السابق ذكره ص ٢١٩ .
(٥) ابن الفرضي : المصدر السابق ذكره ص ٣٩٤ .
(٦) الحميدي : المصدر السابق ذكره ص ٣٢٧ .
(٧) ابن فرحون : المصدر السابق ذكره ص ٢٢٠ .
(٨) الحميدي : المصدر السابق ذكره ص ٣٢٧ .

كانت خديجة بنت سحنون أصغر أبنائه ، وكانت عاقلة[١] عالمة ذات صيانة ودين ، وكان أبوها يحبها حباً شديداً وكان يستشيرها في شتى أموره ، حتى إنه لما عرض عليه القضاء لم يقبلها إلا أن أخذ رأيها[٢] . وهذا مبالغ فيه لأن سحنون أجبر على تقلد هذا المنصب . كذلك أخوها محمد كان يأخذ برأيها في معظم أموره ، وقد كانت نساء زمانها يستفتينها في مسائل الدين ويقتدين بها من معضلات الأمور ، لما منحها الخالق جل ثناؤه من كمال العقل والمدارك العالية .

قال أبو داود العطار[٣] : أرسلني أبو جعفر أحمد بن لبدة ابن أخي سحنون لأخطب له خديجة من أبيها ، وكانت من أحسن النساء وأعقلهن ، فذكرت ذلك لسحنون فقال لي : هممت بذلك ، وسكت ، ثم أتاه ابنه محمد فاستشاره ولم يجب الخطبة ، مات سحنون فأرسلني ابن لبدة إلى محمد فذكرت ذلك له ، فقال : كيف أتجاسر على ما لم يصنعه أبي ؟ فسكت عنه حتى مات محمد ، فأرسلني إليها ، فقالت لي : ما لم يفعل أبي وأخي أنا أصنعه ؟ لن أفعل أبـداً .

ماتت خديجة وهي بكر[٤] في حدود سنة ٢٧٠ هـ ، ودفنت حذو أبيها وأخيها بمقبرتهم المشهورة بهم خارج مدينة القيروان .

أما أسماء بنت أسد بن الفرات عالم إفريقية وقاضيها وصاحب الإمامين أبي حنيفة النعمان ومالك بن أنس .

نشأت أسماء بين يدي أبيها ولم يكن له سواها ، فأحسن تهذيبها وثقف ذهنها علماً وحكمة ، وكانت تحضر في مجالسه[٥] العلمية في داره وتشارك في

---

(١) القاضي عياض : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٥٧٧ .
(٢) حسن حسني عبد الوهاب : شهيرات التونسيات ص ٢٣ .
(٣) الدباغ : المصدر السابق ذكره جـ ٢ ص ٨٤ .
(٤) حسن حسني عبد الوهاب : المصدر السابق ذكره ص ٢٣ .
(٥) حسن حسني عبد الوهاب : المصدر السابق ذكره ص ٢٢ .

السؤال والمناظرة حتى اشتهرت بالفضيلة ورواية الحديث والفقه على رأي أهل العراق أصحاب أبي حنيفة . وبعد وفاة أسد بن الفرات تزوجت أسماء بأحد تلاميذ أبيها وهو محمد بن أبي الجواد الذي خلف أستاذه في خطة[1] القضاء وتولى رياسة المشيخة الحنفية ، ماتت سنة ٢٥٠ هـ[2] .

* * *

(١) حسن حسني عبد الوهاب : الإمام المازري ص ٢٠ .
(٢) حسن حسني عبد الوهاب : المصدر السابق ذكره ص ٢٣ .

الفصل الثالث
سحنــون في التــاريخ

سحنـــون في التـــاريخ

كان سحنون علماً من أعلام النهضة الفقهية التي قامت في بلاد إفريقية خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وكان سحنون من أعلام هذه النهضة ، وقد خدمته الظروف السياسية والاقتصادية التي مرت بها إفريقية ، حيث قامت دولة محلية مستقلة وفرت الأمن والاستقرار النسبي لإفريقية وأهلها وهى دولة الأغالبة ، فكان سحنون رمزاً للحضارة الإفريقية الأغالبية . فهو الذي ثبت ورسخ المذهب المالكي في إفريقية ، مع العلم بأن بلاد إفريقية كانت تعرف هذا المذهب عن طريق الطبقات الأولى من علماء إفريقية الذين ذهبوا إلى المدينة لتلقي أصول هذا المذهب من صاحبه إمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس . فسحنون عمل أكثر من غيره على نشر هذا المذهب وتعميق جذوره في بلاد إفريقية والمغرب ، وامتد صيته إلى بلاد مصر والشام والعراق ، وكثر تلاميذه في هذه البلاد كلها .

وكانت الدولة العباسية تعطي كل اهتمام لبلاد إفريقية خاصة وبلاد المغرب بصفة عامة ، لأنها هى الجزء المتبقي من أملاكها بعد أن سلخ عنها المغربان الأوسط والأقصى .

أعطى سحنون لبلاد إفريقية شخصية مميزة عن بقية البلدان الإسلامية ، حيث اشتهرت إفريقية بمجالس سحنون التي زخرت بطلاب العلم ، وكان أي طالب علم يزور إفريقية . كان الطالب الوافد يبدأ بالسؤال عن سحنون ، وعندما يحضر مجالسه كان يشعر بعظمة إفريقية وارتفاع المستوى العلمي والفقهي فيها .

ساهم سحنون بنصيب مشكور في إعادة الاستقرار والهدوء لإفريقية نتيجة لتصديه للخوارج والمذاهب الأخرى بلسانه وعلمه . وكان لسحنون

الفضل في إدخال نظم قضائية جديدة في إفريقية منها وظيفة المحتسب[1] التي لم تعرفها بلاد المغرب إلا على يد سحنون ، إلى جانب تعيين نواب عنه في البوادي وبقية أجزاء إفريقية . والظاهرة اللافتة للنظر في حياة سحنون هى حرصه على الخروج إلى الأسواق لتقصي أحوال الناس ومتاعبهم ومصاعبهم ، والعمل على علاجها إذا تيسر له الأمر . وكان سحنون رجلاً إيجابياً . أي أنه لم يكتف بالقعود والتفرج على الأحداث ، بل كان يعمل على قدر ما تيسر على معاونة الفقراء وأصحاب الحاجات ، ويجتهد في حل مشاكلهم . فهو يتصدى بكل ما لديه من قوة ضد أي جبروت أو سلطة ، حتى لو كان الأمير الأغلبي نفسه ، ويتلطف في الوساطة حتى يحصل للفقير على حقه أو يرفع عنه الظلم دون أن يشعر الأمير بأنه يمس سلطانه .

كان الأمراء الأغالبة يرسلون إلى سحنون في طلب المشاورة والنصح ونادراً ما كان يحدث هذا ، إلى جانب أن سحنون يرفض أي عطايا من هؤلاء الأمراء لأنه كان عزيز النفس ، مؤمناً بكرامته ، رجلاً جعل العلم كل همه ، شأنه في ذلك شأن الإمام مالك وكبار الفقهاء على المذهب المالكي . ثم إنه كان ميسور الحال حيث كان يمتلك ضيعة تجلب إليه ما تدر عليه ما يمكنه من العيش في سعة .

كان سحنون همزة الوصل بين المدرستين المصرية والإفريقية المالكيتين ، حيث أخذ العلم ودرس على يد فقهاء مصر الكبار من أمثال عبد الرحمن بن القاسم وأشهب وأصبغ وابن عبد الحكم وغيرهم ، كما نلاحظ الارتباط الوثيق بين المدرستين المالكيتين . وبالرغم من ذلك فإننا نأخذ على سحنون ما ردده

---

(١) كان الخلفاء العباسيون والأمويون يختارون أصحاب الحسبة من طبقة الفقهاء ، وهى الطبقة التي تضم نخبة كبيرة من العلماء المتخصصين في علوم القرآن والحديث والفقه ، وكان الخليفة لا يتدخل في أعمالهم أو قراراتهم أو أحكامهم ، بل سمح لهم بالعمل في أكثر من وظيفة . فعلى سبيل المثال كان يتقلد منصب المحتسب والصدقة والمظالم والقصاص في آن واحد ، مثل القاضي عبد الرحمن ابن حجيرة قاضي مصر ، فكان مجموع ما يتحصل عليه من المال ألف دينار شهرياً .

بعض المؤرخين وكتاب سيرته على لسانه حول إنكاره لفضل الفقهاء المالكية المصريين عليه ، والتقليل من شأنهم وتفضيل بعض المغاربة عليهم بدافع العصبية المحلية ، ولكن هناك شكاً كبيراً في هذه الأقاويل .

ويكفي لبيان فضل سحنون ومكانته في تاريخ الفكر الإسلامي أنه ألف واحدة من أكبر وأهم مدونات لفقه مالك وهو الكتاب المعروف بالمدونة الكبرى ، الذي فاق في عصره – ولزمن طويل بعده – كل مدونات الفقه المالكي . فهو يلي كتاب الموطأ الذي وضعه الإمام مالك ابن أنس في الأهمية وهو أكثر أصول الفقه المالكي فهماً وشمولاً ، ويرجع أصله إلى الأسدية التي وضعها أسد بن الفرات الذي يمثل في نظر أهل إفريقية صاحب المذهبين الحنفي والمالكي ، عكس سحنون الذي أعاد كتابة هذا التأليف مع شيخ مشايخ المالكية في عصره وهو عبد الرحمن بن القاسم ، مقتصراً فيه على الفقه المالكي ، مما دفع أهل إفريقية إلى الاقتصار على دراستها وإهمالهم الأسدية . وقد أغضب هذا أسد بن الفرات ، ولكننا إذا رجعنا إلى فقرات الأسدية التي بقيت لنا في أصولنا نجد أن مدونة سحنون تفوقها من كل ناحية في الترتيب والتنظيم والتبويب ، إلى جانب الأسلوب المشوق والفهم العميق للمذهب المالكي . ولا غرابة والحالة هذه أن مدونة سحنون تعتبر عند أهل الفقه ديوان الفقه المالكي وأسفار أصوله .

ولا أختم هذا البحث دون الإشارة إلى ما سبق أن ذكرته في هذا البحث من أن سحنون أضاف إلى أفضاله على تاريخ العلم في إفريقية فضلين آخرين سوى ما ذكرته ، وذلك حين أنجب ابنه محمد بن سحنون وابنته خديجة .

فأما ابنه محمد فكان من أقطاب العلم في تاريخ الفقه في إفريقية والمغرب ، درس على أبيه فأحسن الدرس ، وأخذ عنه العلم وقبس منه الخلق والمنهج والطريق ، فأصبح في شبابه وفي حياة أبيه شيخاً جليلاً يأخذ الناس عنه العلم ويتمتع بثقة كبار الشيوخ ، وأقبل عليه صغار الدارسين . هذا إلى خلق متين ومظهر ووقار جليل ، فزاد على أبيه أهمية بالتأليف الذي أحسن فيه وأجاد ، ولم

يخلف لنا في الفقه شيئاً ينفرد به عن أبيه غير أن كتابه « آداب المعلمين » يعتبر من أحسن ما كتب المسلمون في التربية والتعليم ، وهو السبق الذي جازه أبو الحسن القابسي في كتابه « أحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين » .

وأما ابنته خديجة فقد كانت تلقى دروسها على طالبات الفقه ، وكانت المنافسة لها في ذلك معاصرتها أسماء بنت أسد بن الفرات التي كانت تقوم بالدرس والتدريس . وهذه والسيدة خديجة بنت سحنون التي عاشت حياتها في معاناة لأن أباها سحنون رفض أن يزوجها لأحمد بن لبدة المشتغل بالعلم لأنه كان يشك في صفاء نفسه ، ولما توفى سحنون طلبها — أحمد بن لبدة — من أخيها محمد فاعتذر بعدم استطاعته تزويجها إياه ، وبعد وفاة محمد بن سحنون عاد ابن لبدة يطلبها فأبت ذلك إحياء منها لذكرى أبيها وأخيها .

* * *

الكشـــاف العـــام

١ - الأعـــــــلام

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ن)

(هـ)

٢ – الأماكن الجغرافية

٣ – أسماء القبائل والبطون والفرق

٤ – الآيات القرآنية والأشعار

٥ – أسماء الكتب الواردة فى النص

الأصول والمراجع

(١) المخطوطات

١ – البرادي (ت٦٩٧) أبو القاسم بن إبراهيم البرادي :
رسالة في ذكر كتب الأباضية
دار الكتب المصرية ب ٢١٧٩١ .

٢ – ابن حبيب الدمشقي (ت٧٧٩) بدر الدين أبو محمد الحسن بن عمر الحلبي :
جهينة الأخبار في ملوك الأمصار
دار الكتب المصرية تاريخ ١١٥٤ .

٣ – السيوطي (ت٩١١) جلال الدين السيوطي :
أسماء المدلسين
رسالة بمعهد المخطوطات العربية
تاريخ ١٣٦٤
دار الكتب المصرية تاريخ ٥٢٥ .

٤ – ابن عبد البر (ت٤٦٣هـ) أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر :
الانتقاء في فضائل الفقهاء الأئمة الثلاثة
دار الكتب المصرية .

٥ – القضاعي (ت٤٥٤) أبو عبد الله محمد بن سلامة :
عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف
دار الكتب المصرية – تاريخ ١٧٧٩ .

٦ – ابن وردان تاريخ مملكة الأغالبة
دار الكتب المصرية – تاريخ تيمور ٢١٩٩ .

* * *

(٢) المصادر المطبوعة

١ - ابن الأبار (ت٦٥٨هـ) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي :
الحلة السيراء
جـزآن .
تحقيق الدكتور حسين مؤنس - القاهرة ١٩٦٣م .

٢ - ابن الأثير (ت٦٣٠هـ) محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني :
الكامل في التاريخ
دار صادر - بيروت ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.
اللباب في تهذيب الأنساب
تحقيق د. مصطفى عبد الواحد - القاهرة ١٣٩١هـ-١٩٧١م .

٣ - أحمد بن أبي الضياف إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان :
تونس ١٩٦٣ م .

٤ - الإدريسي (ت٥٥٨هـ) أبو عبد الله محمد بن محمد بن إدريس الحموي :
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق
نابولي - روما ١٩٥١م .

٥ - الأزدي (ت٤٨٨) محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي :
جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس
القاهرة ١٩٦٦ م .

٦ - الأمدي (ت٣٧٠) أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدي :
المؤتلف والمختلف
تصحيح وتعليق الدكتور ف. كرنكو
بيروت - ١٩٨٢م .

٧ الأنباري
عبد الرحمن بن محمد الأنباري :
نزهة الألباء
تحقيق إبراهيم الأبياري
القاهرة — ١٩٨٣ م .

٨ — الباجي المسعودي (ت١٢٥٣هـ)
أبو عبد الله محمد الباجي المسعودي :
الخلاصة النقية في أمراء إفريقية
تحقيق محمد بيرم
تونس — ١٣١٥هـ—١٨٩٧م .

٩ — البكري (ت٤٦٠)
أبو عبيد الله بن عبد العزيز :
المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب
باريس — ١٩١١ م .

١٠ — البلاذري (ت٢٧٩)
أحمد بن يحيى بن جابر :
أنساب الأشراف
الجزء ١٠ تحقيق جريفز فالدسنن—١٨٨٣م .

١١ — التجاني (ت٧١٧هـ)
أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني :
رحلة التجاني
تقديم الدكتور حسن حسني عبد الوهاب
تونس ١٣٧٨هـ — ١٩٥٨ م .

١٢ — الجزري (ت٨٣٣)
شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن الجزري :
غاية النهاية في طبقات القراء
جزآن — نشرة ج . بريستراسر
بيروت — ١٤٠٢هـ—١٩٨٢م .

١٣ — ابن حجر (ت٨٥٣)
شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد :
لسان الميزان
دار المعارف النظامية—الهند—١٣٢٩هـ.
تهذيب التهذيب
دار المعارف النظامية—الهند—١٣٥٢هـ.

١٤ — ابن حزم (ت٤٥٦)
أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي :
جمهرة أنساب العرب
تحقيق عبد السلام محمد هارون
دار المعارف—القاهرة ١٣٨٢هـ—١٩٦٢م.
جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى
تحقيق إحسان عباس
دار المعارف—القاهرة—بدون تاريخ .

١٥ — الحميري (ت القرن التاسع الهجري)
محمد بن عبد الله بن عبد المنعم :
صفة جزيرة الأندلس
تحقيق ليفي بروفنسال القاهرة—١٩٣٧م .

١٦ — ابن حيان (ت٤٦٩هـ)
أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد :
المقتبس من أنباء أهل الأندلس
تحقيق وتقديم الدكتور محمود علي مكي
القاهرة ١٣٩٠هـ—١٩٧١م .

١٧ — ابن خاقان
أبو الفتح بن خاقان محمد بن عبد الله القيسي :
مطمح الأنفس ومسرح التأنس
قسطنطينية — تركيا — ١٣٠٢هـ .

١٨ — الخزرجي (ت٩٢٣هـ)
صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي الأنصاري :
خلاصة تذهيب الكمال في أسماء الرجال
بيروت — ١٣٩٩هـ—١٩٧٩م .

١٩ — الخشني (ت٣٦١هـ)
أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخشني :
قضاء قرطبة وعلماء إفريقية
نشر وتصحيح السيد عزت العطار
القاهرة ١٣٧٣هـ .

٢٠ – ابن الخطيب (ت٧٧٦هـ) لسان الدين محمد بن الخطيب السليماني :
أعمال الأعلام
الجزء الثالث
تحقيق أحمد مختار العبادي
الدار البيضاء – المغرب – ١٩٦٤م.
الإحاطة في أخبار غرناطة
تحقيق محمد عبد الله عنان – الخانجي
القاهرة ١٩٧٧ .

٢١ – ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) عبد الرحمن بن محمد :
العبر من ديوان المبتدأ والخبر
بولاق – القاهرة ١٢٨٤ هـ .
المقـدمة
دار الشعب – القاهرة ١٩٦٨م .

٢٢ – ابن خلكان (ت٦٨١هـ) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر :
وفيات الأعيان
تحقيق محمد بن محيي‌الدين عبدالحميد
القاهرة – ١٩٤٨ م .

٢٣ – خليفة بن خياط (ت٢٤٠) تاريخ خليفة بن خياط :
جـزآن
تحقيق سهيل زكار
العراق – ١٩٦٨ م .

٢٤ – الخوارزمي (ت٦١٦هـ) أبو الفتح ناصر بن عبـد السيـد بن علي المطرزي :
المغرب في ترتيب المعرب
دائرة المعارف النظامية – ١٣٢٨هـ .

٢٥ – ابن خير أبو بكر الأشبيلي محمد بن خير بن عمران :
الفهرسة
جـزآن
مدينة سرقسطة ١٨٩٣م .

٢٦ - الداودي (ت٩٣٢هـ) شمس الدين محمد بن علي بن أحمد :
طبقات المفسرين
جـزآن
تحقيق الدكتور علي محمد عمر .

٢٧ - الدباغ (ت٦٩٦هـ) عبد الرحمن بن محمـد بن عبـد الله الأنصاري :
معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان
تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور
د. محمد ماضور
تونس - ١٩٦٤م .

٢٨ - الدميري (ت٨٠٨هـ) كمال الدين محمد بن موسى الدميري :
حياة الحيوان
تقديم الدكتور حسين فرج زين الدين
القاهرة - ١٩٦٥ م .

٢٩ - ابن أبي دينار (ت١٠٩٢هـ) أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني :
المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس
تحقيق محمد شمام - تونس - ١٩٦٧ م .

٣٠ - الدواداري أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري :
الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية
تحقيق صلاح الدين المنجد
القاهرة ١٣٨٠هـ-١٩٦١م .

٣١ - الذهبي (ت٧٤٨) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز :
دول الإسلام
تحقيق فهيم محمد شلتوت - محمد مصطفى إبراهيم
القاهرة - ١٩٧٤م .
ميزان الاعتدال في نقد الرجال
تحقيق علي محمد البجاوي

القاهرة ١٣٨٢هـ-١٩٦٣م .
العبر في خبر من غبر
تحقيق صلاح الدين المنجد
الكويت — ١٩٦٠ م .
تذكرة الحفاظ
تحقيق السيد مصطفى علي
دائرة المعارف النظامية — الهند بدون تاريخ .

٣٢ — الرقيق القيرواني (ت النصف الأول من القرن الخامس الهجري)
إبراهيم بن القاسم القيرواني :
تاريخ إفريقية والمغرب
تحقيق وتقديم المنجي الكعبي
تونس — ١٩٦٨ م .

٣٣ — الزبيدي (ت ٣٧٩هـ)
محمد بن الحسن الزبيدي :
طبقات اللغويين والنحويين .

٣٤ — السبكي (ت ٧٧١هـ)
عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي :
طبقات الشافعية
تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو
القاهرة — ١٣٨٣ هـ .

٣٥ — ابن السراج (ت ١١٤٩م)
محمد بن محمد الأندلسي :
الحلل السندسية في الأخبار التونسية
تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة
تونس — ١٩٦٧ م .

٣٦ — ابن سعد (ت ٢٣٠)
محمد بن سعد بن منيع البصري :
الطبقات الكبرى
تحقيق إحسان عباس
دار صادر—بيروت—١٣٧٧هـ—١٩٥٨م.

٣٧ — ابن سعيد المغربي (ت ٦٧٣هـ)
علي بن موسى بن عبد الملك :
المغرب في حلي المغرب
جـزآن
تحقيق الدكتور شوقي ضيف
دار المعارف — القاهرة — ١٩٧٨ م .

٣٨ – السفطي
أبو عبد الله محمد بن أبي محمد :
في آداب الحسبة
مطبعة باريز – ١٩٣١ م .

٤٩ – السلاوي (ت١٣١٩هـ)
أحمد بن خالد الناصري :
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى
الدار البيضاء – المغرب ١٩٥٤م .

٤٠ – السيرافي (ت٣٨٥هـ)
أبو محمد يوسف بن الحسن السيرافي :
أخبار النحويين البصريين .

٤١ – السيوطي (ت٩١١هـ)
جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الشافعي :
تاريخ الخلفاء
تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد
القاهرة – ١٩٦٧ .
حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
القاهرة – ١٣٨٧هـ–١٩٦٧م .
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة .
جـزآن
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
القاهرة ١٣٨٤هـ–١٩٦٤م .
تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك
القاهرة – ١٣٢٥ هـ .

٤٢ – الشعراني
عبد الوهاب الشعراني :
الطبقات الكبرى
جـزآن
القاهرة – ١٢٨٦ هـ .

٤٣ – الشماخي (ت٩٢٨هـ)
أحمد بن سعيد بن عبد الواحد :
السير
القاهرة – بدون تاريخ .

٤٤ - الشيرازي (ت٤٧٦هـ) أبو إسحاق الشيرازي إبراهيم بن علي بن يوسف :
طبقات الفقهاء
بغداد ١٣٥٦ هـ .

٤٥ - الصفدي (ت٧٦٤) صلاح الدين بن أيبك الصفدي :
الوافي بالوفيات
إستانبول - تركيا - ١٩٣١ هـ .

٤٦ - الضبي (ت٥٩٩هـ) أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة :
الملتمس في تاريخ رجال الأندلس
القاهرة - ١٩٦٦م .

٤٧ - الطبري (ت٣١٠هـ) محمد بن جرير الطبري :
تاريخ الرسل والملوك
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٨ م .

٤٨ - ابن عبد البر (ت٤٦٣هـ) أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر :
الاستذكار
الجزء الأول
تحقيق علي النجدي ناصف
الأهرام التجارية - القاهرة - ١٣٩١هـ-١٩٧١م
الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء
القدسي - القاهرة - ١٣٥٠ هـ .

٤٩ - ابن عبد الحكم (ت٢١٤هـ) أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم :
سيرة عمر بن عبد العزيز
تحقيق أحمد عبيد
القاهرة - ١٣٧٣هـ-١٩٥٤م .

٥٠ - عبد ربه (ت٣٢٧هـ) أحمد بن محمد :
العقد الفريد
تحقيق أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الأبياري
القاهرة - ١٣٥٩هـ-١٩٤٠م .

٥١ – العبدري
أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري :
رحلة العبدري
تحقيق محمد الفاسي
فاس – المغرب – ١٩٦٨م .

٥٢ – ابن عذاري (ت نهاية القرن السابع الهجري)
محمد بن عذارى المراكشي :
البيان المغرب في أخبار المغرب
بيروت – ١٩٥٠م .

٥٣ – أبو العرب (ت٣٣٣هـ)
محمد بن أحمد بن تميم :
طبقات علماء إفريقية
تحقيق محمد بن أبي شنب
الجزائر ١٣٣٢هـ–١٩١٤م .

٥٤ – ابن العماد (ت١٠٨٩هـ)
أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي :
شذرات الذهب في أخبار من ذهب
القدسي – القاهرة – ١٣٥٠هـ .

٥٥ – القاضي عياض (ت٥٤٤)
أبو الفضل عياض بن موسى السبتي :
ترتيب المدارك وتقريب المسالك
تحقيق أحمد بكير محمود
٤ أجزاء
بيروت – ١٣٨٧هـ–١٩٦٧م .

٥٦ – أبو الفدا (ت٧٣٢هـ)
إسماعيل بن نور الدين علي بن جمال الدين محمد :
المختصر في أخبار البشر
٤ أجزاء
القاهرة – ١٢٨٦هـ .

٥٧ – ابن فرحون (ت٧٩٩)
برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد ابن فرحون :
الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء إفريقية
بيروت – بدون تاريخ .

٥٨ – ابن الفرضي (ت٤٠٣)
أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف :
تاريخ علماء والرواة للعلم بالأندلس
القاهرة – ١٩٦٦م .

٥٩ – القابسي (ت٤٠٣هـ)
أبو الحسن علي بن محمد بن خلف :
الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين
تحقيق أحمد فؤاد الأهواني
القاهرة – ١٩٥٥م .

٦٠ – ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)
أبو محمد عبد الله بن مسلم :
المعـــارف
تحقيق ثروت عكاشة
دار المعارف – القاهرة – ١٩٦٩م .

٦١ – القلقشندي (ت٨٢١هـ)
أبو العباس أحمد :
صبح الأعشى في صناعة الإنشا
القاهرة – ١٩٢٢م .

٦٢ – ابن القوطية (ت٣٦٧هـ)
محمد بن عمر بن عبدالعزيز :
تاريخ افتتاح الأندلس
تحقيق عبد الله أنيس الطباع
بيروت – ١٩٦٨م .

٦٣ – الكندي (ت٣٥٠هـ)
عمر بن محمد بن يوسف الكندي :
فضائل مصر
تحقيق د. إبراهيم أحمد العدوي وعلي محمد عمــر
القاهرة ١٣٩١هـ–١٩٧١م .
الولاة والقضاة
تحقيق رفن كست
لبنان – ١٩٠٨م .

٦٤ – مالك بن أنس
الموطـأ
تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي
القاهرة – ١٩٦٨م .

٦٥ — المالكي (ت نهاية القرن الرابع الهجري) عبد الله بن أبي عبد الله :
رياض النفوس
تحقيق د. حسين مؤنس
الجزء الأول
القاهرة — ١٩٥١م .

٦٦ — مجهـول العيون والحدائق في أخبار الحقائق
تحقيق نبيلة عبد المنعم داود
العراق — ١٣٩٢هـ—١٩٧٢م .

٦٧ — مجهـول (ت القرن السادس الهجري) الاستبصار في عجائب الأمصار
تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد
الإسكندرية — ١٩٥٨م .

٦٨ — أبو المحاسن (ت٨٧٤) جمال الدين بن يوسف بن تغري بردي :
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
القاهرة — ١٩٦٣م .

٦٩ — محمد بن سحنون (ت٢٥٦هـ) أداب المعلمين
تحقيق حسن حسني عبد الوهاب
القاهرة — ١٩٥٥م .

٧٠ — المراكشي (ت٦٤٧هـ) محيى الدين أبو محمد بن عبدالواحد بن علي التميمي :
المعجب في تلخيص أخبار المغرب
تحقيق محمد سعيد العريان
القاهرة — ١٩٤٩م .

٧١ — المسعودي (ت٣٤٦هـ) علي بن الحسين بن علي :
مروج الذهب
تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد
القاهرة — ١٩٦٤م .

٧٢ — المقريء (ت١٠٤١هـ) شهاب الدين أحمد بن محمد المقريء التلمساني :
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب
تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد
القاهرة ١٣٦٧هـ—١٩٤٩م .

٧٣ - النباهي (ت٧٩٣هـ) أبو الحسن بن الحسن النباهي المالقي :
تاريخ قضاة الأندلس
تحقيق ليفي بروفنسال
القاهرة - ١٩٤٨ م .

٧٤ - ابن النديم (ت٣٧٨هـ) محمد بن إسحق النديم :
الفهرست
بيروت ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م .

٧٥ - القاضي النعمان (ت٤١١هـ) النعمان بن محمد :
رسالة افتتاح الدعوة
تحقيق وداد القاضي
لبنان - ١٩٧٠م .

٧٦ - النووي (ت٦٧٦هـ) أبو زكريا يحيى بن شرف النووي :
تهذيب الأسماء واللغات
جـــزآن
القاهرة - ١٩٤٨ م .

٧٧ - النويري (ت٧٣٢هـ) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهـــاب النويري :
نهاية الأرب في فنون الأدب
الجزء ٢٤
تحقيق د. حسين نصار
مراجعة د. عبد العزيز الأهواني
القاهرة - ١٩٨٢ م .

٧٨ - اليافعي (ت٧٦٨هـ) أبو محمد عبد الله بن سعد بن علي بن سليمان :
مرآة الجنان
دار المعارف النظامية - الهند - ١٣٣٧ هـ .

٧٩ - ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ) شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت :
معجم البلدان
القاهرة ١٣٢٤هـ-١٩٠٦م .

٨٠ – يحيى بن عمر (ت ٢٨٩هـ)
النظر والأحكام في جميع أحوال السوق
تحقيق حسن حسني عبد الوهاب
مراجعة فرحات الدشراوي
تونس – ١٩٧٥م .

٨١ – اليعقوبي (ت ٢٨١هـ)
أحمد بن أبي يعقوب بن واضح :
البلدان
ليدن – ١٨٩٠م .

* * *

(٣) المراجع العربية

١ – الدكتور إبراهيم أحمد العدوي — الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط
القاهرة – ١٩٥١ م .

٢ – إبراهيم زكي خورشيد — دائرة المعارف الإسلامية
دار الشعب – القاهرة – ١٩٦٣ م .

٣ – إبراهيم العبيدي التورزي — تاريخ التربية في تونس
الجزء الأول
تونس – ١٩٦٧ م .

٤ – إبراهيم علي طرخان — المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى
القاهرة – ١٩٦٦ م .

٥ – إحسان عباس — العرب في صقلية
دار المعارف – القاهرة – ١٩٥٩ م .

٦ – أحمد أمين — ظهر الإسلام
القاهرة – ١٩٦٦ م .
ضحى الإسلام
القاهرة ١٩٦٩ م .

٧ – أحمد عطية الله — القاموس الإسلامي
القاهرة ١٣٩٠ هـ – ١٩٧٠ م .

٨ – أحمد فكري — مسجد القيروان
القاهرة – ١٩٣٥ م .
آثار تونس الإسلامية
تونس – ١٩٥٨ م .

٩ – أحمد فؤاد الأهواني — التربية في الإسلام
دار المعارف – القاهرة ١٩٧٣ م .

١٠ – د. أحمد مختار العبادي — في تاريخ المغرب والأندلس
اسكندرية ١٩٧٣ م .

١١ – ارشيبالد لويس — القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط
ترجمة أحمد عيسى
القاهرة – ١٩٦٩ م .

١٢ - أمين الخولي
الإمام مالك
القاهرة - ١٩٥٧ م .

١٣ - بطرس البستاني
دائرة المعارف الإسلامية
بيروت - ١٨٨٧ م .

١٤ - الحبيب الجنحاني
القيروان
تونس - ١٩٦٨م .

١٥ - د. حسن إبراهيم حسن
تاريخ الإسلام السياسي
القاهرة - ١٩٧٣م .

١٦ - د. حسن أحمد محمود
انتشار الإسلام والثقافة العربية في إفريقية
الجزء الأول
القاهرة - ١٩٥٨ م .

١٧ - حسن حسني عبدالوهاب
خلاصة تاريخ تونس
تونس - ١٩٧٦ م .
شهيرات التونسيات
تونس - ١٣٥٣ هـ .
الإمام المازري
تونس - ١٣٤٨ هـ .
ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية
المنار - تونس - ١٩٦٦ م .

١٨ - د. حسين مؤنس
فجر الأندلس
القاهرة - ١٩٥٩م .
فتح العرب للمغرب
القاهرة - ١٩٤٧م .
شيوخ العصر في أهل الأندلس
القاهرة - ١٩٦٥م .
معالم تاريخ المغرب والأندلس
القاهرة - ١٩٨٣م .

١٩ - الزركلي
الأعـلام
القاهرة ١٣٨٣هـ-١٩٦٣م .

٢٠ – د. زكي محمد حسن — فنون الإسلام
القاهرة – ١٩٥٤ م .

٢١ – د. سعد زغلول عبدالحميد — تاريخ المغرب العربي
الجزء الثاني
الإسكندرية – ١٩٨٤م .

٢٢ – د. السيد الباز العريني — الدولة البزنطية
القاهرة – ١٩٦٠م .

٢٣ – د. السيد عبدالعزيز سالم — تاريخ المغرب الكبير
الإسكندرية – ١٩٨٤م .
تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس
بيروت – ١٩٧٣م .
تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس
بيروت – ١٩٦٢م .

٢٤ – عبد العزيز المجذوب — الصراع المذهبي بإفريقية
تونس ١٣٩٥هـ–١٩٧٥م .

٢٥ – د. علي حسني الخربوطلي — البحر المتوسط – بحيرة عربية
دار المعارف–القاهرة ١٩٦٣م .

٢٦ – عمر رضا كحالة — معجم المؤلفين
سورية ١٣٨٠هـ–١٩٦٠م .

٢٧ – د. لطفي عبد البديع — الإسلام في أسبانيا
القاهرة – ١٩٦٩م .

٢٨ – ليفي بروفنسال — الحضارة العربية في أسبانيا
ترجمة د. الطاهر أحمد مكي
دار المعارف–القاهرة ١٩٧٣م .
الإسلام في المغرب والأندلس
ترجمة د. السيد محمود عبدالعزيز سالم
ومحمد صلاح الدين حلمي
القاهرة – ١٩٦٩م .

٢٩ - محمد زينهم محمد عزب	الإدارة المركزية للدولة الأموية رسالة ماجستير (تاريخ إسلامي) ١٤٠١هـ-١٩٨١م .
٣٠ - محمد أبو زهرة	الإمـام مالك القاهرة ١٣٦٥هـ-١٩٦٤م .
٣١ - محمد ضياء الدين الريس	الخـــراج القاهرة - ١٩٨١م .
٣٢ - محمد عبد الله عنان	تراجم شرقية وأندلسية القاهرة - ١٩٦٩م .
٣٣ - محمد علي دبوز	تاريخ المغرب ١٣٨٣هـ-١٩٦٣م .
٣٤ - محمد بن محمد مخلوف	شجرة النور الزكية في طبقات المالكية القاهرة - ١٩٨١ م .
٣٥ - محمد المطلبي	تراجم أغلبية تونس - ١٩٦٨ م .
٣٦ - د. محمود إسماعيل عبد الرازق	الأغالبـة القاهرة ١٩٦٧ م . الخوارج في المغرب الإسلامي دار البيضاء - المغرب ١٩٧٣ م .

* * *

(٤) المراجع الأجنبيـة

1. **Nevill Barbour** — Asurvey of North Westafrica (The Maghrib) London — New York 1959.
2. **Normandainel** — The Arabs and Mediaeval Beirut 1975.
3. **Carl Stephenson** — Mediaeval History New York and London 1943.
4. **Philip. K. Hitt** — History of the Arabs London 1949.
5. **Georges Marcais** — La Berberie Musulmane Paris 1939.
6. **Henripirenne** — Mohammed and Charlemgne London 1954.
7. **Henri Terrasse** — Histore Du Maroc Paris 1952.

* * *

(٥) المجـــلات

١ - د. أحمد مختار العبادي
سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس
مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
١٣٧٧هـ-١٩٥٧م .

٢ - د. حسين مؤنس
الحياة الإدارية في إفريقية في العصر الإسلامي
مجلة كلية الآداب والتربية
الكويت - ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م .

٣ - د. محمود علي مكي
أحكام السوق
معهد الدراسات الإسلامية - مدريد - أسبانيا العدد ١ ، ٢ سنة ١٩٥٧ م .

* * *

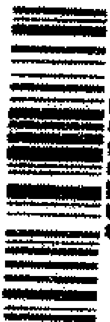
رقم الإيداع ٨٠٥١ لسنة ١٩٩٢



هـذا الكتاب

- يعتبر أبو سعيد عبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون أكبر شخصية فقهية وعلمية ظهرت في تاريخ المغرب بصفة عامة وإفريقية الإسلامية بصفة خاصة خلال العصور الوسطى . فقد شب سحنون في بيت علم ودرس دراسة واسعة ثم رحل إلى المشرق ليأخذ فقه مالك على يد صاحبه إمام دار الهجرة ، ولكن (الإمام مالك) توفى وسحنون على باب المدينة ، فلم تتح له الدراسة على مالك فدرس على يد تلاميذه الكبار في مصر وعلى رأسهم عبد الرحمن بن القاسم العتقي وعبد الله ابن وهب وأشهب بن عبد العزيز ، وهم دعائم المدرسة المالكية في مصر في ذلك العصر .

- وقد تفقه سحنون على يد هؤلاء الشيوخ ودرس دراسة مستفيضة ثم ارتحل إلى المدينة معقل المذهب المالكي حيث فيها ولد ونشأ ووضع الإمام مالك أسس مذهبه السني ، وهناك التقى سحنون بكبار الفقهاء المالكية آنذاك أمثال ابن الماجشون وابن عيينه وابن الجراح وغيرهم ، ثم قصد مكة ليزداد علماً من فقهائها المالكيين ثم عاد إلى بلاده شيخاً متكامل العلم ناضج الشخصية فجلس بمسجد القيروان ينشر مذهب الإمام مالك .

دار الفرجاني
القاهرة : ٩ ميدان الذهبي ــ منشية البكري ــ مصر الجديدة
ص.ب : ٢٣٨٢ الحرية تليفون : ٢٩٠٥٨٩٥